



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عيد ميلاد  
عمران

www.Ghaemiyeh.com  
www.Ghaemiyeh.org  
www.Ghaemiyeh.net  
www.Ghaemiyeh.ir

# مِيقَاتُ الْحَجِّ

تعدادیست سکونیه لغوی والشؤون الفقهیه

والشؤون المعاصره والسکونیه والأحوال المعشریه

٢٥

مجله و سہ ماہی الآخرة

١٤٢٢ھ

السنة ١٢



- الحج . رموز و جگم (١) • صلاة الطواف و مکانها •
- قلهات معاصره فی الحج • ٢ • • قله الجدال فی الحج • ٢ • •
- صفحات من تاریخ المدينه المنوره •
- حکایات من سنه المکرمه • أسماء بنت عیسى . داعية تحفزی •
- الرحلة الحیثیه للعلامة السید محسن الأمين •
- سنه المکرمه دراسة فی جغرافية المدن •

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

## الفهرس

٥	الفهرس
٦	ميقات الحج-المجلد ٢٥
٦	اشارة
٦	اشارة
١٠	الحج، رموز وجكّم (٤)
٣١	صلاة الطواف ومكانها
٤٦	فقهيات معاصرة فى الحج «٣»
٧٩	فقه الجدل فى الحج
٩٦	حكايات من مكّة المكرّمه
١١٧	أسماء بنت عميس داعية تحتدى
١٣٥	الرحلة الحجية
١٦٧	صفحات من تاريخ المدينة المنورة
١٩٠	مكّة المكرّمه دراسة فى جغرافية المدن
٢٥٧	رمزية حجة إبراهيم عليه السلام فى التاريخ
٣٠٢	تعريف مركز

## میقات الحج-المجلد ۲۵

## اشاره

عنوان و نام پدیدآور: میقات الحج: مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه.....محمد محمدی ری شهری.

مشخصات نشر: [بی جا: بی نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری: ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک: ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی توصیفی

یادداشت: عربی.

یادداشت: شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت: پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت: کتابنامه.

شناسه افزوده: محمدی ری شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده: قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی: ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

## اشاره









## الحج، رموز ومكّم (٤)

ص: ٥

الشيخ عبدالله جوادى آملی

وجوب الإحرام من الميقات

من الأمور الهامة في الحج والعمرة (١)، معرفه مواقيت الإحرام، ذلك أن عقد

١- الحج في اللغة، القصد المكرر، أما في الإصطلاح، فيقصد به إنجاز الأعمال الخاصة في أيام محدّدة في أرض مكة المكرمة. أما العمرة، فتعنى في اللغة الزيارة، واعتمر أى زار مجمع البحرين ٢: ١٢٧٠، مادة: عمر، وحيث كانت الزيارة باعثة على عمران مكانها ومحلها، سميت زيارة بيت الله الحرام عمرة واعتماراً.

والحج والعمرة أعمال تعبدية، لا توصلية؛ حيث يستفاد ذلك من تعبير «لله» الوارد في قوله تعالى: «وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...» البقرة: ١٩٦، نعم، لهذه الأعمال العبادية منافع أيضاً، قال سبحانه: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» الحج: ٢٧-٢٨، وهو أمر لا ينافي العبادية، كما لا يستلزم التوصلية.

ويقع الحج على أنواع ثلاثة: التمتع، والقران، والإفراد؛ فحج التمتع مركب من عبادتين: إحداها عمرة التمتع، وثانيتها حج التمتع، أما عمرة التمتع فتقدم على حج التمتع، وتتألف من خمسة أجزاء هي: ١- الإحرام ٢- الطواف حول الكعبة. ٣- صلاة الطواف. ٤- السعى بين جبلى الصفا والمروة. ٥- التقصير، أى أخذ مقدار من شعر الرأس أو الأظافر.

ويتألف حج التمتع من ثلاثة عشرة عملاً هي: ١- الإحرام من مكة. ٢- الوقوف بعرفات. ٣- الوقوف بالمشعر الحرام. ٤- رمى جمرة العقبة في منى. ٥- ذبح الأضحية في منى. ٦- حلق الرأس في منى أو تقصيره. ٧- طواف الزيارة في مكة. ٨- صلاة الطواف. ٩- السعى بين الصفا والمروة. ١٠- طواف النساء. ١١- صلاة طواف النساء. ١٢- المبيت في منى ليلتي الحادى عشر والثاني عشر من ذى الحجة، وبعض الحجاج يجب عليه المبيت ليلته الثالث عشر أيضاً. ١٣- رمى الجمرات الثلاث في يومى: الحادى عشر والثاني عشر، وعلى من بات في منى ليلته الثالث عشر أن يرم صبيحتها أيضاً.

أما العمرة المفردة، فإضافة إلى الأعمال المتقدمه في عمرة التمتع، هناك عملان آخران واجبان فيها هما: طواف النساء، وصلاة طواف النساء، ويجب إنجاز هذين العملين بعد الحلق أو التقصير.

وللتعرف على أجزاء هذه العبادات وشرايطها تراجع كتب مناسك الحج.

ص: ٦

الإحرام من مصاديق إتمام الحج والعمرة، وهو- أى الإتمام- ما جاء الأمر الإلهي به، (١) جاء في الحديث: «من تمام الحج والعمرة أن تحرم من المواقيت...» (٢).

والمواقيت مكاناً خاص، والمواقيت أماكن محدّدة عيّنها رسول الله صلى الله عليه وآله على أساس الوحي الإلهي لأهل الأقاليم، والجدير ذكره أن رسول الله صلى الله عليه وآله حدّد مواقيت لأهل أفريقيا، وأهل الشام والعراق، يُحرمون منها عند ورودهم الحرم الشريف مع أنه لم يكن بعدُ قد تشرف أحد في تلك الديار بشرف الإسلام، بل إنّ المدن الرسمية والمعروفة في العراق لم تكن- وفق بعض المنقولات- قد ظهرت بعدُ عند تحديد النبي صلى الله عليه وآله للمواقيت (٣).

والمواقيت الخاصّة المحدّدة خمسة أو ستة، إلّا أنّ المواضع التي يصحّ فيها الإحرام للحج والعمرة تبلغ العشرة تقريباً، وللمواقيت المعينة خصوصية أنّها المكان الوحيد المناسب لحدوث الإحرام فيه، فلا يجوز تقديم الإحرام عنها أو تأخيرها، اللهم إلا في حال الضرورة أو النذر أو لإدراك إحرام شهر رجب.

والجدير ذكره أن الدخول إلى الحرم لا يجوز إلا محرماً، ليس هذا فحسب، بل إن العبور عن المواقيت لمن يقصد الحرم لا يجوز له إلا في حال الإحرام أيضاً.

والمواقيت لا يقبل التغيير، تماماً كسائر المواقف مثل عرفه والمشعر ومنى، وإذا

١- البقرة: ١٩٦.

٢- وسائل الشيعة ٨: ٢٢٢.

٣- يقول الإمام الصادق عليه السلام: «فإنه وقت لأهل العراق ولم يكن يومئذ عراق» انظر: وسائل الشيعة ٨: ٢٢٢.

ص: ٧

ما صار جزءاً من قرية أو مدينة نتيجة حصول توسعته فيهما بقي له حكمه دون تعديل، فالتنعيم مثلاً - وهو أحد مواقيت العمرة - كان سابقاً خارج حدود مكة، إلا أنه غدا اليوم - بعد اتساع المدينة - داخلها، ومع ذلك لم يخرج عن صفة الميقات التي كان يملكها. وثمة أفكار كثيرة يمكن استفادتها من النصوص الواردة في بيان المواقيت، نحاول هنا الإشارة إلى بعضها وهي:

١- إن تعيين الميقات المكاني إنما نشأ - كالميقات الزماني - من جانب الشارع المقدس وطبقاً للسنة الدينية، لا من ناحية عادات الناس.

٢- إن تعيين مواقيت لأبناء بعض البلدان والمدن التي لم تكن قد ظهرت بعد، أو لأناس لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام هو - كما أشرنا من قبل - إعجاز ديني.

٣- للأحكام الشرعية كافة أصل في الوحي الإلهي، مع أنه لم تبيّن الأصول السماوية لكل حكم معه، إلا أن بعض المواقيت، مثل ذى الحليفة قد جاء فيه:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لأني علّته أحرم رسول الله صلى الله عليه وآله من مسجد الشجرة ولم يُحرم من موضع دونه؟ فقال: لأنه لما أسرى به إلى السماء وصار بحذاء الشجرة نودي يا محمد! قال: ليبيك، قال: ألم أجدك يتيماً فأوتيتك، ووجدتك ضالاً فهديتك؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: إن الحمد والنعمة والملك لك كلها لا شريك لك، فلذلك أحرم من الشجرة دون المواضع» (١).

ورغم ما للميقات من حرمة خاصة، إلا - أن تلك المكانة إنما أخذها من كونه موضعاً للإحرام، وحيث قام الإسلام على السهولة والسماحة، لا سيما في الحج والعمرة حيث لا تكرر فيهما يوماً كالصلاة حتى تكون أحكامه عند الجميع.. من هنا فلو تجاوز شخص عن غفلة أو قصور أو ذهول أو سهو ونسيان عن موضع

ص: ٨

الإحرام وميقاته دون أن يحرم، ثم دخل الحرم وهو على هذه الحال، وأنجز تمام أعمال الحج والعمرة طبقاً للضوابط المعهودة، ثم التفت آخر العمل أنه لم يعقد الإحرام، كانت أعماله بتمامها صحيحة، فلا حاجة له إلى الإعادة أو القضاء.

### الحرم الإلهي

الحرم موضع مكاني محدد، يختلف بعد حدوده عن الكعبة من الجهات المتعددة، فيحدّه من ناحية الشمال والشمال الغربي مسجد التنعيم على طريق المدينة، ومن الجنوب والجنوب المائل إلى الشرق «إضاءة اللبن» على مسير اليمن، ومن الشرق والشرق المائل إلى الجنوب «الجعرانة» القريبة من منى والمشعر الحرام على طريق الطائف، ومن الغرب والغرب الشمالي «الحديبية» على مسير جدة. وقد وُضعت لتعيين حدود الحرم من الأطراف كافةً علائم وعلامات.

ويجب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عن سؤالٍ وجه إليه عن سبب اختلاف حدود الحرم في بعدها عن الكعبة من الجهات المتعددة، ففي بعضها قريبة وفي بعضها أبعد؟: «إن الله عز وجل لما أهبط آدم من الجنة هبط على أبي قبيس، فشكا إلى ربه الوحشة، وأنه لا يسمع ما كان يسمعه في الجنة، فأهبط الله عز وجل عليه ياقوته حمراء، فوضعها في موضع البيت، فكان يطوف بها آدم، فكان ضوؤها يبلغ موضع الأعلام، فيعلم الأعلام على ضوئها وجعله الله حرماً» (١).

وقد نقل هذا المطلب بطريقةٍ أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام، وطبق هذا النقل، فإن الله تعالى أمر جبرئيل؛ لتسكين آدم عليه السلام وحواء، بالذهاب إليهما، «فأهبط عليهما بخيمة من خيم الجنة.. وأنصب الخيمة على الترعَة..»، ويضيف الإمام الباقر عليه السلام ما هو قريب من الرواية السابقة: «الترعة مكان البيت.. وكان عموداً

ص: ٩

الخيمة قضيب ياقوتٍ أحمر، فأضاء نوره وضوؤه جبال مكة وما حولها.. فهو مواضع الحرم اليوم من كل ناحية من حيث بلغ ضوء العمود.. فجعله الله حرماً للحرم الخيمة والعمود؛ لأنهما من الجنة.. (١).

أمن الحرم

لقد أحيا النبي إبراهيم عليه السلام، وهو شيخ الأنبياء الإبراهيميين، سنّه وسيرته، إلا أن بعض أعماله وبعض مناجاته تعدد من جوامع الكلم، فطلبه صيرورة هذا المكان بلداً، وأمناً مطلقاً، ومجمعاً لثمار مختلفه من أقطار العالم، والتنبؤ بصيرورة- مكانٍ غير ذى زرع أم القرى.. من الكلمات الجامعة له عليه السلام، تقع في صراط تأسيس نظام التوحيد، ونشر الإيمان والعمل الصالح، والقيام بتنمية شاملة للمعارف العقائدية، والأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية، ذلك أنها إذا كانت موضعاً لسكان أرضها الآمنة فحسب لم تكن - أبداً- أم القرى، ذلك أن نواحيها ليست بالمكان الآمن، فقطاع الطرق في عمق الصحراء المحيطة سوف يقطعون أى نوع من أنواع الارتباط، مما سيمنع تردد أبناء الأطراف المحيطة إليها، كما لن تصل محاصيل أطرافها من القريب والبعيد إليها، ولن تكون سوقاً رسمية.

يمكن للحرم الإلهي وأرض مكة أن تحمل على عاتقها مسؤولية العالمية بل العولمة الصحيحة، وذلك:

أولاً: توفر جانب كونها أم القرى، وتبعيتها نواحيها لها، ورغبة الناس وشوقهم للمجيء إليها.

ثانياً: إنها مركز التوحيد، أى أنها تستوعب بين جنباتها الكعبة، وهى القبلة والمطاف أيضاً.

ثالثاً: وصول نداء بانى الكعبة، نبينا إبراهيم عليه السلام الذى بناها بأمر من الله تعالى،

ص: ١٠

وهو صاحب البيت، ذاك النداء الداعي للحضور إلى ساحة هذا البيت بغية الحج والعمرة... وصوله إلى أسمع العالم بأفطاره ونواحيه، ومن الثابت أن فضيلة عظيمة معدة لامثال هذا الأمر الإلهي الإلزامي.

إن سرّ تقديم الأمن على الدعوة إلى الحج والعمرة، وعلى جلب أنواع الثمار من النواحي القريبة والبعيدة إلى هذه الأرض الطيبة هو أن الأمن أطيب النعم الفردية والاجتماعية للإنسان وأجملها وأحبها إلى قلبه، ففي ظل الأمن تتحقق سائر البركات المفقودة، كما أن فقدانها يصاحبه زوال هذه النعم الموجودة.

ومن أبرز مصاديق الأمن ومظاهره، الأمن الثقافي والفكري، ووجود مناظرات ثقافية سليمة؛ ذلك أن الحوار وتضارب الآراء والصبر على آراء الآخرين العلمية المنصفة يلعب دوراً رئيساً في وضوح الحق وجلاته ومحو الباطل واندثاره.

لقد كان إبراهيم عليه السلام رائداً في الحوارات العلمية، وفي الجدل بالتي هي أحسن، بل في تمام الخصال والسجايا الأخلاقية الكبرى، وقد كان الأئمة المعصومون من نسل طه وأسرته ياسين صلى الله عليه وآله يعتبرون جوار الكعبة مدرسة للحكمة ومعهداً للجدال بالتي هي أحسن.

إشارة: كانت الكعبة في بنائها الأصلية موجودة منذ عصر آدم الصفي عليه السلام، لكنّها انهدمت تدريجياً وتركت، وتم تجاهلها إلى أن بناها إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، وما حصل على صعيد بنائها وبنائها حصل أيضاً - كما تشهد به بعض المعطيات الروائية - على صعيد الأمن فيها والأمان، فقد كانت الكعبة مكاناً آمناً في البداية، ثمّ فقدت أمنها تدريجياً، ليعود لها مرةً أخرى مع النبي إبراهيم عليه السلام.

وهنا، يجدر الاهتمام بأنّ دعاء النبي إبراهيم عليه السلام قد حقّق لأرض مكّة أمنها وأمانها، لا للكعبة وحدها، وإلّا فأمن الكعبة لم يتحقق بطلب إبراهيم عليه السلام وإنّما صار أن جعلها الله منذ البداية مثابةً ومطافاً، وقبله، وأمناً.

ص: ١١

وأمن الحرم على قسمين: تشريعي، وتكويني، وسوف يتكفل ببيان هذين النوعين من الأمن المبحثان التاليان.

## ١- الأمن التكويني

وفقاً لظواهر الأمور، يفترض بأرض مكة أن تكون أرضاً غير آمنة، ذلك أن طبع أبناء الحجاز من جهة كان على الاعتداء والغارة، كما أنّهم - من جهة أخرى - ما كانوا ينعمون بالعلم، والثقافة، والزراعة، وتربية المواشى، والصناعة و.. بل إن الشعب الفاقد للثقافة والجائع في الوقت عينه من الطبيعي أن يكون عدوانياً يعيش على الهجمات والغارات.

إلا أنه، رغم ذلك كله، قال تعالى: «أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَدُنَّا» (١).

وقال: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» (٢).

وطبقاً للمبدأ عينه، عاشت قريش النعمة والأمن من الجوع والخوف، قال سبحانه: «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» (٣).

ويحدّثنا الله تعالى عن الأمن التكويني للحرم فيقول: «وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهَيْدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا»

(٤). كما أن الله تعالى يحدّثنا عن مكة كيف كان خطف الناس رائجاً في أطرافها، لكنّ الله جعل أرضها حرماً آمناً، لا لأنّ سكّان

الحرم الإلهي ومدينه مكة قد غدوا أناساً صالحين، بل لأنّ الناس تفهم حرمة الحرم وتقوم بحقه، قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا

آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» (٥)، وحيث كان الخطف أمراً تكوينياً فإنّ الأمن الذي

١- القصص: ٥٧.

٢- آل عمران: ٩٧.

٣- قريش: ٤.

٤- القصص: ٥٧.

٥- العنكبوت: ٦٧.



ص: ١٢

يقابله سيكون تكوينياً أيضاً.

ويستفاد جيداً من الآيات المذكورة المرتبطة بعصر الجاهلية أن خطر الهجمات والغارات والخطف وقطع الطرق كان قائماً خارج نطاق الحرم، أما في الحرم فلم يكن كذلك، فحكم الأمن تشريعاً إنما جاء بعد الإسلام، والقرآن الكريم عندما يذكر الأمن في الحرم في العصر الجاهلي إلى زمان الإسلام وإلى ما بعده أيضاً فإنما يقدم ذلك شاهداً ومستنداً له.

يقول الإمام الصادق عليه السلام حول أمن الحرم: «من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن، ومن دخل البيت مستجيراً به من المذنبين فهو آمن من سخط الله، ومن دخل الحرم من الوحش والسباع والطير فهو آمن من أن يهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم» (١).

ولابد من الالتفات إلى أن الإعلان عن أمن الحرم المكى لا- يعنى حرية أى إنسان فى أن يقوم بما يشاء فيه، ذلك أن الله تعالى يحدثنا عن أناس كانوا يعيشون بأمن فى بلادهم غير أن الله أغرقهم بالخوف والجوع والاضطراب إثر كفرهم بنعمه، قال تعالى: «وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» (٢).

وعليه، فالأمن التكويني للحرم لا يعنى أنه لا تقع فيه مذابح ومظاهر قتل، بل بمعنى أن الله سبحانه جعل هذه الأرض - على أساس من لطفه - مأمناً، أما لو ضلّ الناس فيها سبيلهم، فإن الله ينزل عليهم العذاب.

١- وسائل الشيعة ٩: ٣٣٩.

٢- النحل: ١١٢.

ص: ١٣

طويلة، نعم، من الممكن لدولة في الحجاز مع عاصمته مثل الرياض أن تقوم ببعض ألوان الظلم الفردى أو الاجتماعى، إلّا أنه لا يمكن فى مكّة ممارسة ظلم إلحادى ذى صبغة كافرّة، ذلك أن الآية الشريفة: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ» (١)، تهدّد من يقوم بذلك، أى بالظلم الإلحادى، لا غيره، وفى خصوص الحرم لا خارجه، والظلم الحقيقى بالأشخاص الحقيقين أو الحقيقين مغايراً للظلم الإلحادى الذى يصاحبه كفرّ وإلحاد.

وحصيلة الكلام، ليست مكّة كالجنة لا يقع فيها معصية أو انحراف (٢)، إلا- أنها- مع جريان أحكام الدنيا عليها- تمتاز عن كثير من البقاع فى الأرض، ومن جملة هذه الامتيازات أنه لو أراد بها شخص سوءاً عن ظلم وكفر فسوف يلقى عذاباً شديداً (٣). ومن الجدير ذكره، أن الأمن التكوينى للحرم نسبى بلحاظ مكّة، ونفسى بلحاظ الكعبة، بمعنى أنه من الممكن لله تعالى أن يعاقب فى مكّة ليتبه الكافرين والمدننين، إلّا أنه لا- يمكن لأحد أن يواجه أصل الكعبة- وهى قبله المسلمين ومطافهم- وإذا ما خرب بعض المعاندين فى بعض حقبة التاريخ البشرى الكعبة فهو لكى يلقوا القبض على بعض المتحصنين بها، لا لمواجهتها ومحاربتها نفسها، من هنا أقدموا مرّتين على إعادة بنائها.

٢- الأمن التشريعى

يجمع دعاء النبى إبراهيم عليه السلام، والذى طلب فيه من الله سبحانه الأمن والخير الإقتصادى لمكّة وساكنيها، بين التكوين والتشريع، قال تعالى: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ» (٤).

١- الحج: ٢٥.

٢- الطور: ٢٣.

٣- الحج: ٢٥.

٤- البقرة: ١٢٦.

ص: ١٤

إن الأمانة والأزمنة المرتبطة بالدين هي المعتمد الوحيد لأمن البشر، والأشياء، والأفراد، من هنا جعل الله سبحانه بعض البلاد، والأزمنة، والأشخاص، والأشياء معالم أمن، تماماً كما أعلن احترام الحجّ بأطرافه عادداً له من الشعائر الإلهية بغية بيان هذا الأمن وتثبيتته شاملاً لأطراف الحرم وسكانه وزوّاره.

قال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَيْدَىٰ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً» (١).

وعلى هذا الأساس، أصدرت قوانين عديدة لحفظ الأمن ومطابقة التشريع للتكوين، مثل حرمة حمل السلاح حال الإحرام، إلا مع الضرورة، وكذا حرمة إظهار السلاح في غير حال الإحرام بحيث يسبب ذلك إحساساً بعدم الأمن لدى زوار بيت الله الحرام.

والأمن التشريعي للحرم محفوظ دوماً، فلا- يجوز خرق حرمة الحرم إلّا في فترة محدودة هي فتح مكة، اللهم إلا إذا هاجم الآخرون المسلمين وكسروا حرمة الحرم فيجوز عندها سلب الأمن عنهم، على أساس قوله تعالى: «وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ» (٢)، وقوله سبحانه: «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ» (٣).

ولتوفير أفضل السبل لتربية الناس وإقامة السلام والأمن وإقرارهما، أكدت التشريعات على الحدّ من بعض التصرفات، وأعلنت حرمة شاملة للحرم وأمناً

١- المائدة: ٢.

٢- البقرة: ١٩٤.

٣- البقرة: ١٩١.

ص: ١٥

واسعاً له ولحال الإحرام أيضاً، من هنا أعلنت الأشهر الأربعة الحرم أمنّاً شاملاً، سواء كان هناك حج أو عمرة أو لم يكن، وكذلك في الأشهر التي يسافر فيها الحجاج، وهي أشهر قد تطول - سابقاً - أحد عشر شهراً.

والجدير ذكره هنا، أن نعمه الأمن والأمان وإن كانت عظيمة القيمة، إلّا أن هذا الإصرار على إقامتهما يلفت نظر الباحث الحصيف إلى أنه لا بدّ في تلك المنطقة من إنجاز أعمال لا تُنجز - على ما يبدو - سوى مع وجود إحساس بالأمن والهدوء والطمأنينة، فإذا ما كانت هذه الأعمال مجرد المناجاة والزيارة والطواف وأمثالها دون إعلان الغضب والتنديد بوجه الطغاة والمعتدين والعاصين، فلن يعيق هؤلاء عن تحقيق الأمن، ومن ثمّ ستكون كلّ هذه النصوص المصوّرة على مسألة الأمن لغواً وعبثاً.

تذكّر: سوف نتحدّث - بإذن الله تعالى - عن قسم آخر لمبحث الأمن التشريعي، لدى الحديث عن «الخصائص الفقهية للحرم».

ص: ١٦

ساحة أمن ولاية المعصومين عليهم السلام

استناداً إلى بعض الروايات، ومع الأخذ بعين الاعتبار ما تقدّم عند الحديث عن قوله تعالى: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» (١)، فإن كل داخلٍ في الاعتقاد بالامامة والالتزام بالولاية هو في أمنٍ وأمان، وطبقاً لهذا النمط من الروايات لايراد الإطلاق من الآية الشريفة المشار إليها، ذلك أنه من الممكن أن ينفذ الكفّار والملحدون وأصحاب العقائد الباطلة إلى داخل الكعبة، والحال أنهم ليسوا في أمان. وعليه، فالمراد- كما يقول الإمام الصادق عليه السلام:- «من دخله- وهو عارف بحقنا كما هو عارف له- خرج من ذنوبه وكفى هم الدنيا والآخرة» (٢).

وفي روايةٍ أخرى للإمام الصادق عليه السلام وضمن مناظرة جرت بينه وبين أبي حنيفة جاء فيها: «.. فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: «سَيَرُوا فِيهَا لِيَالِيًّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ» (٣)، أين ذلك من الأرض؟ قال: أحسبه ما بين مكّة والمدينة، فالتفت أبو عبدالله إلى أصحابه فقال: تعلمون أن الناس يقطع عليهم بين المدينة ومكّة، فتؤخذ أموالهم ولا يأمنون على أنفسهم ويقتلون؟ قالوا: نعم، قال: فسكت أبو حنيفة، فقال: يا أبا حنيفة! أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» أين ذلك من الأرض؟ قال: الكعبة... فقال أبو بكر الحضرمي: جعلت فداك الجواب في المسألتين الأولتين؟ فقال: يا أبا بكر! «سَيَرُوا فِيهَا لِيَالِيًّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ» مع قائمنا أهل البيت، وأما قوله تعالى: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» فمن بايعه ودخل معه، ومسح على يده، ودخل في عقد أصحابه، كان آمناً» (٤). نعم، المراد هنا الأمن المطلق: التشريعي، والتكويني.

١- آل عمران: ٩٧.

٢- تفسير العياشي ١: ١٩٠.

٣- سبأ: ١٨.

٤- بحار الأنوار ٢: ٢٩٢-٢٩٤.

ص: ١٧

## الخصائص الفقهيّة للحرم

لمنطقة الحرم خصوصيات فقهية كثيرة، نشير هنا إلى بعضها:

١- لا يوجد على سطح المعمورة مكان غير هذا المكان يُشترط لوروده، حتى في غير موسم الحج، الإحرام من أحد المواقيت المقررة، من هنا، فدخل غير المسلم إلى الحرم ممنوع؛ ذلك أنه يلزمه الإحرام، وإحرام الكافر غير صحيح، والموارد الاستثنائية لهذا الحكم الكلي العام بالغة القلة.

٢- لا يقتصر منع دخول المشركين على الكعبة والمسجد الحرام، بل يتعدى ليشمل مكة والحرم كله، قال سبحانه: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا» (١)، فيجب على المسلمين تنزيه هذا المكان وطرده هؤلاء المشركين منه (٢).

٣- يحرم تعذيب أي شخص يدخل الحرم أو إيذاؤه، اللهم إلا إذا جنى جنايةً خارجةً ثم احتجى بالحرم والتجأ إليه، وفي هذه الحالة تحرم مبايعته، وكذا حمايته وإجارته وعاريتة البيوت، كما يحرم إعطاؤه الطعام أو بيعه له.

ومثل هذه الضغوطات والمتاعب عليه إنما تهدف إلى إجباره على الخروج من الحرم كي تقام عليه الحدود الإلهية.

لقد بلغ الاهتمام بحريم الحرم الإلهي حدًا، أن يسأل سماعه بن مهران الصادق عليه السلام فيقول: «سألته عن رجل، لى عليه مال، فغاب عني زمانًا، ثم رأيت يطفو حول الكعبة، أفأقاضيها مالي؟ قال: لا، لا تسلّم عليه، ولا ترّوعه حتى يخرج من الحرم» (٣).

٤- لو ارتكب شخص جنايةً في الحرم أو جرماً جرى عليه الحد فيه، ذلك أنه لم يرع حرمة الحرم، لذا لزمه قصاصه من هذه الناحية، قال سبحانه:

١- التوبة: ٢٨.

٢- وسائل الشيعة ٩: ٣٤٤.

٣- المصدر نفسه: ٣٦٥.

ص: ١٨

«وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ» (١).

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام حول من قتل في الحرم أو سرق: «يُقام عليه الحدّ في الحرم صاغراً؛ لأنه لم يَرِ للحرم حرمةً، وقد قال الله عزّ وجلّ: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» (٢)، فقال: هذا هو في الحرم، وقال: «فَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» (٣)» (٣).

إن ما يقتضيه قوله تعالى: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» أن إعدام القاتل واجب، بيد أن إهانته حرام، أما هنا فتعدو إهانته راجحة؛ ذلك أنه تجاهل الحرمات والمقدّسات ولم يقدرها أو يحترمها، ومعه فلا يصح أن يحترم هو أيضاً. إن الكعبة بمنزلة كرامة المسلم وشرفه؛ من هنا كان الجميع مكلفين بحفظ حرمتها، فحرمة الكعبة هي الأساس لحرمة الحرم إلى حدّ تجنّب الفقهاء - حذراً وخوفاً - من السكن فيه؛ والسبب في ذلك خوفهم من أن يرتكبوا فيه أيّ ذنب، يحتملون كونه «إلحاداً»، ممّا يخيفهم من نتائج التعذيب الإلهي: قال تعالى: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (٤). ولا يعني ذلك كراهة العيش في ذلك المكان المقدّس، وإنّما يعني الخوف من عدم مراعاة حقوق الحرم الإلهي الرفيع. مكّة، أنموذج المدينة الفاضلة

قد تكون لبعض الأزمنة والأمكنة خصوصيات استناداً إلى جذور ترجع

١- البقرة: ١٩٤.

٢- البقرة: ١٩٤.

٣- وسائل الشيعة ٩: ٣٣٦-٣٣٧.

٤- الحج: ٢٥.

ص: ١٩

إليها في المخزن الإلهي، ممّا لا تملكه أزمته أخرى أو أمكنته، إلّا أنّ الظاهر أن احترام الزمان يكون بمن فيه، واحترام المكان يكون بالتمكّن فيه.

من هنا، يمكن أن تكون مكّة أفضل البقاع؛ ذلك أنّها كانت منذ قديم الأيام مهداً للتوحيد، ومركزاً للوحى، ومحلّاً لتربية الكثير من الأنبياء والأولياء وكذا لظهورهم و... حيث تمثلت الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة الذهبية بالتوحيد الخالص، وهبوط القرآن، وصعود خاتم الرسل صلى الله عليه وآله لمقام النبوة النهائي المنيع ومركز الرسالة الخاتمة.

إضافةً إلى ذلك، فقد احتوت مكّة بيت الله الشريف ومكانه النهائي، من هنا كانت مقدّسةً منذ قديم الأيام، وعليه فالمدينة المنورة - كمكّة المكرّمة - مهبط الوحى ومحل نزول الكثير من سور القرآن الحكيم، كما أن الدولة الإسلامية شهدت قيامتها وانتظام أمرها هناك، وقد عدّ القرآن الكريم أبناء هذه المنطقة وشعبها أنصاراً لدين الله وإخوةً للمهاجرين فى سبيل الله (١)، لهذا كانت المدينة لائقةً بدعاء خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله (٢)، لتكون حرماً خاصاً. نعم، بركة المدينة المنورة مستمرة ما دام أبناؤها حافظين للأصول العقائدية، والأسس الأخلاقية، والفروع الفقهية.

مكّة أمّ القرى (٣)، وأنموذج المدينة الفاضلة، فقد أسّس إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام باني الكعبة ومؤسس الحضارة، أسّس المدينة الفاضلة على أركان أربعة، نظمها حول محور مركزي، ثم طلبها من الله تعالى. كان دعاء إبراهيم فى هذا المجال على الشكل التالى:

١- «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا» (٤).

١- الحشر: ٩.

٢- السيوطى، الدرّ المشثور ١: ٢٩٧.

٣- الأنعام: ٩٢، والشورى: ٧، ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «أسماء مكّة خمسة: أمّ القرى، ومكّة، وبكّة، والبساسة، كانوا إذا ظلموا بها بستهم، أى أخرجتهم وأهلكتهم، وأمّ رحم، كانوا إذا لزموها رحموا»، انظر: بحار الأنوار ٩٦: ٧٧.

٤- البقرة: ١٢٦.



ص: ٢٠

٢- «آمنًا» (١).

٣- «وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ» (٢).

٤- «فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» (٣).

ذلك أن قيام المدينة الفاضلة يكون على أساس ميل قلوب الرعية لقادتها العارفين بالسياسة، فصيرف الأمن وزيادة النعمة الكثيرة، مع ضرورتها، إلا أنهما ليسا كافيين للناس؛ إذ هذا الأمن ووفور النعمة قد نجدهما في أقاليم أخرى وبلدان، إنما الأساس هو ميل قلوب الرعية وعطف جانبها وجذب أرواحها وجلب ثمار قلوبها، وتلك هي المحبّة (٤).

على هذا الأساس، طلب إبراهيم عليه السلام في أديته السالفه من الله تعالى، إلى جانب الأمن والاقتصاد، جذب الأفئدة والقلوب إليهم.

٥- أما المحور الأساس الذي تدور حوله الأركان الأربعة السابقة، وهو الذي يضمن الأمن ويحقق الهدوء والطمأنينة ويوفر السلامة الاقتصادية للمجتمع، فهو الدولة والحكومة القائمة على أساس الوحي الإلهي، وفي ظل إشراف وإدارة الإنسان الكامل.

من هنا، طلب النبي إبراهيم عليه السلام من الله تعالى أن يبعث في نسله نبياً منهم.. قال سبحانه: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (٥).

إن إبراهيم عليه السلام كان قبل ذلك قد شاهد بأّم عينه تحقق ظاهرة تبدو في الظاهر

١- البقرة: ١٢٦.

٢- البقرة: ١٢٦.

٣- إبراهيم: ٣٧.

٤- الطبرسي، مجمع البيان ١- ٢: ٣٨٧-٣٨٨؛ وتفسير القمي ١: ٦٢.

٥- البقرة: ١٢٩.

ص: ٢١

غير ممكنة، وهي أن يصير صاحب ولد في كبره وشيخوخته، من هنا كان معتقداً بهيمنة الإرادة الإلهية على الأمور كافة، لهذا قال: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا» (١).

وبعد مضيّ مده، اجتمع فيها من القريب والبعيد عديداً من الناس لتظهر إثر ذلك مدينة مكّة على سطح الأرض، كرّر إبراهيم عليه السلام دعاءه السابق بشكل آخر فقال: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا» (٢).

وقد لازمت صفة الأمن والأمان مدينة مكّة حتى اشتهرت بها، إلى حد أن الله سبحانه يذكرها بهذا الاسم، فيقول: «وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (٣).

والجدير ذكره أن تعبير «غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» مغاير للأرض الموات البائرة التي لم تزرع؛ إذ الموات قابلة للإحياء عادةً، تماماً كما الأرض البائرة تقبل القيام، وما لم يزرع يقبل الزرع، أما الأرض غير ذات الزرع فتعني التي لا يوجد فيها اقتضاء الزرع، كما لا يمكن توفير الأسباب والإمكانات لتعميرها؛ فهي لا تبدو- بحسب ظاهرها- متمتعاً بأيّ عنصر مساعد طبيعياً على زراعتها.

نعم، عدم إمكان زراعة هذه الأرض غير ذات الزرع إنّما هو بالنسبة إلى العلل والأسباب الطبيعية، أمّا بالنسبة إلى الإرادة الإلهية فإن غير الممكنات العادية كافة قابل للوجود والتحقّق.

إن الله تعالى يتحدّث عن ظروف توفير الحياة الاقتصادية لمكّة عبر بيان أن ذلك ليس عن طريق الغيب ولا سبيل الإعجاز، فحاجات المؤمنين الاقتصادية لا تؤمّن عبر هذا السبيل، بل «يُجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا» (٤).

واليوم تتقاطر الثمرات تترى على أرض مكّة غير ذات الزرع والضرع حتى أنّ المحاصيل المتنوّعة في تمام أرجاء العالم تُحضر إلى مكّة في فصول الحجّ والعمرة كافة.

١- البقرة: ١٢٦.

٢- إبراهيم: ٣٥.

٣- التين: ٣.

٤- القصص: ٥٧.

ص: ٢٢

وتوضيح ذلك:

أولاً: إن أشهر الحج قمرية وليست شمسية، وهذا ما يجعلها متنوعاً على امتداد السنين.

ثانياً: إن الأرض كروية، وتتنوع أقاليمها الحارة والباردة.

ثالثاً: تختلف أذواق الناس في المدن والبلدان، وكذا إبداعاتها ومخترعاتها وفنونها المسكوبة في نتاجاتها المصنوعة.

من هنا، تظهر المحاصيل المتنوعة الكثيرة في تمام مناسبات الحج والعمرة في مكّة، بدعاء إبراهيم عليه السلام، وكذا المدينة بدعاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وكما يصل زوّار مكّة على أىّ مركب ضامر أو غيره، ومن أىّ إقليم فج وقريب، ينقل أصحاب البضائع التجارية، أعمّ من الزراعة، والحيوانات، والصناعة، محاصيلهم ومنتجاتهم إلى مكّة أيضاً.

وعليه فكما يراد من الأكل في مثل: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ» (١)

و «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا» (٢)

مطلق التصرف في المأكول وغيره، لا خصوص الأكل بمعناه المصطلح، كذا يكون المراد من «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ» (٣)، حيث لا يقصد تأمين الحاجات الغذائية التي ترفع حدّ الجوع فحسب، بل يتعداه إلى تأمين مطلق الحاجات الاقتصادية أيضاً، ذلك أنّه إذا تمتعت أمة بغذائها اللازم لها، لكنّها ظلّت محرومةً من نواحي أخرى كالمسكن والدواء والعلاج واللباس والأثاث، وسائر حاجات الحياة الأخرى، فستبقى دائماً خائفةً مغمومةً، ومثل هذا الوضع لا ينسجم مع الرسالة التي تريدها الآية الكريمة المذكورة.

١- البقرة: ١٨٨.

٢- النساء: ١٠.

٣- قريش: ٤.

ص: ٢٣

وعليه فالمقصود من الآية توفير الجانب الاقتصادى وما شابهه توفيراً تاماً، تماماً كما ألمحت الجملة الأخرى فى الآية، وهى: «آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» (١)

إلى جانب الاستقرار الأمنى الشامل وتوفير الأمن والأمان.

تذكير:

١- إن أساس الأمن الاقتصادى والاجتماعى لمكّة، وكذا نعمها الوفيرة، أمر تكوينى لا تشريعى فحسب.

والشاهد والمؤيد لذلك ما جاء فى سور القصص والعنكبوت وقريش، وهى من السور المكية، فيما الحج الإسلامى الذى يمكنه أن يكون سبباً لحلول الأمن ونزول البركة إنَّما جاء تشريعه فى العصر المدنى، أى بعد سنين طويلة من نزول السور المذكورة.

٢- إن الأنبياء والأولياء الإلهيين عليهم السلام كافة أرفع وأفضل من مجرد سلطة البطن على الطعام والشراب، ذلك أن بعض تلامذتهم- وهم الذوات المقدسة- «كان خارجاً من سلطان بطنه» (٢)، إلَّا أنَّهم كانوا دائماً مهتمين بحال الضعفاء وأواسط الناس، من هنا، كانوا يطلبون من الله تعالى لهم النعم الوفيرة ورخص الأرزاق، ويسألون لهم الاقتصاد السالم حتى تتوفّر بذلك أرضية لبناء الأمن الداخلى من جهة ولحصولهم على استقلالهم واستغنائهم عن الآخرين من جهةٍ أخرى، ليكون ذلك كله فى خدمة الدين نفسه؛ ذلك أن مبدأ الهوية فى الإنسان إنَّما يصنعه الدين، لا الاقتصاد، وعدم وجود اقتصاد صحيح لأواسط الناس يعدّ مرضاً عضالاً صعب العلاج بالنسبة إلى تحصيل عقيدة أصيلة أو حفظها بعد حصولها.

نعم، الأوحى من الناس هو من يرى أن محورية العقيدة والحق أفضل من

١- قريش: ٤.

٢- نهج البلاغة، الحكمة: ٢٨٩.

ص: ٢٤

الرفاه العادي، أما على صعيد الحسابات الاجتماعية فلا بدّ من ملاحظة الأكتريه ليحكم على طبق وضعها.

٣- لقد أنعم الله على الكفار، أعّم من ذرية إبراهيم عليه السلام وغيرهم، ببركة الكعبة وبحرمه الحرم، إن دعاء النبي إبراهيم عليه السلام كي يستفيد مؤمنو مكة «وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» (١).

لم يضيّق على غير المؤمنين ولم ينف الرزق عنهم، إنما لم يشملهم فحسب، فهناك قصور في المشمول، لا أنه يوجد منع عنه، أي أنه لم يدع للكافرين، لا أنه دعا عليهم.

بعض الخصوصيات الفقهيّة لمكّة

١- يكره إجارة بيوت مكّة لزوّارها (٢)، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال لعامله على مكّة: «وَمُرَّ أَهْلَ مَكَّةَ أَنْ لَا يَأْخُذُوا مِنْ سَاكِنٍ أَجْرًا، فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَقُولُ: «سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ» (٣).

، فالعاكف المقيم به، والبادي الذي يحجّ إليه من غير أهله» (٤).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ مَعَاوِيَةَ أَوَّلَ مَنْ عَلَّقَ عَلَى بَابِهِ مِصْرَاعِينَ بِمَكَّةَ فَمَنَعَ حَاجَّ بَيْتِ اللَّهِ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ»، وَكَانَ النَّاسُ إِذْ قَدَمُوا مَكَّةَ نَزَلَ الْبَادِي عَلَى الْحَاضِرِ حَتَّى يَقْضَى حُجَّه» (٥).

٢- يكره البقاء في مكّة لمُدّةٍ طويلة، إذ يكون ذلك باعثاً على قساوة القلب، من هنا، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَسْكَهَ فَلْيَرْكَبْ رَاكِبَهُ، وَلْيَلْحَقْ بِأَهْلِهِ، فَإِنَّ الْمَقَامَ بِمَكَّةَ يَقْسَى الْقَلْبَ» (٦).

١- البقرة: ١٢٦.

٢- وسائل الشيعة ٩: ٣٦٧.

٣- الحج: ٢٥.

٤- نهج البلاغة، الرسالة: ٩٧، الفقرة: ٥.

٥- وسائل الشيعة ٩: ٣٦٧-٣٦٨.

٦- المصدر نفسه: ٣٤٣.

ص: ٢٥

وسرّ كراهة الإقامة لمدة طويلة في مكّة، هو ما جاء في الرواية الآنفه من أن ذلك يغدو سبباً لقساوة القلب، وحسب الظاهر فإن هذا الإنسان لا يراعى الحقوق العظيمة لتلك الأرض، ما يفتت - تدريجياً - ويضعف العهد، كما يميت القلب. نعم، بالنسبة للزوار المجاورين للحرم المرادين حقوقه يستفيدون من الفيض العظيم النازل عليهم، إذ إن الإقامة في الحرم أفضل من الخروج منه (١).

١- المصدر نفسه: ٣٤١.

## صلاة الطواف ومكانها

الشيخ جعفر السبحاني

اتَّفَقَ الفقهاء على وجوب ركعتين بعد الطواف في العمرة والحجِّ إلّما يحكى عن الشافعي في أحد قوليهِ (١)، والكلام في المقام في مكانها عند الزحام وغيره، والأصل في ذلك قوله سبحانه: «واتَّخذوا من مقام إبراهيم مصلىً» أي اتَّخذوا من مقام إبراهيم موضع صلاة تصلون فيه.

والمعروف حسب النصوص والروايات وكلمات العلماء أنّ المقام- الذي هو موضع وقوف إبراهيم عند بناءه للبيت- هو صخرة على شكل مكعب متساوي الأضلاع وطول الضلع ذراع واحد، بذراع اليد، أي ما يساوي ٥٠ سانتراً تقريباً، وهذا المقدار لا يتسع لأداء الصلاة، لأنّ ما يشغله المصليّ المستوى الخلقه- عادة- من المساحة الكافية لوقوفه وركوعه وسجوده وجلوسه هو ٥٠ سم عرضاً في ١٠٠ سم طولاً، وأين هذا من مساحة الحجر؟ (٢) فيقع الكلام في تفسير الآية وسوف يوافقك معناه.

١- الخلاف ٢: ٣٢٧.

٢- مبادئ علم الفقه ٣: ٢١٠.

ص: ٢٧

إنّ تعبير المحقق «يجب أن يصلّى في المقام» أثار بحثاً بين الشّراح، قال في «المدارك»: إنه غير جيّد أمّا لو قلنا بأنّ المقام نفس العمود الصخري فواضح وأمّا إن أريد به مجموع البناء الذي حوله فلأنه يتعيّن وقوع الصلاة فيه قطعاً (١).  
وقريب منه في المستند (٢).

يرد على الاحتمال الثاني، أنّ البناء كان أمراً مستحدثاً ولم يكن في عصر الرسول حين نزول الآية حتّى تفسر به. وقد أزيل السنين الأخيرة وكان موجوداً أوائل العقد الثامن من القرن الرابع عشر، أعنى سنة ١٣٨١.  
وقد وافقه صاحب الجواهر، فقال إنّ تعبير بعض الفقهاء بالصلاة في المقام مجاز تسمية لما حول المقام باسمه، إذ القطع بأنّ الصخرة التي فيها أثر قدمي إبراهيم لا يصلّى عليها (٣).

ثمّ إنّ بعض المفسرين من أهل السنّة حاول حفظ ظهور الآية وهو أنّ كون الصلاة في المقام حقيقة فقال: المراد من مقام إبراهيم هو عرفه والمزدلفه والجمار، لأنّه قام في هذه المواضع وسعى فيها، وعن النخعي: الحرم كلّ مقام إبراهيم (٤).  
واحتمل بعضهم أن المراد من المقام هو المسجد الحرام، ولكنّه محجوج بفعل النبي؛ حيث إنّ بعد ما طاف سبعة أشواط أتى إلى المقام فصلاهما وتلا قوله تعالى:

«وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»، فأفهم الناس أنّ هذه الآية أمر بهذه الصلاة وهنا مكانها (٥).  
وفي صحيح مسلم بسنده عن جابر في بيان حجّ النبي صلى الله عليه وآله: حتّى إذا أتينا البيت

١-المدارك ٨: ١٨١

٢-المستند ١٢: ١٣٩.

٣-الجواهر ٥: ٣١٨.

٤-الكشاف ١: ٢٨٧.

٥-سنن الترمذى ٣: ٢١١ رقم الحديث ٨٥٦؛ سنن النسائي ٥: ٢٣٥.



ص: ٢٨

معها، استلم الركن ثلاثاً فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم وقرأ: «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» (١).

توضيح مفاد الآية

المهم هو توضيح مفاد الآية فهناك فرق بين قولنا: «فاتخذوا مقام إبراهيم مصلي» وقوله: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلي». وإنما يلزم المحال عند الجمود على ظاهر الأول، لعدم التمكن من الصلاة في المقام الذي هو الصخرة.

وأما الثاني فقد ذكروا في الجار «من» احتمالات، من كونها للتبويض، أو بمعنى في، أو للابتداء، أو بمعنى عند. والأولى الرجوع إلى الآيات التي ورد فيها هذا النوع من التركيب حتى يتعين أحد الاحتمالات.

قال سبحانه: «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا» (٢).

وقال سبحانه: «تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولها قُصُورًا» (٣).

هذا كله في مورد المكان، وأما في غيره فمثل قوله سبحانه:

«لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا» (٤).

«وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا» (٥).

«تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا» (٦).

ومثل في «الجواهر» وقال: «اتخذت من فلان صديقاً ناصحاً، ووهب إليه لى من فلان أخاً مشفقاً» (٧).

١- صحيح مسلم: ٤٩، باب حجّة النبي صلى الله عليه وآله: ٤٢.

٢- النحل: ٦٨.

٣- الأعراف: ٧٤.

٤- النساء: ١١٨.

٥- النساء: ٨٩.

٦- النحل: ٦٧.

٧- الجواهر ١٩: ٣١٩.

ص: ٢٩

ترى فى هذه الموارد أنّ شيئاً عاماً يؤخذ منه جزء لغرض، فالنحل تتخذ من الجبال جزءاً بصفة البيت، أو أنّهم كانوا يتخذون من سهول الأرض قصوراً، أو أنّ الشيطان يتخذ من عباد الله نصيباً، إلى غير ذلك.

فإذا كان هذا ظاهر هذه التراكيب، فالآية منزلة على هذا النمط من الكلام، فيراد من المقام ما يجاوره ويقاربه تسميةً لما حول المقام باسمه، ضرورة أنّ المقام لا يتبعض لأخذ المصلى منه، فعلى الطائف أن يأخذ جزءاً من هذا المقام المجازى مصلّى فيه، وإطلاق الآية يعم الخلف وما حوله من اليمين واليسار، ولا يختص مفاده بالخلف؛ لأنّ المقام - حسب ما استظهرناه - هو المكان المتسع قرب المقام الحقيقى، المسوّغ لتسمية ذلك المكان مقاماً أيضاً، فالموضوع هو الصلاة قربه.

فخرجنا بتلك النتيجة: أنّ المقام أُطلق وأريد منه ما يجاوره ويليه، وأنّ «من» تبعيضية لا غير، وسائر الاحتمالات الاخرى غير تامّة.

وعلى ضوء ما ذكرنا، فاللازم هو التصرّف فى لفظ «المقام» على ما عرفت،

ص: ٣٠

وأما التصرف في الجار أعني «من» وجعله تارة بمعنى «في» وأخرى بمعنى «عند» فغير وجيه. وذلك لأن مجرد جواز استعمال «من» مكان «في» أو «عند» - على فرض صحته - لا يسوغ تفسير الآية بهما؛ لأن مادة الفعل «الأخذ» لا يتعدى لا ب «في» ولا ب «عند»، ولو فرض صحته استعماله فهو استعمال شاذ، لا يحمل عليه الذكر الحكيم. هذا هو مفاد الآية، فإن دلت الروايات على أوسع من الآية أو أضيق منه، نأخذه، وإلا فمفاد الآية هو المتبع. وسيوافيك أن المستفاد من الروايات كفاية إتيان الصلاة قريباً من المقام، من غير فرق بين الخلف وأحد الجانبين، فما دام يصدق على العمل كونه «عنده» فهو مسقط للفريضة، وأما التركيز على كونها خلف المقام كما في طائفة من الروايات، فالظاهر أنه بصدد الرد على تقديم الصلاة على المقام، ولزوم تأخرها عنه. لا لزوم كونها خلفه لا جنبه، وهو يصدق مع إتيانها يميناً ويساراً وخلفاً. العناوين الواردة في كلمات الفقهاء

إذا عرفت ذلك، فلنذكر العناوين الواردة في كلمات فقهاءنا، ثم ما هو الوارد في لسان الروايات. أما الأولى: فقد اختلفت كلمة الفقهاء في التعبير عن موضع الصلاة على الشكل التالي:

١. الصلاة في المقام.
  ٢. الصلاة خلف المقام.
  ٣. الصلاة عند المقام.
- أما الأول: فقد عبّر عنه كثير من الفقهاء. قال المحقق في الشرائع: يجب أن يصلّى ركعتي الطواف في المقام (١).

ص: ٣١

وقال العلامة: وتجان- الركعتان- في الواجب بعده في مقام إبراهيم عليه السلام حيث هو الآن ولا يجوز في غيره (١).  
وأما الثاني: أي خلف المقام، فقال ابن الجنيد: ركعتا طواف الفريضة فريضة عقبه خلف مقام إبراهيم، وكذا قال ابن عقييل (٢).  
وبذلك عبر الشهيد في «الروضة» (٣)، والأردبيلي في «مجمع الفائدة» (٤)، والبحراني في «الحدائق» (٥).  
وأما الثالث: أي عند المقام، فقال ابن البراج: والصلاة- ركعتا الطواف- عند مقام إبراهيم (٦).  
والظاهر أن الجميع يرشد إلى معنى واحد وهو الصلاة قرب مقام إبراهيم، ولذلك نرى أن الصدوق بعدما قال: ثم أتت مقام إبراهيم فصل ركعتين، قال:  
واجعله أمامك (٧).  
هذا كله ناظر إلى كلمات الفقهاء.

وأما النصوص الواردة في تحديد موضع صلاة الطواف فهي على طوائف، وتتلخص في العناوين التالية:

١. خلف المقام.

٢. جعل المقام إماماً.

١- قواعد الأحكام ١: ٤٢٧.

٢- المختلف ٤: ٢٠١.

٣- الروضة البهية ٢: ٢٥٠.

٤- مجمع الفائدة ٧: ٨٧.

٥- الحدائق ١٦: ١٣٥.

٦- المهذب ١: ٢٣١.

٧- الهداية: ٥٨.

ص: ٣٢

٣. في المقام.

٤. عند المقام.

والظاهر رجوع العنوان الثاني إلى الأول، فإن من جعل المقام إماماً، يقع خلف المقام، فليس هذا عنواناً جديداً، ففي صحيحه معاوية بن عمار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا فرغت من طوافك فأت مقام إبراهيم عليه السلام فصلّ ركعتين واجعله إماماً» (١). ومعنى ذلك: لا تتقدم عليه وكن خلفه.

ولتقتصر على نقل ما يدل على لزوم الإتيان بها في موقع خاص من هذه المواقع، على نحو ينفي في بدء النظر جواز إتيانها في موقع آخر، فتكون النتيجة وجود المنافاة بين الروايات. وأما ما يدل على الجواز في بعض هذه المواقع، كفعل النبي أو الإمام الذي لا يستفاد منه التعيين، أو ما لا يدل على المطلوب، لكون الرواية في مقام بيان أمر آخر، فتركه للقارئ الكريم.

الطائفة الأولى: تعين إتيان الصلاة خلف المقام

١. صحيحه معاوية بن عمير الماضية قال: «فأت مقام إبراهيم عليه السلام فصلّ ركعتين، واجعله إماماً، واقرأ في الأولى منهما سورة التوحيد «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» وفي الثانية: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»، ثم تشهّد واحمد الله واثن عليه، وصلّ على النبي صلى الله عليه وآله وأسأله أن يتقبل منك» (٢).

وقد مرّ أن مفاد الحديث هو إتيان الصلاة خلف المقام، والأمر ظاهر في التعيين، واشتمال الرواية على قسم من المنذوبات لا يضرّ بظهورها فيه، إذ المتبع هو الظهور ما لم يدلّ دليل على الخلاف.

٢. مرسله صفوان، عمّن حدّثه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ليس لأحد أن يصلّي ركعتي طواف الفريضة إلا خلف المقام، لقول الله عزّ وجلّ: «وَأَتَّخِذُوا مِنْ

١- الوسائل: ٩، الباب ٧١، من أبواب الطواف، الحديث ٣.

٢- الوسائل: ٩، الباب ٧٢ من أبواب الطواف، الحديث ٣.

ص: ٣٣

مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»، فَإِنْ صَلَّيْتَهَا فِي غَيْرِهِ فَعَلَيْكَ إِعَادَةُ الصَّلَاةِ» (١).

ودلالته على تعيين إتيان الصلاة خلف المقام واضحة، وإن كانت دلالة الآية عليه (خلف المقام)، غير واضحة لنا.

٣. خبر أبي عبد الله الأزراري قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل نسي فصلّي ركعتي طواف الفريضة في الحجر، قال: يعيدهما

خلف المقام، لأنّ الله تعالى يقول: «وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» عنى بذلك ركعتي طواف الفريضة» (٢).

ودلالته على تعيين إتيان الصلاة خلف المقام واضحة، وإن كانت دلالة الآية عليه غير واضحة لنا.

٤. معتبرة سليمان بن حفص المروزي، عن الفقيه عليه السلام قال: «إِذَا حَجَّ الرَّجُلُ فَدَخَلَ مَكَّةَ مَتَمِّعًا فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ

خَلْفَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَقَصَّيْرٍ، فَقَدْ حَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا النِّسَاءَ، لِأَنَّ عَلَيْهِ لِحْمَةَ النِّسَاءِ طَوَافًا

وَصَلَاةً» (٣).

ودلالته بظاهره على لزوم إتيانها خلف المقام لا غبار عليها.

٥. مرسل جميل، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله قال: «يَصَلِّي الرَّجُلُ رَكْعَتِي طَوَافِ الْفَرِيضَةِ خَلْفَ الْمَقَامِ» (٤).

٦. صحيح الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّمَا نَسَكَ الَّذِي يَقْرُنُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِثْلَ نَسَكِ الْمَفْرَدِ لَيْسَ بِأَفْضَلَ مِنْهُ

إِلَّا بِسِيَاقِ الْهَدْيِ، وَعَلَيْهِ طَوَافُ بِالْبَيْتِ، وَصَلَاةُ رَكْعَتَيْنِ خَلْفَ الْمَقَامِ، وَسَعَى وَاحِدٌ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَطَوَافُ

١- الوسائل: ٩، الباب ٧٢ من أبواب الطواف، الحديث ١.

٢- الوسائل: ٩، الباب ٧٢ من أبواب الطواف، الحديث ٢.

٣- الوسائل: ٩، الباب ٨٢ من أبواب الطواف، الحديث ٧.

٤- الوسائل: ٩، الباب ١ من أبواب الطواف، الحديث ٩.

ص: ٣٤

بالبیت بعد الحجّ (١).

ودلالته على لزوم الإتيان بها خلفه في التمتع، لأجل اشتراك الأقسام: التمتع، والقران والإفراد في الحكم إلّا ما خرج.

٧. صحيح زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام في تعريف المتعة؟ فقال: «يهلّ بالحجّ في أشهر الحجّ، فإذا طاف بالبیت فصلّى

الركعتين خلف المقام وسعى بين الصفا والمروة وقصر وأحل...» (٢).

فالحديث في مقام بيان مقدمات حجّ التمتع، وأنّ منها الصلاة خلف المقام.

ولعلّ هذا المقدار من النصوص كافٍ والروايات أكثر ممّا نقلت، وإنّما تركت بعضها لعدم وضوح دلالتها على التعيين. وسيوافيك أنّ

التأكيد على الصلاة خلف المقام لأجل ردّ جواز الصلاة بين البيت والمقام. فانتظر.

الطائفة الثانية: وجوب إتيان الصلاة عند المقام

هناك روايات تدلّ على لزوم الإتيان بها «عند المقام» نذكر منها ما يلي:

١. حديث جميل بن دراج، عن أحدهما عليهما السلام أنّ الجاهل في ترك الركعتين عند مقام إبراهيم بمنزلة الناسي (٣).

٢. صحيح أبي الصباح الكناني، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن امرأة طافت بالبیت في حجّ أو عمرة، ثمّ حاضت قبل أن تصلّى

الركعتين؟ قال: «إذا طهرت فلتصلّ ركعتين عند مقام إبراهيم، وقد قضت طوافها» (٤).

٣. صحيح معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «القارن لا يكون إلّا بسياق الهدى، وعليه طواف بالبیت وركعتان عند

مقام إبراهيم، وسعى بين الصفا

١- الوسائل: ٨، الباب ٢ من أبواب أقسام الحجّ، الحديث ٧.

٢- الوسائل: ٨، الباب ٥ من أبواب أقسام الحجّ، الحديث ٣.

٣- الوسائل: ٩، الباب ٧٤ من أبواب الطواف، الحديث ٣.

٤- الوسائل: ٩، الباب ٨٨ من أبواب الطواف، الحديث ٢.

ص: ٣٥

والمروءة، وطواف بعد الحج، وطواف النساء» (١).

٤. صحيحته الأخرى فى بيان ما يعتبر فى حجّ التمتع عن أبى عبد الله عليه السلام: «على المتمتع بالعمرة إلى الحجّ ثلاثة أطواف - إلى أن قال: - وركعتان عند مقام إبراهيم عليه السلام» (٢).

٥. صحيحه الثالث قال: «المفرد للحجّ عليه طواف بالبيت وركعتان عند مقام إبراهيم» (٣).

والأحاديث الثلاثة لابن عمار، بصدد بيان أجزاء الحج بأقسامه الثلاثة:

القران، والتمتع والإفراد، ومن أجزاء الحج بأقسامه الثلاثة الصلاة عند المقام.

٦. موثقة سماعة، عن أبى عبد الله عليه السلام قال: «المجاور بمكة إذا دخلها بعمرة فى غير أشهر الحج - إلى أن قال: - فليخرج إلى الجعرانة فيحرم منها، ثم يأتى مكة ولا يقطع التلبية حتى ينظر إلى البيت، ثم يطوف بالبيت ويصلى الركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام...» (٤).

إلى غير ذلك من الأحاديث الموثقة فى أبواب أقسام الحج والطواف.

الطائفة الثالثة: الصلاة فى المقام

وهناك ما يدلّ على أنّ المعتبر هو الصلاة فى المقام، ففى صحيحه محمد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام قال: «سئل عن رجل طاف الفريضة ولم يصل الركعتين - إلى أن قال: - ويرجع إلى المقام فيصلّى الركعتين» (٥). أى فيه.

٢. خبر أحمد بن عمر الحلال قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن رجل نسى أن

١- الوسائل: ٨، الباب ٢ من أبواب الطواف، الحديث ١٢.

٢- الوسائل: ٨، الباب ٢ من أبواب أقسام الحج، الحديث ٨.

٣- الوسائل: ٨، الباب ٢ من أبواب أقسام الحج، الحديث ١٣.

٤- الوسائل: ٨، الباب ٨ من أبواب أقسام الحج، الحديث ٢.

٥- الوسائل: ٩، الباب ٧٤ من أبواب الطواف، الحديث ٥.



ص: ٣٦

يصلّى ركعتي طواف الفريضة فلم يذكر حتّى أتى منى؟ قال: «يرجع إلى مقام إبراهيم فيصليهما» (١). أى فيه.

٣. وفى صحيح معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا فرغت من طوافك فائت مقام إبراهيم فصلّ ركعتين» (٢). أى فيه.

الجمع الدلالي بين الروايات:

هذه عمدة الروايات الواردة، وقد مرّ أنّ ما ذكر لفظ «الأمم» يريد به كون المصلّى خلف المقام، وأمّا الصنف الأخير، الدال على

الإتيان بها فى المقام، فقد مرّ أنّ الصلاة فيه غير ممكنة فلا بدّ أن يراد به حول المقام، فلم يبق من العناوين إلّا العنوانان التاليان:

١. خلف المقام.

٢. عند المقام.

وأما الجمع بينهما فهو: أنّ التأكيد على الإتيان بها خلف المقام، لغاية نفي التقدّم على المقام، كما إذا صلّى بين البيت والمقام على

نحو يكون المقام خلفه، ولعلّ الإصرار على ذلك هو اشتهاً أنّ المقام كان ملصقاً بالبيت ثمّ أتى به إلى المكان المعهود فكان ذلك

سبباً لإتيان الصلاة قبل المقام، فتأكد أئمّة أهل البيت عليهم السلام على الإتيان بالصلاة وراء المقام، كان ردّاً لتلك الفكرة، ويشهد

على هذا صحيح إبراهيم ابن أبي محمود قال: قلت للرضا عليه السلام: أصلّى ركعتي طواف الفريضة خلف المقام حيث هو الساعة، أو

حيث كان على عهد رسول الله قال: «حيث هو الساعة» (٣).

وفى صحيح محمد بن مسلم: «كان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يطوفون بالبيت والمقام وأنتم اليوم تطوفون ما بين

المقام وبين البيت، فكان الحدّ موضع

١- الوسائل: ٩، الباب ٧٤ من أبواب الطواف، الحديث ١٢.

٢- الوسائل: ٩، الباب ٣ من أبواب الطواف، الحديث ١.

٣- الوسائل: ٩، الباب ٧١ من أبواب الطواف، الحديث ١.

ص: ٣٧

المقام اليوم» (١).

وحاصل الكلام: كان المعروف في عصر صدور الروايات، أنَّ المقام كان ملصقاً بالبيت، وكان ذلك سبباً لتوهم جواز الإتيان بالصلاة بين البيت والمقام، وجعله أمامه لا خلفه، وعند ذلك يكون الموضوع «كون الصلاة عند المقام» أي حوله. وهو يصدق على الصلاة خلفه أو أحد جانبيه.

والحاصل: كما أنَّ للآيات شأنَ نزول، كذلك للروايات أيضاً سبب صدور، وبالرجوع إليه يرتفع الإبهام عن وجوبها. وعلى ضوء ذلك، يمكن أن يقال: إنَّ سبب التركيز على وقوع الصلاة خلف المقام لا لأجل اعتبار الخلفيّة في مقابل اليمين واليسار، بل التركيز لأجل نفي التقدّم، ولذلك أمر الإمام أن يجعل المقام إماماً، أي لا يتقدّم عليه. فيكون الموضوع حسب الآية والروايات «الصلاة عند المقام ولديه» سواء كان خلف المقام أو اليمين أو اليسار، لكن بشرط عدم التقدّم عليه.

وأما على مختار الأصحاب من التركيز على شرطية الخلف وعدم كفاية الصلاة في أحد الجانبين فالموضوع عندهم مركب من أمرين:

١. كون الصلاة خلف المقام.

٢. كون الصلاة عند المقام.

وعلى ذلك لو صدق كون الصلاة خلف المقام ولم يصدق كونها عنده، فلا يكفي ذلك كما إذا صلّى خلف المقام لكن بعيداً عنه. كما أنه لو صلّى عند المقام دون خلفه، فلا يكفي كما إذا صلّى في أحد الجانبين: اليمين واليسار.

نعم ورد في خبر أبي بلال المكي، قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام طاف بالبيت ثمّ صلى فيما بين الباب والحجر الأسود ركعتين، فقلت له: ما رأيت أحداً منكم صلّى في

ص: ٣٨

هذا الموضوع، فقال: «هذا المكان الذي تيب على آدم فيه» (١).

فلو كان المراد من الباب باب الكعبة كما هو الظاهر لزم أن يكون الإمام صلى ركعتين والمقام خلفه لا أمامه.

واحتمال أن الإمام صلى عند المقام محاذياً بين الباب والحجر الأسود غير صحيح، لأن هذا لا يثير تعجب الراوى، إذ يكون عملاً عادياً.

كما أن حمل الصلاة على التطوع غير صحيح، لأن الظاهر أن الإمام صلى فى الموضوع الذى صلى فيه لأجل طوافه بالبيت حيث قال:

طاف بالبيت ثم صلى فيه.

فالرواية لا يُحتج بها لأنها معرض عنه.

اللهمّ إلا أن يحمل على الطواف المجرد عن سائر الأعمال فيجوز إتيان صلاته من حيث شاء ويدل عليه خبر زرارة (٢).

ومن ذلك يعرف النظر فى بعض الكلمات على ما عرفت، وأنه ليس للخلفية موضوعية، وإنما الموضوعية لعند المقام ولديه.

حكم الصلاة عند الزحام

ما ذكرنا من الحفاظ على عنوان «العندية» فقط أو «الخلفية» و «العندية» راجع إلى حال الاختيار وعدم الزحام، وأما عند كثرة الطائفتين

فكثيراً ما يكون خلف المقام مطافاً للطائفتين فيأتون زرافاتٍ ووحداً والمصلون من الشيعة خلف المقام بين قائم وراكع وساجد، وعند

ذلك يقع التدافع وتثور ثورة الطائفتين من جانب ومنع المصلين من جانب آخر، وينتهى الأمر إلى الجدل الممنوع فى الحجّ فما هو

الواجب فى هذه الحالة؟

وبما أن المسألة ليست حديثه الابتلاء، بل لها جذور فى تاريخ الحجّ تعرّض لها الفقهاء فى كتبهم، وقد اختلفت كلمتهم فى هذا

الموضوع بالنحو التالى:

١- الوسائل: ٩، الباب ٧٣ من أبواب الطواف، الحديث ٣.

٢- الوسائل: ٩، الباب ٧٣ من أبواب الطواف، الحديث ١.

ص: ٣٩

١. مخير بين وراء المقام أو أحد جانبيه
- قال المحقق: فإن منعه زحام صلى وراءه أو إلى أحد جانبيه (١).
٢. تقدم الخلف على الجانب مع الإمكان
- قال صاحب الرياض: الأحوط تقدم الخلف على الجانب مع الإمكان (٢).
٣. تحرى الأقرب فالأقرب
- واختار الفاضل الإصهاني تحرى القرب منه ما أمكن، وإذا تعدد لزحام جاز البعد بقدر الضرورة (٣).
- وعلى كل تقدير يقع الكلام تارة في حكمها من حيث القواعد، وأخرى من حيث النصوص.
- أما مقتضى القواعد فهناك احتمالان:
- أ. سقوط وجوب الصلاة عند تعدد الشرط.
- ب. سقوط وصف «العنديّة» أو «الخلفيّة» لا نفس الصلاة.
- أما الأول: فهو ضعيف جداً بشهادة أنه لو نسي صلاة الطواف يقضيها أينما تذكر إذا شق عليه الرجوع وإلا يرجع فيصلّى في المقام كما سيوافيك.
- بقي الثاني: ولكن سقوط العنديّة على وجه الإطلاق بمجرد الزحام غير صحيح، بل يترتب إلى الحد الذي لا يفوت معه الموالاة بين الصلاة والسعي.
- فإذا لم يسقط الواجب ولم يتمكن من الصلاة عند المقام حتى بعد الصبر والترتب يلزم - على المختار عندنا - عليه الصلاة في كل نقطة أقرب إلى المقام بشرط أن لا يتقدم عليه، من غير فرق بين الخلف والجانبين، بل الموضوع هو

١- شرائع الإسلام ١: ٢٦٨.

٢- رياض المسائل ٦: ٥٤٠.

٣- كشف اللثام كما في الرياض ٦: ٥٤٠.

ص: ٤٠

حفظ «العندية» مهما أمكن، أى الأقرب فالأقرب، وعلى ذلك ينزل ما روى عن حسين بن عثمان بسندين: أحدهما نقى والآخر غير نقى.

أما الأول، فقد رواه الكليني فى «الكافى». قال: رأيت أبا الحسن موسى عليه السلام يصلى ركعتى طواف الفريضة بحيال المقام قريباً من ظلال المسجد.

وأما الثانى فقد رواه الشيخ وقال: رأيت أبا الحسن عليه السلام يصلى ركعتى الفريضة بحيال المقام قريباً من الظلال لكثرة الناس (١). والتعبير فى كليهما واحد غير وجود التصريح بالسبب فى رواية «التهذيب» دون «الكافى»، وما ذكر فيه السبب، وإن كان ضعيف السند، لكن وحدة المتن يكشف عن صدق الراوى فى الحديث، ومن البعيد أن يزيد من جانبه شيئاً.

وبذلك يعلم أن ابتعاد الإمام عليه السلام عن حول المقام لأجل كثرة الناس، وأما انتخابه قريباً من ظلال المسجد وفى الوقت نفسه حيال المقام لأجل أنه كان فى ذلك الوقت أقرب من سائر الأماكن.

هذا على المختار، وأما على مختار الأصحاب فيما أن المعتبر عندهم رعاية أمرين: الخلفية والعندية، فقد فصلوا فى ذلك كالتالى: ففى نجاه العباد: يختار عند الزحام الأقرب إلى المقام من الخلف، وإلا فيختار أحد الجانبين، وإلا فحيث يشاء مع رعاية الأقرب إلى الخلف (٢).

١- الوسائل: ٩، الباب ٧٥ من أبواب الطواف، الحديث ١ و ٢.

٢- نجاه العباد: ٣٣.

### فقهيات معاصرة فى الحج «٣»

موضع مقام إبراهيم (٢)

الشيخ محمد القائنى

إن الذى تقتضيه ملاحظة النصوص والأدلة المتقدمة [فى القسم الأول] أن الموضع الفعلى للمقام ليس متعيناً، سواء قلنا بأنه جائز أن تكون الصخرة فعلاً فى موضعه الفعلى أو لا.

والوجه فى عدم التعيين أن هذا الموضع لم يكن الموضع الأسمى لحجر المقام، ولم يضعه رسول الله صلى الله عليه وآله هنا، بل وضعه ملاصقاً للبيت.

ثم جعل عمر لصخرة هنا اجتهداً منه لو كان سائغاً، لكنه غير متعين حسب اجتهاده، بل ربما كان مقتضى اجتهاد الحاكم نقله إلى موضع أبعد من الموضع الفعلى.

حيث ينقل أن نقل الحجر إلى موضعه الفعلى كان لمصلحة الطائفين أو المصلين بسبب الزحام، وكلما كان الزحام أكثر اقتضت المصلحة تباعد المقام أكثر.

بل ربما اقتضت المصلحة تثبيت المقام خارج المسجد؛ ليفرغ البيت للطائفين حيث لا- يمكن تحويل البيت إلى موضع آخر ليفرغ المقام للمصلين.

وقد صرح بعض بعدم تعيين المكان الفعلى للمقام، وأنه يجوز نقله إلى

ص: ٤٢

موضع ثالث غير الموضع الأصلي وغير الموضع الفعلى، كالنقل إلى داخل الحجر حيث يكون الحجر محاطاً بجدار لا يتزاحم بسببه المصلّى والطائف؛ نعم لا يجوز التصرف ظلماً وعدواناً فى المقام.

ولكن الذى يقتضيه التحقيق أن نقل المقام إلى موضعه الأصلي بلصق البيت جائز؛ وأما نقله إلى موضع ثالث فلا يبعد منه وحرمة. أما الأول: فالوجه فيه عدم المانع؛ بل تضمّنت النصوص أنه المكان الأصلي، وأن المهدي عليه السلام إذا ظهر يردّ المقام إلى هناك، وأن علياً عليه السلام اعتذر من عدم ردّ المقام إلى موضعه الأصلي بالعجز بسبب مخالفة الناس.

إن قلت: إن ما تضمّن أن المهدي عليه السلام هو الذى يباشر ردّ المقام ينافى جواز نقل المقام لغيره.

قلت: لا منافاة له مع جواز النقل لغيره؛ وإنما غاية مدلول الرواية- ولو بالالتزام- هو عدم تحقق النقل من غيره إخباراً عن أمر تكويني لا عدم جواز النقل تشريعاً.

مع أنه ربما كان المراد بالخبر أن المهدي عليه السلام يباشر الردّ لو كان المقام باقياً فى موضعه الفعلى إذا ظهر.

مع أنه ربما كان المراد أن الموضع الفعلى لو كان المهدي عليه السلام ظاهراً فى ذاك العصر لغيره ولردّ المقام منه إلى موضعه الأصلي. وهذا تعبير عن النقمة على الوضع الموجود وتدلّل على وجوب الردّ تكليفاً.

وكيف كان، فلا ينبغى الشك فى دلالة النصوص المشار إليها والتي ذكرنا تفصيلها على جواز مباشرة نقل المقام من موضعه. ولا أقل من كون أصالة البراءة قاضية بجواز ذلك بعد أن لم تكن صخرة المقام ملكاً لأحد فعلاً كالصفا والمروءة.

وأما تعين النقل إلى الموضع الأصلي وعدم جواز غيره فلنفس النصوص المشار إليها، المتضمنة للأخذ على عمر فى فعله وعدّه بدعة؛

ص: ٤٣

فإن نقل المقام إلى موضع ثالث هو مصداق للبدعة أيضاً، كنقله إلى موضعه الفعلى؛ فإن ملاك عد فعل عمر أمراً غير مرغوب فيه - حسب المتفاهم من النص - ليس إلامخالفته لما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا موجود فى نقل الصخرة إلى موضع ثالث كداخل حجر إسماعيل.

هذا كله - أعنى حكم موضع الصخرة - مع الغض عن حكم صلاة الطواف واشتراط كونها فى المسجد الحرام مع كون الصخرة فى قبلة المصلّى، كما سنبينه إن شاء الله تعالى فى مسألة الصلاة على تقدير نقل المقام.

وبالجملة، فمقتضى ما تقدم من الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام من إظهار عدم التمكن من ردّ المقام إلى موضعه الأصلي، وما تقدم من النصوص المشار إليها فى أن المهدي عليه السلام إذا ظهر ردّ المقام إلى موضعه، وما تقدم من الأخذ على عمر فى فعله ومخالفته لما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله، مقتضى ذلك كله وجوب ردّ المقام إلى موضعه الأصلي، والله العالم بحقيقة الحال. ويمكن أن يستدل لجواز نقل صخرة المقام - حتى عن موضعه الأصلي فضلاً عن موقعه الفعلى - بما تضمن اشتراط كون صلاة الطواف عند المقام وخلفه؛

بتقريب أنه كما لا يجوز الصلاة فى موضع آخر اختياراً كالصلاة فى حجر إسماعيل؛ لكونه إخلالاً بشرط الصلاة ولا يجوز الإخلال بهذا الشرط كسائر الشرائط من الطهور والقبلة وغيرهما، كذلك يجب تحقيق شرط الصلاة ولو بنقل المقام حيث لا يتيسر الشرط إلا بذلك.

فيكون الدليل على جواز نقل المقام تكليفاً هو الدليل على اشتراط الصلاة بمجاورة المقام؛ فإن المجاورة إذا وجبت وجبت مقدّماتها أو حلت على الأقل؛ والمراد بالمقدّمه نقل المقام حيث يتوقف تحقيق الشرط عليه.

هذا غاية ما يمكن أن يُقرب به جواز نقل المقام على هذا الأساس.

ولكن يرد عليه: - بعد تسليم كون الشرط للصلاة هو الصخرة لا موضعها،



ص: ٤٤

بحيث لو نقلت الصخرة انتقلت الصلاة، وهذا بحث يأتى مفصلاً إن شاء الله فى مسألة حكم الصلاة- أولاً: إن النصوص الدالّة على تخصيص المقام بموضعه الأصلي تقتضى الردع عن ما تقتضيه القاعدة من جواز نقل المقام فضلاً عن وجوبه. وثانياً: إن وجوب تحصيل هذا الشرط فيما إذا توقف تحقيقه على نقل المقام أول الكلام؛ فهو من قبيل وجوب تحصيل وقت الصلاة كالزوال والغروب والفجر إذا لم تتحقق هذه الأوقات إلا بمغادرة المكلف موقعه والتحوّل إلى بلدٍ آخر، لكون موقعه الفعلى مما يطول ليله ستة أشهر ونهاره كذلك.

وإن شئت قلت: إن ما يقتضى وجوب تحصيل الشرط فى شرط الواجب- لا شرط الوجوب- لا يستدعى وجوب تحصيل الشرط بمثل ذلك؛ ففى الحقيقة تحقق الأمر الفلانى من شرط الوجوب، وإنما شرط الواجب هو الإتيان بالفعل مقروناً بالأمر الفلانى إذا كان ذاك الأمر متحققاً اتفاقاً. فالواجب هو الصلاة مجاوراً للمقام إذا كان المقام بوضعه الخاصّ مما يمكن الصلاة عنده؛ أمّا قلع المقام ونصبه فى محلّ آخر تمكيناً من مجاورة الصلاة له فغير لازم. فإذا قال: صل عند المقام فهم منه وجوب تحصيل الشرط، أعنى مجاورة الصلاة للمقام بحسب الوضع الفعلى للمقام وموضعه الخاص، وأنه لا يجوز فعل الصلاة فى جانب آخر من المسجد كحجر إسماعيل؛ وأمّا أنه إذا توقفت مجاورة الصلاة للمقام على تحويل المقام إلى موضع آخر فهذا غير مفهوم من الدليل.

ونظير ذلك ما إذا قال: صلّ فى مسجد القبيلة، فهم منه أنه إذا كان هناك مسجد القبيلة تجب الصلاة فيها، أمّا إذا فرض عدم التمكن من ذاك المسجد للزحام الشديد فوجوب توسعة المسجد فضلاً عن إيجاد مسجد آخر غير مفهوم من الدليل؛ فاشتراط الصلاة بالمسجد الخاص وإن كان من شرط الواجب لا شرط الوجوب، ولذا لا يجوز الاكتفاء بالصلاة فى الدار مع التمكن من المسجد بلا حرج وشدة ضيق، تحصيلاً للشرط كالطهارة وغيرها، ولكنه شرط الواجب على هذا

ص: ٤٥

التقدير، وأما بلحاظ عدم التمكين من فعله إلا بتوسعة المسجد ونحوها فهو شرط الوجوب، ومعناه أنه لا يجب تحقيق الشرط بتوسعة المسجد وإن كان على تقدير التوسعة يجب الكون في المسجد والصلاة فيه ولو في التوسعة الحادثة.

والغرض أن المتفاهم من إطلاق دليل الوجوب ليس أكثر من ذلك؛ وإلا فإطلاق وجوب الشيء بنحو يستتبع وجوب تحصيل المكنة يمثل المقدمات المتقدمة كتوسعة محل الواجب وما شاكلها- فيما لو صرح بالإطلاق- معقول ولا محذور فيه. وإنما المقصود أنه لا يفهم من الإطلاق وجوب ذلك.

ويظهر ذلك بملاحظة سائر الأمثلة العرفية؛ فإذا قيل: يجب على الناس عيادة المريض أو يستحب فلا يفهم منه مطلوبة العيادة فيما إذا توقفت على توسعة دار المريض أو إخراج المريض من مسكنه إلى مكان وسيع يتيسر عيادته لعامة الناس، وسره حصول الغرض من العيادة المطلوبة بعيادة من يتيسر له ذلك حسب الوضع الفعلي للمريض.

وهكذا إذا قيل: يجب على كل متمكن الحضور في المجلس وكان يتوقف حضور الزائد عن عدد على بناء مكان أو توسعة المكان الموجود؛ وهكذا.

ومن هذا القبيل أمر الشارع بالحج والمشتمل على الطواف والسعي والوقوفات؛ فإن الحج مشروط بالوجوب بالاستطاعة، وأما شرط كون الطواف في المسجد والسعي بين الجبلين والوقوف في المشاعر، فكل ذلك من شرط الواجب لا شرط الوجوب فيجب تحصيلها؛ ولكن على حسب الوضع الموجود؛ بمعنى أنه إنما يجب الطواف إذا أمكن بحسب سعة المسجد فعلاً، وأما إذا توقف الطواف بوجوب مقدمته- أعنى توسعة المسجد- فغير معلوم.

ومن هذا القبيل بناء طابق فوق المسعى يتحقق معه التمكّن من السعي بين الجبلين لعددٍ أكثر من الحجاج.

ومن هذا القبيل بناء طوابق في المواقف، أعنى عرفه ومزدلفةً ومنى، يتحقق

ص: ٤٦

معها التمكن من نسك الحج والعمرة لعدد أكثر، فإن كل ذلك غير معلوم الوجوب وإن كان على تقدير تحقيقها، أعنى تحقق التوسعة والبنيات، يجب على عدد أكبر من المسلمين الحج.

وبالجملة جواز البنيات والتوسعات من باب تحصيل شرط الوجوب هذا أمر ووجوبها من باب تحصيل شرط الواجب مسألة أخرى. والقول بوجوب نقل المقام إلى موضع يمكن الصلاة خلفه بدون مزاحمة الطائفين - تحصيلاً لشرط الصلاة - يستلزم وجوب توسعة المسجد الحرام عرضاً وارتفاعاً، ولو ببناء طوابق عليها بمقدار لا يخرج عن صدق الطواف بالبيت، وكذا المسعى. ويستلزم وجوب توسعة المواقع عرفه ومنى ومزدلفة ارتفاعاً ببناء طوابق فيها، بل عرضاً فيما أمكن كتعريض منى بنحت الجبال فيها بمقدار لا يخرج عن صدق الوادى.

وهذا كله غير واضح؛ ولذا لم ترد الإشارة إليه فى شىء من النصوص مع ترقب زيادة عدد الحجاج فى عصر الأئمة عليهم السلام ولما بعدهم.

وربما تكون المصلحة فى اجتماع عدد خاص فى المشاعر لا - أكثر؛ وذلك لحصول الغرض من ذاك الاجتماع - كنشر المعارف والاطلاع على مآسى الأئمة ونحو ذلك - مباشرة من الحجاج وبواسطتهم للآخرين ممن تخلف عن الحج لعدم التمكن بسبب ضيق المشاعر. والله العالم.

فلذا لا تستوحش مما قد ورد أن المهدي عليه السلام إذا ظهر ردّ المسجد الحرام إلى سعتة الأصلية وأبطل الزيادات؛ فإن الزيادات ربما توجب زحمة الناس ومفاسد مما لا موجب لها؛ فإن الزيادات تستتبع وجوب الحج على البقية لحصول المكنة لهم بسبب بناء الزيادات والتوسعات وهذا مستلزم لمشقات لا - داعى لها؛ فإن الداعى على الحج أمرٌ يحصل الغرض منه بوجوب الحج على العدد الذى يستوعبهم

ص: ٤٧

المسجد الحرام حسب بنائه الأصيلى، فلا داعى لتمكين عدد أكبر وأكثر ليسبب مشاكل لا داعى لها كالزحام الموجب لقتل النفوس وغيره.

ثم إنه لو قيل بوجوب توسعة المسجد والمواقف، تمكيناً للمكلفين من أداء نسك الحج والعمرة، فالظاهر توظيف الحاكم والمتولى للأمر بذلك.

والسّر فى ذلك أن التكاليف التى لا- يمكن لعامة الناس التصدى لها، لاستنزام تصدى العامة لها اختلال النظم والتشاجر وعدم الانضباط، فالمكلف بها فى الحقيقة هو إمام المسلمين ومتولى أمرهم؛ وذلك جمعاً بين وجوب الشىء وبين عدم إمكان تصدى الأفراد له؛ فيكون الدليل الدال على وجوب مثل هذه الأمور دليلاً على وجوبها على الحكام؛ وإن كان المتصدى للأمر يأخذ مؤونة تلك الأعمال من أفراد المكلفين؛ ولكن المتصدى للواجب هو الحاكم لا أفراد المكلفين؛ دفعاً للهرج واختلال النظم وغير ذلك من المفساد.

ومن هذا القبيل توسعة المشاعر للحج لو قيل بوجوبها.

ولكن تقدم أنه لا موجب لوجوب ذلك؛ إذ لم يعلم ثبوت غرض للشارع فى تمكين عدد أكبر ممن تسعهم المشاعر بوضعها الفعلى؛ ولا أنه يساعد على الدلالة على وجوب ذلك إطلاق أدلة وجوب الحج بعد كونه مقيداً بتمكّن المكلف ومشروطاً بذلك كاشتراط كل واجب سواه بالتمكّن من العمل.

هذا بالغض عمّا دل على أن المهدي عليه السلام إذا ظهر يردّ المسجد إلى وضعه الأصيلى مما يدل أو يشعر بعدم جواز توسعة المشاعر فضلاً عن وجوبها.

وقد ظهر بما ذكرنا الوجه فى اختصاص بعض التكاليف بالحكام بعد إطلاق الأدلة- لو كان- كالحدود، فإنها لو كانت مسوقة لبيان إطلاق الوجوب- لا- أصل الوجوب خاصية- فلا بد أن تحمل ولو تقييداً على خصوص الحكام؛ دفعاً لمحدور اختلال النظم ووقوع المفساد العظيمة بالمشاجرات وغيرها لو كان المباشر لتلك التكاليف عامّة الناس.

ص: ٤٨

وبما ذكرنا من البيان يتضح أنه لا مجال لما ذهب إليه سيدنا الأستاذ قدس سره من وجوب الهجرة على ساكني القطيين وأمثالهما من الأمكنة التي ليس لها الأوقات الخاصّة في كل أربع وعشرين ساعة من الزوال والغروب والفجر كعدم جواز السفر إليها للمكلفين. أمّا الوجه في هذه الفتوى فهو أن الأوقات الخاصّة كالزوال والغروب والفجر وإن كانت شرطاً لوجوب الصلوات على المكلفين لا شرطاً للواجب، ولكنها شرط للوجوب في حق المكلفين الذين يقطنون الأقطار المشتملة على هذه الأوقات؛ فلا يجب على المكلف أن يغادر بلده قبل الزوال ليصل إلى مكانٍ تزول الشمس فيه قبل بلده؛ فإن الزوال شرط وجوب الصلاة لا شرط صحتها ليجب تحصيله؛ ولو كان شرطاً للصحة فليس مما يجب تقديمه على زمان تحققه في بلد سكنى المكلف بالسفر؛ ولكن كون هذه الأوقات شرطاً في الوجوب لا- يشمل مثل سكنة القطب؛ فإن اشتراط الوجوب في حقهم بهذه الأوقات يستلزم سقوط الصلاة عنهم رأساً؛ أو وجوب خمس صلوات في مدة سنة واحدة.

وهذا غير محتمل بضرورة الدين وأنه لا تسقط الصلاة عن أحد من المكلفين غير النائم ونحوه؛ ولازم ذلك عدم اشتراط وجوب الصلوات الخمس في حق مثل أهل القطيين بالأوقات الخاصّة؛ فإذا وجبت عليهم الصلوات الخمس في كل أربع وعشرين ساعة- لا في السنة مرّة- فتجب عليهم مغادرة سكناهم والتوطن في مكان يتمكّنون فيه من فعل

ص: ٤٩

الصلوات في الأوقات الخاصة؛ وإلا فلا تصح الصلاة بدون ذلك؛ لأن الأوقات الخاصة هي شرط للصحة؛ وإنما كانت الأوقات شرطاً للوجوب زائداً على الصحة في حق غير القطبي.

وإنما نقول بكون الأوقات الخاصة شرطاً للصحة؛ لأن الواجب هو صلاة الفجر لا مطلق ركعتين، والواجب صلاة الزوال والعصر لا مطلق ثمان ركعات أو أربع؛ والواجب صلاة المغرب والليل [العشاء] لا مطلق سبع أو خمس ركعات؛ فلا يمكن امتثال الأمر الصلواتي في قوله تعالى: «أقم الصلوة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر» إلّا بالتحويل إلى بلد يشمل على الأوقات الخاصة. وبهذا البيان يندفع احتمال كون الواجب هو فعل خمس صلوات في القطب؛ وكذا احتمال كون العبرة بأفق مكة وأوقاتها؛ أو كون العبرة بآخر بلد مشتمل على الأوقات يتحول منه المكلف إلى القطب ونحوه من البلاد التي ليس لها في كل أربع وعشرين ساعة الأوقات الخاصة.

وجه الاندفاع أمّا الأول: فما تقدم من أن الواجب ليس هو مطلق خمس صلوات، وإنما هو صلوات خمس عند أوقات خاصة. وأمّا الثاني: فلأن العبرة في الأوقات التي تضاف للصلوات إليها إنما هو بموقع المكلف وبلده لا ساير الأماكن؛ فكما لا يجوز لغير المكي - كالصيني من البلاد المشتملة على الأوقات الخاصة - أن يراعى أوقات مكة فكذا لا وجه لوجوب مراعاة أوقات مكة على القطبي؛ لعدم كون صلاته مضافةً إلى بلدة مكة كعدم إضافة صلاة الصيني إليها.

وبما ذكرنا في الثاني يندفع الاحتمال الثالث من كون العبرة بآخر بلد ارتحل المكلف منه مما كان مشتملاً على الأوقات الخاصة، وجه الاندفاع: أن الواجب هو إضافة الصلاة إلى الأوقات الخاصة بلحاظ موقع المكلف حين الصلاة، لا إضافة الصلاة إلى موقع المكلف سابقاً. فكما أنه لا يجوز للمسافر أن يصلّى بأوقات بلده

ص: ٥٠

ووطنه، ولا أنه يجوز للمكلف أن يصلّى فى وطنه بأوقات بلد سافر منه إلى وطنه فكذا شأن المسافر إلى القطب. والتمسك لهذا الاحتمال الثالث بالاستصحاب غريب مردود: أولًا: بأنه من الاستصحاب بعد اختلال الموضوع؛ لكون الوقت من مقومات المتعلق.

وثانيًا: إنه من الاستصحاب التعليق.

هذا، ولكن بما ذكرنا سابقاً يظهر أنه لاتصل النوبة إلى ما صار إليه سيدنا الأستاذ قدس سره؛ وذلك لانصراف أدلة اشتراط صحة الصلاة بالأوقات الخاصة إلى خصوص من تمرّ عليه هذه الأوقات بصورة طبيعيّة؛ لا من كان مرور هذه الأوقات عليه بحاجة إلى تكلف سفر وارتحال عن بلده.

ومعه، فالدليل إنما يقتضى وجوب صلاة ما على المكلف فى مثل القطب فى كل أربع وعشرين ساعة؛ وأما اشتراط صحة الصلاة بالأوقات الخاصة فلا إطلاق له فى شأن هذا المكلف؛ وإنما يحتمل وجوب الصلاة عليه حسب أوقات أخرى كمكّة أو غيرها، أو كونه مخيراً فى فعل الصلوات الخمس كيف كان؛ والأصل يقتضى الثانى.

ومن هذا القبيل ما إذا توقف فعل الصلاة فى الأوقات الخاصة أداءً على السفر من البلاد المتعارفة عندنا المشتملة على الأوقات الخاصة كما لو ضاق الوقت عن صلاة ثمانى ركعات وأمكن فعل أربع ركعات فى الوقت، ولكن يتوقف انقلاب التكليف من ثمانى ركعات إلى أربع على السفر.

فإنه لا موجب لذلك؛ إذ التكليف بثمانى ركعات أدائيه موقوف على تمكّن المكلف من ذلك؛ فإذا لم يتمكّن سقط التكليف بالأداء؛ لا أن التكليف بالأداء يبقى متبدلاً من ثمانى ركعات إلى أربع ركعات بفعالها فى السفر ليكون السفر واجباً مقدّمياً لفعل الصلاة أداءً. وإن شئت قلت: إن السفر من قبيل شرط الوجوب لا شرط الواجب؛ فيجب

ص: ٥١

على الحاضر ثمان ركعات ويجب على المسافر أربع ركعات؛ فالحاضر والمسافر كالمستطيع وفاقده؛ فكما أن الاستطاعة شرط للوجوب فكذا الحاضر شرط للوجوب التمام والسفر شرط للوجوب القصر.

نعم، لو فوت المكلف الحاضر على نفسه اختياراً حتى ضاق الوقت عن ثماني ركعات فلا يبعد وجوب السفر عليه عقلاً - لا شرعاً - تحصيلًا للصلاة الأدائية الاختيارية وإلا فقد فوتها فيعاقب عليه؛ فلدفع العقاب يجب السفر؛ وهذا بخلاف من فاته الوقت عن ثماني ركعات بلا اختيار.

كما أنه لو كان الجامع بين القصر في السفر والتمام في الحاضر واجباً على المكلفين وجب السفر إذا توقف عليه الأداء في الصلاة؛ وذلك لعدم كون السفر والحاضر من شرط الوجوب على هذا التقدير بل هما من شرط الواجب. وتفصيل البحث عما هو التحقيق من كون السفر والحاضر من شرط الوجوب أو الواجب محوّل إلى غير المقام.

فقد تحقق مما حرّناه وقررناه في هذا المقام الأمر في بحث اصولي عام لم يعنون في محلّه المناسب من مباحث الأصول؛ وإن كان ربما يظهر من بعض الكلمات في مجالات تطبيقية لهذا البحث في الفقه بعض الإشارات؛ وحصيلة هذا البحث ومحلّه المتناسب من الأصول هو: أن الواجب ينقسم إلى مطلق ومشروط؛ وواضح أن الواجب المطلق هو ما لا يكون الوجوب فيه منوطاً بسبق أو تحقق ما فرض إطلاق الوجوب بالنسبة إليه؛ بل إطلاق الوجوب يدفع نحو تحقيقه ولو بتحقيق ذاك الأمر إذا لم يكن متحققاً.

ويقابله الواجب المشروط وهو ما يكون الوجوب متعلقاً على فرض تحقق الشرط، والأمر الذي فرض الوجوب مشروطاً بالنسبة إليه، من دون أن يكون للوجوب دعوة أو دفع نحو إيجاد ذاك الأمر والشرط. وواضح أن الإطلاق والاشتراط أمران نسيان؛ فرب واجب مطلق يكون مشروطاً في نفس الوقت



ص: ٥٢

بالنسبة إلى أمر غير ما فرض الواجب مطلقاً بالنسبة إليه؛ وكذا العكس وهذا واضح جداً، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إذا شك في اشتراط وجوب الواجب بشرط وأمر ولم يكن اخذ ذاك الشرط قيده في القضية المطلقة المتضمنة لوجوب الواجب فلا محالة يكون إطلاق القضية نافية للشرطية ودالاً على إطلاق الوجوب. وعلى أساس هاتين الناحيتين يفتح المجال للبحث عن الناحية الثالثة والتي أشرنا إليها- والبحث مرتبط بمجال الإثبات- وهو أن اقتضاء إطلاق القضية لكون الوجوب مطلقاً هل يعم مثل هذه الموارد ليكون الوجوب بلحاظ هذه المقدمات أيضاً مطلقاً فيجب على المكلف تحصيل المقدمه التي هي من هذا القبيل كتوسعة المطاف والمسجد وبناء طوابق في المشاعر وما شاكل ذلك كالذي أشرنا إليه من السفر في ضيق الوقت للتمكين من الصلاة الأدائية، وهكذا أو لا يشمل الإطلاق ما كان من هذا القبيل؟ ذكرنا أن الظاهر هو عدم الشمول ولا أقل من الإجمال. ثم لا أخفيك أنه ربما تكون بعض المقدمات مشكوك كونها من أي القبيلين؛ فبعض المقدمات واضح أنه من قبيل ما يجب تحصيله كالوضوء للصلاة والسير إلى الحج وما شاكل. وظنني أن بعض المقدمات واضح أنه لا يجب تحصيلها، وبالتالي يكون الوجوب مشروطاً بالنسبة إليها، وذلك من قبيل توسعة المسجد الحرام وبناء الطوابق فوق المشاعر وشراء ماء للوضوء بمليارات؛ وهذا بالغض عن أدلة الحرج والعذر؛ وهناك بعض المقدمات يشك في كونها في أي القبيلين؛ ولذا يقع الخلاف أو وقع فيها؛ وذلك مثل الحج الدوراني، وذلك فيما إذا توقف التمكن من الحضور في المشاعر لأداء مناسك الحج على الدوران في البلاد؛ والمسألة مطروحة في العروة الوثقى، وقد اختلف فيها وربما كان المعروف من المعلقين عدم الوجوب، وبإلى أن

ص: ٥٣

سيدنا الأستاذ أفتى بالوجوب إن لم يستلزم الحرج.

ويخطر ببالي أنه لاتصل النوبة فى نفى الوجوب إلى الحرج؛ بل مقتضى الأدلة- مع الغض عن الحرج- عدم الوجوب؛ وذلك لكون وجوب الحج مشروطاً بالاستطاعة المفسرة بخلو السرب؛ والسرب الدورانى لا يعد سرب الحج، وإنما هو ذهاب إلى الحج من غير سربه، فلذا لا يكون الحج واجباً.

بل لو لم تكن الاستطاعة مفسرة بخلو السرب، فإطلاق وجوب الحج بالنسبة إلى مثل هذا الفرض مما يعد عرفاً غير متمكن، ويعد الدوران من قبيل تحصيل المكنة مبنى على البحث المشار إليه فى المقام من أن إطلاق الوجوب بالنسبة إلى مقدمات فى هذا القبيل، هل هو شامل أو هو منصرف عن مثل ذلك؟ وهذا ما يجعل المثال مندرجاً فى المقام وإلا فبحسب العمل ذكرنا أن النص المفسر للاستطاعة بخلو السرب مانع من وجوب الحج فى الفرض المشار إليه.

وهناك فى الفقه مسائل عدّة مناسبة لهذا البحث الذى أشرنا إليه، كوجوب الجماعة فى الصلاة على الأعجمى والملحن بالقراءة ومن يضيق وقته عن القراءة.

ويكفينا فى المقام الإشارة إلى هذا المقدار؛ وتفصيل الكلام زائداً عنه محوّل إلى الأصول.

كما اتضح بما ذكرنا الأمر فى بحث اصولى آخر غير معنون فى محلّه المناسب من الاصول وهو حكم الواجبات التى لا يمكن مباشرة عموم الناس لها؛ لاستلزامه اختلال النظم ونحوه؛ وأنها محوّلة- حسب الفهم العرفى من دليل الوجوب أو الاستلزام العقلى بضم امتناع توظيف العموم بها لمحدور اختلال النظم ونحوه- إلى الحكام.

فظهر بما ذكرنا حكم وجوب نقل المقام عن موقعه إلى موقع آخر يتمكّن فيه المصلون من الصلاة خلفه بلا- تراحم بينهم وبين الطائفين، وأنه لا موجب لذلك.

هذا كله، مع الغض عن أنه لو سلّم اقتضاء إطلاق الوجوب لوجوب تحصيل

ص: ٥٤

مقدّمات من هذا القبيل واقتضاء إطلاق وجوب مجاورة الصلاة للمقام لوجوب نقل المقام فهو إنما يتم حيث لا دليل على عدم جواز النقل؛ ومعه - كما تقدّم بيانه وتفصيله - يعلم بسقوط الشرطية، أعنى شرطية المجاورة لا محالة.

ثم إنه يبقى فى المقام شىء، وهو أنّه ربما كان وجوب نقل المقام إلى محلّه الأصىلى المجاور للكعبة - حسبما يستفاد من النصوص - فى جملة سائر الأحكام المفروضة فى فقه أهل البيت عليهم السلام والتي منها وجوب إرجاع المسجد الحرام إلى حدّه القديم بحذف التوسعات. فلا - يمكن الاستفادة وجوب نقل المقام إلى الموضع الأصىلى فى فرض وسعة المسجد؛ والسرّ فى ذلك أن الدليل على وجوب ردّ المقام إذا كان هو مباشرة المهديّ عليه السلام له إذا ظهر فيكون سراية الحكم إلى غيره عليه السلام بملاك إلغاء الخصوصية لا محالة، والمتيقن من إلغاء الخصوصية هو مورد فعله عليه السلام. وفعله عليه السلام إنما هو فى فرض ساير أفعاله التى ربما يكون لها مدخل ولو احتمالاً حسب الفهم العرفى.

وأما إلغاء الخصوصية عن فعله عليه السلام لنقل المقام بإلغاء ظروف فعله عليه السلام فهذا مما لا يجوز، بعد ما لم يحرز عدم دخل ما يقارن ذلك الفعل من فعل ردّ المسجد إلى الحالة القديمة فى الحكم.

نعم لو كان المدرك لوجوب ردّ المقام إلى مكانه الأصىلى ما روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام، فلا يبعد دلالة على كون ردّ المقام واجباً مستقلاً غير مرتبط بأمر آخر كردّ المسجد إلى حالته السابقة؛ فلاحظ وتأمل فى المقام فإنه حقيق به.

وبه يتضح الشأن فى التعدى عمّا تضمّن أفعالاً للمهدى عليه السلام للحكم بوجوبها على سائر الناس أو الحكّام؛ فإنه منوط بإحراز عدم كون فعل آخر مرتبطاً بما يراد الحكم بوجوبه على أساس مباشرة المهديّ عليه السلام له إذا ظهر.

وبالجملة: إلغاء خصوصية المهديّ عليه السلام فى لزوم ما يباشره عليه السلام من الأفعال شىء وإلغاء خصوصية ما يكتنف فعله من فعل آخر والحكم بعدم دخله فى حكم الفعل الآخر شىء آخر.

ص: ٥٥

نعم، حيث يكون فعل المهدي واقعاً روايته فى كلام ساير الأئمة عليهم السلام وكأنهم عليهم السلام بصدد النعمة على الوضع الموجود المعاصر لهم والاعتراض على ذلك، فلا يبعد دلالة إطلاق كلامهم عليهم السلام على كون الفعل المحكى مطلوباً على الإطلاق بلا دخل لفعل آخر فى مطلوبيته. وهذا البحث بحاجة إلى مزيد تحقيق.

إن مما يمكن الاستدلال به لوجوب ردّ المقام إلى موضعه الأصلي ما تضمن أن المهدي عليه السلام إذا ظهر ردّ المقام إلى ذاك الموضع.

ولكن قد يقال: إن النصوص المتضمنة لفعل المهدي إذا ظهر لا تُخصّص بما يكون واجباً، بل هى مشتملة على ما لا يجب، كتوسعة الطرق وهدم المنابر والمنابر فى المساجد، وإن كان فيها ما هو واجب كإحياء السنن وإبطال البدع.

ولكن يمكن أن يقال: إن عامية ما ورد من فعال القائم المهدي عليه السلام إذا ظهر هى واجبات وامور لازمة، إما أصالة من الشرع أو ولاية من الحاكم والمتولى للأمر بعنوان كونه مسؤولاً عن الوضع العام والنظم الاجتماعى؛ ولم يعلم أن يكون شىء منها أمراً مطلوباً لكونه مجرد راجح؛ فإن توسعة الشوارع وما شاكلها امور لا بد منها فى الحياة الاجتماعيه المبتنية على الحاجة إلى تسهيل أمر الطرق؛ بل هى ضرورة لا مناص منها؛ وهذا واضح لمن مارس التردد فى البلاد المبتلاة بزحمة الشوارع بالوسائط الثقيلة وغيرها من أسباب ضيق المسالك والطرق؛ وعلى هذا الأساس فلا نستبعد أن يكون مثل هذه الأمور فى النص إشارة إلى الجهة لا تحديداً لمقدار الحاجة؛ فتوسعة الشارع ثلاثين ذراعاً ونحوها لا يعنى هذا العدد بالتحديد؛ بل هى نقض للوضع الموجود حال صدور النص من ضيق الشوارع وأنه لا- ينبغى الاقتصار فى الطرق على ذلك المقدار، وأن للحاكم هدم الدور والمساجد لغرض توسعة الطرقات حسبما تقتضيه المصلحة؛ ولو مع التعويض عنها للملاك وغيرهم.

هذا فى جملة من الأمور.

ثم جملة منها امور لازمة بأصل الشرع؛ فإن هدم المنابر فى المساجد- إذا

ص: ٥٦

كانت المنائر مبنيةً فى المساجد لا على جانبها- أمر غير جائز على القاعدة؛ لكون المسجد محرراً شرعاً للمصلين فى المسجد فكلمًا زاحم الصلاة لم يجر، ومن جملة المزاحمات إشغال شطر من المسجد بما لا يمكن معه الصلاة فى ذلك الشطر، كبناء حوض للماء أو بنية المنارة؛ وأما الجدار المبنى حول المسجد للإحاطة به ولبناء السقف عليه فهو لمصلحة المصلين، ولا بد أن يكون ما يشغله الجدار والأساس للسقف بمقدار الحاجة والضرورة لا أزيد.

وكذا ما ورد من هدم المهدي عليه السلام المنابر، وكأنه يشير إلى المنابر التى كانت مبنيةً حتى زمان متأخر فى المسجد الحرام وكذا هى مبنية فى ساير المساجد، فإنها تشغل شطراً من المسجد ولا يجوز ذلك. وقد هدمت الحكومة الحجازية هذه المنابر فى المسجد الحرام فى العمارة الأخيرة، وكذا المقاصير التى ورد أن المهدي يهدمها؛ وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن مدلول هذه الروايات، ليس هو الإخبار بهذه الأفعال بنحو تصدر فعلاً من المهدي؛ وإنما هى من قبيل المعلق؛ وإرشاداً إلى أنه ليس الوضع الموجود أمراً مقبولاً شرعاً، وأن المهدي إذا ظهر وكانت هذه الأمور باقية وموجودة أزالها؛ لأنها منكرات.

ثم ذكر المهدي؛ لأنه عليه السلام لا يتقى أحداً إذا ظهر، وأما باقى الأئمة عليهم السلام فلم يكن لهم القدرة على مواجهته تلك الأوضاع، بل كانوا فى ظروف التقية؛ وعلى هذا الأساس لاتنافية هذه النصوص وجوب إبطال هذه الأمور على غير المهدي عليه السلام حيث يمكن ويقدر عليه.

كما أن هذه النصوص لا تستلزم بقاء هذه المنكرات إلى زمان ظهوره عليه السلام ليكون لها مصداق ويباشر المهدي عليه السلام إبطالها وإزالتها، بعد أن كانت مشيرةً وإرشاداً إلى الإنكار على الوضع القائم آنذاك.

على أنه ربما تعود هذه المنكرات مرةً أخرى بعد مّر الزمان بحيث يكون الإمام عليه السلام إذا ظهر هو المباشر لإزالتها أيضاً. وما تضمن أن ظهور المهدي يكون بعد

ص: ٥٧

امتلاء الأرض جوراً وظلماً، ظاهر فى تحقق هذه الحالة قبل الظهور، كما أن ذلك لا يستدعى عدم وجوب إقامة المعروف ودفع المنكرات قبل ظهوره عليه السلام، وهذا ظاهر.

إذن، فما تضمن أن المهدي عليه السلام يرّد المقام إلى موضعه الأصلي ظاهر بوضوح فى عدم كون وضعه الفعلى أمراً مقبولاً، إمّا بأصل الشرع أو باعتبار مصلحة الحجاج حسبما أشرنا إليه من أن شأن المقام شأن الحجر الأسود. أو باعتبار أنه سيق وأن النبي صلى الله عليه وآله جعل المقام فى موضع خاص، ولو لم يكن النبي صلى الله عليه وآله هو الذى باشر ذلك لم يكن فى تغيير المقام عن موضعه الأول أى محذور.

وعلى أى تقدير، فلا يجوز لأحد أن يخالف الحالة التى كانت عليها الصخرة قبل أن يباشر عمر نقلها.

وربما كان المنشأ فى مواجهة المهدي لبعض الأمور أن المباشر لفعالها كان شخصاً ضالاً وإمام سوء يكون فى إمضاء عمله مفسدة بملاحظة خصوص عمله ذاك بل بملاحظة ساير أعماله.

هذا كله بالغض عن دلالة ما عدا هذه الطائفة من النص على ذلك؛ كالذى تضمن أن علياً عليه السلام قال: إن الولاية قد عملوا قبله بأعمال خالفوا السنة فيها، وعدّ منها نقل المقام.

ثم إنى بعد ما أنهيت الرسالة هذه فى حكم نقل المقام، وقفت على بعض الرسائل من أهل السنة فى هذا المجال، وقد كانت مشتملة على جملة من النقاط التى بحثناها تفصيلاً كما أنها تخالفنا فى نقاط اخرى أحببت أن أوردتها هنا باختصار واثبه على ما يمكن الايراد عليها على أساس القواعد والمباني المقبولة.

وقد توصل صاحب الرسالة على أساس ما نقّحه فى هذه الرسالة إلى جواز نقل المقام من موضعه الفعلى إلى أبعد من ذلك، ولكن بشروط عتبر عنها بحقوق المقام وهى: القرب من الكعبة، والبقاء فى المسجد الذى حولها والبقاء على سمت

ص: ٥٨

الموضع الذى هو عليه.

ومراده من القرب من الكعبة ليس هو القرب بلحاظ الموضع الفعلى؛ بل يعنى أن لا- يبعد من الكعبة بُعداً مفراطاً، كجعله قريباً من المسعى فى المسجد. واستتاجه لهذه الحصيلة عبر مقدمة وفصول نلخصها فيما يلى:

ذكر فى المقدمة قوله تعالى: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» (١)، وقوله تعالى: «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا- تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود» (٢). ثم ذكر أنه فسير التطهير فى الآيتين بالتطهير من الشرك والأوثان، وأن هذا من باب ذكر الأهم، وإلا فالمأمور به أعم من ذلك، مستشهداً ببعض الاستظهارات من السلف.

ثم ذكر أن ذكر العلة والغاية من الأمر بالتطهير يبين أن التطهير المأمور به لا- يخص الكعبة بل يعم ما حوالىها، حيث تؤدى هذه العبادات من الطواف وغيره هناك. ثم ذكر أن فى معنى التطهير إزالة كل ما يمنع من هذه العبادات ويعسرها أو يخل بها، كأن يكون فى موضع الطواف ما يعوق عنه من حجارة أو شوك أو حفر، فالمأمور به تهيئة المسجد لما يتسع لهذه العبادات مع اليسر. ثم لما كان المسلمون قليلين فى عهد النبى صلى الله عليه وآله كان يكفيهم المسجد القديم؛ وكثرتهم فى حجة الوداع لم تكن منتظرة ولا متوقع استمرارها فى السنوات التى تليها، فلذا لم يوسع المسجد فى زمانه صلى الله عليه وآله بعد حجة الوداع، مع ما كانت بيوت قريش ملاصقة للمسجد لا تمكن توسعته إلا بهدمها؛ وهدمها ينفرهم وعهدهم بالشرك قريب؛ ولما زال المانع فى عهد عمر وسع المسجد، وهكذا من بعده من الخلفاء بحسب كثرة المسلمين فى أزمنتهم؛ وكذا استمر إلى زمن ملك الحجاز.

١- البقرة: ١٢٥.

٢- الحج: ٢٥.

ص: ٥٩

ثم استظهر من تقديم الطائفين فى الآيتين المتقدمتين أن حقَّ الطائف مقدّم- عند التعارض- على غيره من العاكفين والمصلين. ثم ذكر كثرة الطائفين فى هذه الأزمنة وأنه ينتظر استمرار الزيادة على مرّ الزمن بأسباب طبيعياً، فلا محيص من توسعة المطاف، وإن أضيقت موضع من المطاف هو ما بين المقام والبيت وإن صحَّ الطواف فى غير هذا الموضع- لكون شرطه المسجد لا هذا الحدّ- فإذا كانت توسعة المطاف مشروعاً فتوسعة ذلك الموضع- يعنى ما بين البيت والمقام- مشروعاً؛ وما لا يتمّ المشروع إلّابيه- ولا مانع منه- فهو مشروع، يعنى بما لا- يتمّ إلّابيه تأخير المقام؛ لأن ما عدا ذلك من وجوه توسعة المقام مبتلاة بمحاذير، ومن جملة تلك الوجوه تحديد موضع للمصلين خلف المقام فى الموضع الفعلى، وتوسعة المطاف وراء ذلك، فإن مثل هذا مختل من وجوه: منها: أنها مخالفة لعمر الذى عمله حجّة؛ فإن موضع المقام فى الأصل كان بلسق الكعبة- وقد أثبت ذلك كما أثبتناه- وأقرّه الصحابة فكان إجماعاً وهو حجّة. ولو كان النبى صلى الله عليه وآله هو الذى أخر المقام إلى موضعه الفعلى لعلمه الزحام المذكورة فى فعل عمر فهو أيضاً حجّة.



ص: ٤٠

وكان ممكناً أن يبقى المقام بجانب الكعبة ويحجر موضع للصلاة خلفه. فإذا ساغ لعلّ الزحام تأخير المقام من موضعه الأصلي فتأخيره عن موضعه الثانى أولى. ثم أشار إلى وجوه اخرى من المحاذير.

ثم تعرّض بالتفصيل فى مجال أنه لا مانع من تحويل المقام بعد وجود المقتضى له؛ فما تقدم كان بيان المقتضى. وأما عدم المانع فلأن ما يتصور مانعاً أمور لا تصلح مانعاً.

منها: ما ذكره جمع من المفسرين من أن المقام ليس هو الحجر فقط بل المقام هو الحجر والبعة التى هو فيها الآن؛ وتأخير البعة غير ممكن.

ثم ذكر أن تحقيق هذا الأمر يستدعى تفصيلاً من المقال فى فصول:

الفصل الأول: تعرّض فيه لمعنى المقام وأنه الحجر أو المشاعر كالحرم أو غير ذلك. واختار أنه الحجر. وذكر خلافه عن الزمخشري وقال: الزمخشري - على حسن معرفته بالعريّة - قليل الحظّ من السنّة، ورأى أنه لا يكون الحجر مصلّى على الحقيقة إلّا إذا كانت الصلاة عليه، وذلك غير مشروع ولا ممكن؛ لصغره؛ ولو وفق الزمخشري للصواب لجعل هذا قرينه على أن المراد بكلمة (مصلّى) قبله كما قاله السلف؛ أى يصلّى إليه لا عليه، إمّا بعلاقة المجاورة أو أنه اسم مفعول. فقول الزمخشري مقام إبراهيم الحجر والموضع الذى كان فيه الحجر... يردّه أيضاً أن المذكور فى الآية مقام واحد لا مقامان.

الفصل الثانى: نكتة إطلاق مقام إبراهيم على الحجر حسبما ذكر أمور، واختار أن الثابت فى وجه تسمية الحجر بالمقام هو القيام الحقيقى لإبراهيم على الحجر الذى يناسب مزيّة له؛ وهو ما وقع من إبراهيم من قيامه عليه لبناء الكعبة، ثم للأذان بالحج؛ لا ما يحكى - ولو ثبت - من وضعه رجله على الحجر وهو على دابّته.

الفصل الثالث: وضع إبراهيم عليه السلام الحجر أخيراً لاصقاً بالبيت عند جدار الكعبة فى الموضع المسامت له الآن؛ وإقرار النبى صلى الله عليه وآله له هناك وصلاته هو وأصحابه

ص: ٤١

خلفه هناك. قال: ولم أجد ما يخالف هذا من السنّة والآثار الثابتة عن الصحابة، ولا ما هو صريح فى خلافه من أقوال التابعين. الفصل الرابع: حَقَّق فيه أن موضع حجر المقام فى عهد النبى صلى الله عليه وآله لم يكن هو موضعه الفعلى؛ وذكر فيه أقوالاً ثلاثة: القول الأوّل: أن موضعه فى عهد النبى صلى الله عليه وآله هو موضعه الفعلى قال: والأدلة الصحيحة الواضحة تردّ هذا القول؛ وقد ذكر فى وجه هذا القول روايات عن الأزرقى فى تاريخ مكّة.

وأورد على ذلك بأمور: منها: أن الأزرقى لم يوثقه أحد من أئمة الجرح والتعديل لا البخارى ولا ابن أبى حاتم؛ بل قال الفاسى فى العقد الثمين: لم أر من ترجمه فهو مجهول الحال، وقد تفرّد ببعض الحكايات. ثم ذكر ضعف عدة من وسائط روايات الأزرقى بالتدليس وغيره (١).

ثم ذكر عن الفاسى أن الفاكهى روى بعض الروايات التى رواها الأزرقى ثم قال: ليته ساق خبر الفاكهى؛ فإن الفاكهى وإن كان كالأزرقى فى أنه لم يوثقه أحد من المتقدمين ولا ذكره ولكنه أثنى عليه الفاسى فى العقد الثمين ونزّهه عن الجرح، وفضل كتابه على الأزرقى تفضيلاً بالغاً ثم قال:

١- قال آل الشيخ فى رسالته الجواب المستقيم: أبو الوليد الأزرقى مؤرخ مكّة لم نر شهادة أى معاصر له، ولم يرها قبلنا الفاسى على سعة اطلاعه. وأمّا الذين لم يعاصروه فأقدم من رأيناه تعرض له منهم ابن النديم صاحب الفهرست، قال فيه بعد ذكر نسبه: أحد الأخباريين وأصحاب السير؛ وله من الكتب كتاب مكّة وأخبارها وجبالها وأوديتها كتاب كبير... إلى أن قال: ثم بعد ابن النديم الحافظ عبد الكريم السمعانى صاحب الأنساب ذكر فيه: الأزرقى صاحب كتاب أخبار مكّة أحسن فى تصنيف ذلك الكتاب غاية الإحسان، ثم بعد السمعانى الإمام النووى. وقد بحثنا عن قول النووى فى الأزرقى فوجدناه يعتقد فى مؤرخ مكّة أنه هو جدّه أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى حيث عدّه فى المجموع ٧: ٤١٢ من أصحاب الشافعى، وتبّه الفاسى فى العقد الثمين على وهمه والدليل عليه، وأن السبب للوهم أن أحمد الأزرقى جد أبى الوليد صاحب التاريخ أيضاً يكنى بأبى الوليد فظنّه النووى هو. أقول: هذه الشهادات التى نقلها آل الشيخ فى شأن الأزرقى لا تدلّ على وثاقته فضلاً من أن تدل على جلالته بما يعادل أو يكون أدنى من جلاله عبد الرزاق وابن أبى حاتم وأمثالهما.

ص: ٤٢

أحسب أن الذى يحمل الفاسى ومن قبله المحبّ الطبرى على نقل رواية الأزرقى دون الفاكهى - إلا بإشارة- هو حسن سياق الأزرقى قال: ويرينى من الأزرقى حسن سياقه للحكايات وإشباعه القول فيها ومثل ذلك قليل فيما يصح عن الصحابة والتابعين. ويرينى أيضاً منه تحمّسه لهذا القول- يعنى للقول بأن الموضوع الفعلى للمقام هو الموضوع الأصلى. حتّى أنه أبدل بعض التعابير فى الأحاديث بما يناسب مقالته.

القول الثانى: ما قاله بعضهم: كان المقام لاصقاً بالكعبة فى عهد النبى صلى الله عليه و آله حتّى أخره هو صلى الله عليه و آله إلى موضعه الآن، واستشهد له ببعض الروايات وردّ عليها بضعف السند.

القول الثالث: كان المقام فى عهد النبى صلى الله عليه و آله وبعده لاصقاً بالكعبة حتى حوّل عمر واستشهد له بنصوص. ثم قال: وقد ينتصر للقول الأوّل بأن عمر لم يكن ليخالف النبى صلى الله عليه و آله؛ وما معنى تقدير المطلب لموضع المقام وتحزى عمر؟

وينتصر للقول الثانى بأن أولئك الأئمّة لم يكونوا ليتوهموا بدون أصل؛ فلعلّ النبى صلى الله عليه و آله حوّل المقام أخيراً ولم يبلغهم ذلك.

وينتصر للثالث بأنه قد يقع من عمر ما هو فى الصورة مخالفة للنبى صلى الله عليه و آله وهو فى الحقيقة موافقه بالنظر إلى مقاصد الشرع واختلاف الأحوال؛ وقد يخفى علينا وجه ذلك، ولكن الصحابة لا يجمعون إلأعلى الحق.

ثم قال: قد أغنانا الله عن هذا الضرب من الاحتجاج بثبوت النقل عمّن لا يمكن أن يظنّ به التوهم. ثم ذكر الروايات التى تدل على القول الثالث وقال: فقد ثبت بما تقدم- لاسيما حديث عائشة- صحه القول الثالث الذى عليه أئمة مكّة؛ عطاء ومجاهد وابن عيينة. مع أن الإنصاف يقضى بأن قولهم مجتمعين يكفى وحده للحجّة فى هذا المطلب.

ص: ٤٣

الفصل الخامس: علّة تحويل عمر المقام من موضعه الأصلي هو علم عمر بأن أئمة المسلمين مأمورون بتهيئة ما حول البيت للطائفتين والعاكفين والمصلين، ليتمكنوا من أداء عبادتهم على الوجه المطلوب بدون خلل ولا- حرج؛ وعلم أن المسلمين كثروا ومنتظروا أن يزدادوا كثرة فلم تبق التهيئة التى كانت كافية قبل ذلك كافية فى عهده؛ ورأى عمر أن عليه أن يجعلها كافية؛ فإن كان ذلك لا يتم إلا بتغيير يتم به المقصود الشرعى ولا يفوت به مقصود شرعى آخر فقد علم أن الشريعة تقتضى مثل هذا التغيير؛ فليس ذلك بمخالفة للنبي صلى الله عليه وآله بل هو عين الموافقة؛ وشواهد هذا كثيرة وأمثله من عمل عمر وغيره من أئمة الصحابة معروفة (١).

ثم ذكر من جملة الموانع لتغيير المقام فعلاً أن ذلك مما تنكره قلوب الناس فينبغى اجتنابه؛ كما روى أن النبي صلى الله عليه وآله قال لعائشة أن قومها أو قريشاً اقتصروا فى بناء الكعبة عن قواعدها التى بنى عليها إبراهيم- يعنى أن الكعبة قواعدها أوسع مما بنتها قريش- فقالت له: «ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ قال: لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت. وفى أخرى: لولا أن قومك حديث عهدهم بجاهليّة فأخاف أن تنكر قلوبهم».

ثم ردّ على هذا المانع بأنه لم يكن على عهد النبي صلى الله عليه وآله حاجة فى تأخير المقام، كما لم يكن ضرورة فى ردّ بناء الكعبة إلى قواعدها الأصليّة، بخلاف وضع المقام فى هذا اليوم.

مضافاً إلى أنه إذا ظهرت مصلحة تغيير المقام انقلب الإنكار رضا وشكراً.

مع أن المقام نفسه آخر فى صدر الإسلام عن موضعه الأصلي- يعنى بفعل عمر كما اختاره أو بفعل غيره- ولم يلتفت إلى احتمال إنكار القلوب له.

١- أقول: يظهر من بعض النصوص التى تقدّمت من طرق الشيعة أن علّة تأخير عمر للمقام من موضعه الأصلي كان هو تشاغل الطائفتين به عن الطواف وازدحامهم عليه الموجب للزحمة على سائر الناس، ولصلاة المصلين، وكأنه كان نظير تشاغل الطائفتين بالحجر الأسود- استلاماً أو تقييلاً- أثناء الطواف، وكذا تشاغل سائر الناس، وهذا أمر غير بعيد.

ص: ٦٤

ثم ذكر من جملة الموانع لتغيير المقام أنه استقرّ المقام فى هذا الموضع قرابة أربعة عشر قرناً، ولا شك أن الحجاج كثروا فى بعض السنين وازدحموا فى المطاف، ومع ذلك لم يخطر ببال أحد تأخير المقام، ولو كان جائزاً لما غفل عنه الناس طول هذه المدّة مع وجود الكثرة والزحام فى كثير من الأعوام. ولا أقل من استحباب اختصاص المقام بموضعه الفعلى.

وردّ عليه بأنّه بعد تحقق علّة تأخير الصحابة للمقام عن موضعه الأصلي وأنه تهيئة المسجد للطائفين والمصلين خلف المقام الذى هو مأمور به فإعراض من بيننا وبين الصحابة عن تأخير المقام مرّة ثانية محمول على أنه لعدم تحقق العلّة؛ كما أن إعراض النبيّ صلى الله عليه وآله عن تأخير المقام فى زمانه لعدم تحقق العلّة فى عهده، لم يمنع الصحابة من التأخير عند تحقق العلّة بعده؛ فكذلك هذا. مع أنه لم يكن عدم تأخير المقام بعد الصحابة على مرّ القرون إجماعاً صحيحاً يمنع من العمل بما يأمر به القرآن أو أجمع عليه الصحابة.

ثم لخص رسالته بأن: الآيتين المصدّرتين فى رسالته - وغيرهما من الأدلّة - تأمر بتهيئة ما حول البيت للطائفين - مبدوءاً بهم - وللعاكفين والمصلّين؛ وأن المراد من التهيئة لهذه الفرق تمكينها من أداء تلك العبادات على وجهها بدون خلل ولا حرج؛ وأن هذه التهيئة تختلف باختلاف قلة تلك الفرق وكثرتها، وقد كثر الحجاج والعمرار فى عصرنا كثرة لا عهد بها وينتظر استمرارها وأصبح المطاف - يعنى ما بين البيت والمقام بموضعه الفعلى - يضيق بالطائفين فى موسم الحج ضيقاً شديداً، يؤدى إلى الحرج والخلل، إذن لا تتم التهيئة المأمور بها إلا بتأخير المقام. وإن الحكم المتعلق بالمقام - وهو الصلاة إليه - لو كان يختص بموضع لكان هو موضعه الأصلي الذى انتهى إليه إبراهيم فى قيامه عليه لبناء الكعبة وقام عليه فيه للأذان بالحج ونزلت الآية: «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» وهو فيه وصلى عليه النبيّ صلى الله عليه وآله مراراً تلاً فى بعضها الآية وهو فيه؛ ومع ذلك فلمّا أجمع الصحابة على تأخيره

ص: ٦٥

وانتقال الحكم - وهو الصلاة إليه - معه ثبت قطعاً أن الحكم يتعلق به لا بالموضع، هذا بالنسبة إلى الموضع الأصلي فكيف بالموضع الفعلى؟!!

فتأخير المقام هذا اليوم أيضاً قطعاً عمل بكتاب الله تعالى الأمر بالتهيئة للطائفين أولاً وللعاكفين والمصلين بعدهم، وأتباع لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله حق الاتباع بالنظر إلى المقصود الشرعى الحقيقى؛ وإنه لا يخدم فى ذلك أن فيه مخالفةً صورىة؛ وكذلك هو أتباع لسنة الخلفاء الراشدين المهديين وإجماع المسلمين؛ لأن الحكم يدور مع علته، ولكن لا بد أن يكون تأخير المقام بمثل عمل الصحابة مع ما راعوه، يعنى بالشروط الثلاثة: عدم إخراجهم عن المسجد، وعن المحاذاة للموضع الأصلي، وعدم البعد المفرط عن البيت إلبمقدار الحاجة.

هذا آخر ما لخصناه من رسالة المحدث العلامة عبدالرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى المتوفى سنة ١٣٨٦ هـ، والتي قرظها واستحسنها ووافق على مضامينها العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتى الديار السعودىة.

أقول: بالرغم من أن النتيجة التى انتهى إليها المعلمى فى رسالته لا نرتضيها حسبما تقدم منا أيضاً، ولكن الرسالة هذه حاكية عن فضل مؤلفها وقوة قريحته وحسن فهمه؛ فهو على مباني أهل السنة جيّد المشى قوى الاستدلال، فلذا كانت رسالته أهلاً للإيراد؛ ونحن إنما لا نقول بالنتيجة التى توصل إليها من جواز نقل المقام إلى موضع ثالث غير الموضع الأصلي والموضع الفعلى؛ لأن جواز كون المقام فى الموضع الفعلى أيضاً لا - نقول به حسب مبانينا ونصوصنا. ولو كان الموضع الفعلى أمراً جائزاً فالنقل الثانى بما ذكر له من الشروط لم يكن أمراً بعيداً.

فعمدة الخلاف بيننا وبين المعلمى ومن هو على مذهبه هو هذه النقطة وهو أن كون المقام فى الموضع الفعلى الذى كان بفعل عمر حسبما اعترف به هو وغيره من منصفى أهل السنة هل كان جائزاً ويجوز إبقاؤه الآن أيضاً أو لا؟ وقد سبق أن نصوصنا صرحت بأن نقل المقام كان بدعةً فى لغة رسول الله صلى الله عليه وآله،

ص: ٦٦

حسبما تقدمت الرواية عن أمير المؤمنين على عليه السلام، وأنه لولا العجز لردّ المقام إلى الموضع الأصلي؛ وأن المهدي إذا ظهر وكان المقام يومذاك فى الموضع الفعلى لردّه؛ لتمكّنه وزوال التقيّة.

والمعلّمى لما كان فعل عمر حجّة عنده فمشيه على أساس ذلك المبنى فى الحكم بجواز النقل مجدداً فى محلّه؛ ولكن نحن لا نرى حجّة فى ذلك الفعل لوجوه:

الأوّل: أن شأن الصحابة- على جلالتهم وفضلهم لصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله- شأن ساير الناس فى حجّة اجتهادهم؛ وربما كان اجتهاد غير الصحابى أقوى وأكثر اعتباراً من اجتهاد صحابى.

وأما حكمنا فى شأن على عليه السلام وسائر أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فليس بملاك الصحبة؛ ليكون الأمر فى قضائهم كساير الناس، وإنما نقول باعتبار حديثهم وحكمهم لحديث الثقلين وغيره مما تضمن حجّة قولهم على المسلمين قاطبة، وأن الحق معهم كما أنهم مع الحق، وأنهم باب علم رسول الله صلى الله عليه وآله إلى غير ذلك من المضامين التى تواترت فى كتب أهل السنّة فضلاً عن كتب الشيعة، واعترف بها أفاضل علماء السنّة فضلاً عن علماء الشيعة.

الثانى: أن اجتهاد الصحابى لو كان حجّة فإنما هو حيث لا يكون هناك نص بخلافه، فالاجتهاد فى قبالة النص لا عبرة به من صحابى كغيره. هذا من جهة.

ومن جهة اخرى، إن النص الذى يرويه أئمة أهل البيت لا يقلّ اعتباراً عن ما يرويه غيرهم فى الصحابة لو ثبت وثاقه الصحابى، فإن شأن أهل البيت فى روايتهم لا ينبغى أن يقلّ عن شأن ساير المسلمين بل أدناهم؛ فكيف يكون خبر أدنى المسلمين- إذا كان ثقة- حجّة ولا يكون خبر آل محمد صلى الله عليه وآله حجّة وهم سادات المسلمين وأئمتهم وعدل القرآن وأهل بيت الوحي؛ فأى ظلم أفحش من أن لا يرى لآل محمد صلى الله عليه وآله ما يرى لأدنى المسلمين من حق وحكم، أعنى حجّة الخبر؟!

ومن جهة ثالثة، إن أهل البيت صرّحوا بأن كل ما لهم من حديث وحكم فهو

ص: ٦٧

رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله بسند متصل ينتهى إلى على أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله. فإنا نرى أن وسائط النقل بين النبي صلى الله عليه وآله وبيننا لو كان أمثال أبى هريرة كان الخبر حجّة، وأمّا إذا كان واسطة النقل على وبنوه فلا يكون الخبر حجّة. إن هذا الأمر لعجيب!

وعلى هذا الأساس نقول: روى عن على أمير المؤمنين عليه السلام أن نقل المقام بدعة مخالفة لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله. الثالث: هب أن اجتهاد الصحابة حجّة كما عليه أهل السنة، ولكن اجتهاد على وسائر أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله - من الصحابة على الأقل - لا ينبغي أن يقل عن اجتهاد سائر الصحابة؛ فما بال اجتهاد سائر الصحابة يكون حجّة مقدّمًا على اجتهاد الصحابي من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

ثم ما أراد المعلمى من تجويز نقل المقام إلى موضع أبعد، إن كان لقضيّة صلاة الطواف - كما هو مقصوده - فهو مبنى على اشتراط صلاة الطواف بالمقام على الإطلاق؛ لم لا تكون الشرطيّة مخصوصة بفرض التمكن وعدم الحرج والزحمة؛ وأمّا مع الحرج فتسقط الشرطيّة وتجب الصلاة فى محاذى المقام ولو بعيداً عنه، كما روى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم صلّوا صلاة طواف الفريضة فى الزحام بحذاء المقام قريباً من الظلال.

وبالجملة: إذا كان اشتراط مجاورة الصلاة للمقام باقياً فى تمام الظروف والحالات، فحيث لا يمكن عادةً التحفظ على الشرط إلّا بنقل المقام كان النقل جازياً بل واجباً، كوجوب تحصيل سائر شروط الواجب كالوضوء وغيره من شروط الصلاة.

ولكن لم لا يكون اشتراط مجاورة الصلاة للمقام فى الزحام من قبيل شرط الوجوب؛ بمعنى أنه تجب المجاورة مع التمكن لعدم الزحام؛ وأمّا إذا كانت المجاورة لا



ص: ٦٨

تتحقق إلّا بنقل المقام فهذا الشرط ليس مما يجب؛ بل الشرط هو ما يتيسر للناس من محاذاة المقام بدل المجاورة. هذا، وكان على المعلّمى - على أساس استدلاله لجواز نقل المقام بآتى الأمر بتهيئة ما حول البيت للطائفين والمصلين - أن يقول بجواز نقل الحجر الأسود من موضعه لنفس النكته التى على أساسها حوّل المقام فى عهد عمر وأراد المعلّمى تحويله ثانياً إلى أبعد؛ ويجرى الكلام فى ذلك طابق النعل بالنعل والقذة بالقذة.

وإذا رجع المعلّمى فقال: إن الحجر لم ينقل فى عهد الصحابة ولكن المقام نقل؛ قلنا له: أولاً: ربما كان عدم نقل الحجر فى عصر الصحابة كعدم نقل المقام فى عصر الرسالة وحياء النبى صلى الله عليه وآله؛ فكما أن الثانى لم يمنع الصحابة من نقل المقام بعد النبى صلى الله عليه وآله، فما المانع من نقلنا نحن الحجر بعد عصر الصحابة؟! وثانياً: ربما كانت العلة فى عدم نقل الصحابة للحجر عدم الحاجة والضرورة آنذاك وكانت ضرورتهم تتأدى بنقل المقام خاصّة؛ بخلاف هذا العصر؛ وبالجملة:

لا مناص للمعلّمى وغيره من أهل السنّة إذا جؤزوا نقل المقام الذى صنعه عمر، وجؤزوا أيضاً نقله ثانياً فعلاً أن يرخصوا فى نقل الحجر الأسود. ولو كان رسول الله صلى الله عليه وآله واضعاً الحجر الأسود فى موضعه الفعلى، فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وآله

ص: ٦٩

المقام في موضعه الأصلي غير الفعلى فما بال مخالفة رسول الله صلى الله عليه وآله في الأول ممنوعه وفي الثاني جائزة؟! ثم إن ما ذكره من أن الأمر في الآيتين مرده إلى الأمر بتهيئة البيت للطائفين والمصلين، فالأمر كما ذكره، ولذا يستفاد من الآيتين عدم جواز فعل ما ينافي ذلك كبناء منابر في المسجد الحرام، وكذا بناء مقصورات حسبما ينقل أنه كان سابقاً؛ وكذا التكلم على المنابر بما ينافي تمكن الطائف والمصلي من العبادتين بحضور قلب؛ ولذا ورد في روايات الشيعة أن المهدي إذا ظهر يهدم المنابر في المسجد الحرام، وقلنا: إن المراد هو هدمه لها لو كانت موجودة كل هذا صحيح؛ ولكن لا ينبغي أن يفهم من ذلك تقديم الطواف على الصلاة حسبما رامه المعلّم؛ سيما صلاة الطواف التي هي من تبعات الطواف؛ فإنه ليس في تقديم الطائفين في الآية دلالة - لو كان فيها إشعار - على كون الطائف أحق بالبيت من المصلي.

بل لم يعلم كون الطائف أحق من المصلي لغير الطواف كالمشتغل بصلاة يومئذ بل حتى من المشتغل بالنافلة. فإنه ليس في ذكر الطائف أولاً دلالة على أحقيته من المصلي المذكور ثانياً؛ فإنه لو كانا في عرض واحد لم يكن مناص من ذكرهما متعاقبين. لا أقول: إن الصلاة والطواف متساويان في الحق؛ بل أقول: إن تقديم الطائف لا ينافي تساويه مع المصلي في الحق؛ وإطلاق المصلي في الآية يشمل المصلي نافلة فضلاً عن مصلي الفريضة لغير الطواف أو للطواف.

كما أن إطلاق الطواف في الآية يشمل الطائف ندباً وغيره ولم يفرض في الآية أن المشتغل بطواف الواجب أحق من غيره. نعم، يستفاد من النصوص - غير الآيتين - أن المشتغل بطواف الفريضة في الموسم أحق من غيره بالمطاف؛ وذلك أن المهدي عليه السلام إذا ظهر يخص المطاف بالطائف للفريضة في الموسم - على ما ببالي -.

ص: ٧٠

وكان على المعلمى - إذ كان تقديم الطائفين عنده دليلاً على تقدمهم على المصلين فى الحق - أن يعتبر ذكر الطواف من دون ذكر الحجر الأسود فى الآيتين أوضح دلالة على تقدم الطواف على استلام الحجر وتقبيله؛ وعلى أساسه فتدل الآية على وجوب تهيئة البيت للطائفين بتحويل الحجر للاستلام والتقبيل إلى خارج المطاف؛ ليمحض البيت للطائفين ويسهل الطواف لهم؛ كما دلت الآية - حسب فهم المعلمى - على جواز بل وجوب نقل المقام إلى موضع أبعد من البيت.

وأما نحن، فلا نقول بذا ولا بذاك؛ فلا أن الآية - بسبب تقديم الطائف على المصلى - تدل على جواز تأخير المقام إلى موضع بعيد من البيت فضلاً عن دلالتها على الوجوب؛ ولا أن الآية تدل - بسبب ذكر الطواف والصلاة دون استلام الحجر وتقبيله - على جواز تأخير الحجر الأسود من موضعه إلى مكان منفصل عن الكعبة المشرفة.

بل مكان الحجر الأسود والمقام هو لصق البيت حسبما تضمنته روايات أهل البيت عليهم السلام. هذا ما يخطر ببالي القاصر على ما دونه المعلمى وأقره عليه مفتى الديار السعودية الشيخ محمد إبراهيم آل الشيخ.

وقد عثرت على رسالته لآل الشيخ تضمنت الرد على رسالته لمن يسمى بـابن حمدان، وقد تضمنت رسالته ابن حمدان تحاملاً على المعلمى، ورداً عليه بأمور تُنبئ عن قصور الفهم وتعصب فى الاعتقاد وحمية لرأى؛ حتى بلغ حدّاً جاوز الأدب مرّات وتجاسر على عدة من العظماء والعلماء من أهل مذهبه، بل من هو من ساداتهم أمثال عطاء وغيره من سادات التابعين وغيرهم، فاتهم جمعاً منهم كعطاء بالكذب، واتهم مالك بن أنس بأن ما تكلم به على سبيل الظن، وقد أخطأ فيه، وصرّح بأن عبدالرزاق - صاحب المصنّف - تصرف تصرفاً محرّماً محيلاً للمعنى فى بعض نصوص المقام، وبأن النسائى متساهل، وطعن فى ابن كثير بأنه مقلد

ص: ٧١

للمؤرخين الذين لا يعرفون الصحيح من السقيم، وفى ابن حجر صاحب الفتح بأنه مقلد لابن كثير تقليداً أعمى، وغير ذلك من القدح والتحامل على أجله أرباب السير.

وقد ردّ عليه آل الشيخ فى رسالته مستقلةً بأسلوب متين ودافع عن المعلّمى ومن قبله كعطاء ومالك وعبدالرزاق بطريقة علمية. وقد غاب عن ابن حمدان أنه لو صحّ القدح فيمن قدح فيهم - وغيرهم أمثالهم - لم يبق لمذهبه عماد؛ ولا سيلم له حديث فى باب؛ ولعل الذى حمله على هذا التطرف والإفراط هو تعصبه لإمام مذهبه عمر، فأراد بذلك أن يزيل الشين عنه، حيث إن مخالفة رسول الله صلى الله عليه وآله فى صنعه وفعله ليس مما يهون والجرأة على نقض ما عمله صلى الله عليه وآله ليس بسهل ولا يسير؛ وقد رأى أن ما ذكره المعلّمى فى توجيه عمل عمر فى مخالفته لما فعله رسول الله ليس أمراً مقبولاً، فاضطرّ إلى أن يحفظ كرامة سيده عمر بالقدح فى ساير ساداته ممن هم دونه فى الفضل عند أهل السنّة.

ولكنه غفل عن أن فتح هذا الباب من القدح، والموافقة على هذا النمط من الجرح لا يبقى للمذهب من باقيه، ولا يذر للأحاديث والنصوص المروية فى كتب أهل السنّة من سالمه.

فكان توجيه فعل عمر بعد مخالفته لرسول الله صلى الله عليه وآله - ولو كان التوجيه بعيداً - ضرورةً لا مناص منها، وهو أولى من القضاء على اصول المذهب وأساسه.

فإنه لا مناص من ارتكاب أحد المحذورين: إمّا القضاء على تمام المذهب وأصله؛ أو الإلتزام بتوجيه - ولو بعيد مردود - حفاظاً على أصل المذهب، ولا ريب أن الثانى أهون.

ويا ليت ابن حمدان حيث تعصّب لما فعله عمر علم أن ما ثبت عن عمر فى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وآله - ولو فى الصورة كما ذكره المعلّمى وغيره - ليس محصوراً فى هذا المورد؛ ليردّ عليه بالإنكار، فلا محيص من قبول وقوع المخالفة لرسول الله صلى الله عليه وآله

ص: ٧٢

من عمر، ثم التكلم في توجيه ذلك وكونه مخالفة في الصورة أو في الباطن والحقيقة؛ وإلا فلو فتح لابن حمدان وأمثاله المجال في قدح من نقل عن عمر مخالفاته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسيرته وأقواله - أمثال تحريم المتعتين خلافاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وغير ذلك - لقضوا على كل سادات أهل السنة وعظماهم ولأتوا على جذور المذهب وأصوله وأساسه؛ والحكم إليك! إن قلت: ألم يقدح المعلمي في الأزرقى بل الفاكهي ممن رووا روايات تنافي مقالته؛ فابن حمدان أيضاً إنما قدح في رواة ما ينافي مقالته فهذه واحدة بواحدة.

قلت: فرق بين القدحين، فإن القدح في مثل الأزرقى لا يبطل أصل المذهب وأساسه، وهذا بخلاف القدح فيمن قدح فيه ابن حمدان. ثم إنني لا أظن أن المعلمي وآل الشيخ وغيرهما من علماء السنة لا يهتمهم الحفاظ على كرامة الخليفة عمر وصونه من أن يناله شبهة مخالفة الرسول؛ ولكن الذي حدا بهم إلى الالتزام بأن عمر هو الذي حوّل المقام إلى موضعه الفعلي خلافاً لما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وأمه وأمه؛ والعمدة منهما واحد.

والأمران هما:

الأمر الأول: ثبوت الشواهد القطعية من التاريخ والنصوص على ذلك بحيث لا يبقى للمنصف شك في هذا المجال. وهذا الأمر وإن كان ثابتاً؛ ولكنه لا يستدعي الاعتراف؛ فكم له من نظير لا يعترف به.

والأمر الثاني - وهو الذي حمل المعلمي وآل الشيخ ويحمل غيرهما أيضاً على الاعتراف بأن تحويل المقام هو فعل عمر خلافاً لما كان المقام عليه في عهد النبي صلى الله عليه وآله - هو: ما يتغونه من وراء ذلك وهو تجويز التحويل في المقام مرة أخرى، تسهياً للأمر على الحكام المتولين لأمر بيت الله وتعبيداً للطريق لهم، وأنه ليس تحويل المقام أمراً بدعاً، بعدما فعله عمر، ولا شيئاً جديداً بعد ما باشره الخليفة.

ولمّا لم يكن الأمر في ذلك يتم إلا بالاعتراف بكون المقام في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله

ص: ٧٣

على غير موضعه الحالى الذى صار بفعل عمر لم يكن لهم مناص من الاعتراف بكلا الأمرين؛ فإنه لو كان المقام فى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله فى موضعه الفعلى وكان عمر ردّ المقام إلى ذاك الموضع لم يكن فى فعل عمر تأييد لجواز نقل المقام فعلاً إلى مكان أبعد من البيت عما عليه فعلاً.

فليس اعتراف المعلّمى وأضرابه فى هذا العصر بمخالفة رسول الله صلى الله عليه وآله من عمر ثم توجيه ذلك بأنه مخالفة فى الصورة لا- فى اللب والحقيقة بل ما فعله عمر فى الحقيقة عين الموافقة لرسول الله باعتبار الغرض، ليس لأجل الاعتراف بالحقيقة؛ وإنما هو لأجل التوصل به إلى غرض آخر كما ألمحنا إليه. والله العالم بحقيقة الحال.

## فقه الجدل فى الحج

دراسة فقهية استدلالية حول مفهوم الجدل وأحكامه

(القسم الثانى)

حيدر حبّ الله

المبحث الثالث: اختصاص الحكم بالصيغتين أو الشمول لمطلق الحلف

وقع خلاف فى أنه بناءً على التقييد بالصيغة فى مفهوم الجدل، فهل الحرام هو مطلق الحلف، أم خصوص الصيغتين المذكورتين فى النصوص، وهما: لا والله، وبلى والله؟

ظاهر عبارات الفقهاء (١) ذكر الصيغتين ممّا يفيد الاختصاص، بل قيل: هو المشهور (٢)، إلا أن بعضهم كالمحقق الكركى والشهيد الأوّل وغيرهما (٣) صرّحوا بأنّ موضوع الحكم فى المسألة هو مطلق الحلف.

١- من العبارات المصرّحة كلام فخر المحققين، إيضاح الفوائد ١: ٢٩٥؛ والأردبيلي، مجمع الفائدة والبرهان ٦: ٢٩٥، وهو ظاهر السبزواري فى كفاية الأحكام ١: ٢٩٩؛ وصريح الفاضل الهندى فى كشف اللثام ٥: ٣٧٠؛ والنجفى، جواهر الكلام ١٨: ٣٦٢.

٢- المدنى الكاشانى، براهين الحج ٣: ١٣١؛ والسيد محمود الشاهرودى، كتاب الحج ٣: ١٨٢.

٣- الصدوق، المقنع ٣٣٢؛ والكركى، جامع المقاصد ٣: ١٨٤؛ والشهيد الأوّل، الدورس ١: ٣٨٦-٣٨٧؛ والشهيد الثانى، مسالك الأفهام ٢: ٢٥٨؛ والطباطبائى، رياض المسائل ٦: ٣١٤.

ص: ٧٥

أدلة القول بالاختصاص:

وقد ذكرت للاختصاص وجوه أبرزها:

الوجه الأول: ما ذكره السيد الخوئي وغيره من التمسك بصحيحة معاوية بن عمّار (الرواية الثالثة)، حيث يستفاد منها ترتب الحكم على القول المذكور خاصّة، لا على معناه أو مضمونه، ولا حتّى على مطلق اليمين أو الحلف، فيلتزم بظاهر الصحيحة (١)، بل عمّم بعضهم الاستدلال عبر القول بأنّ ظاهر النصوص تفسير الجدل بهما دون غيرهما، ولا دليل على الشمول لغيرهما (٢)، والأصل في العناوين الواردة في ألسنة النصوص هو الموضوعيّة لا الطريقيّة، إلّا بقريته (٣)، ومن ثمّ فلا دليل تعبدى على التعميم كما لا إحراز للمناط في المقام (٤).

وقد أورد المحقّق الكركي على الاستدلال بهذه الصحيحة بأنّ الحصر الوارد فيها عبر كلمة «إنّما» هو حصر إضافي لا حقيقي، إذ ورد قبله الحديث عن عدم صدق الجدل على مثل «لا لعمرى»، فلا يكون مفيداً للاختصاص التام الذي يمنع التعدي إلى مطلق اليمين (٥)، وكلامه وجيه.

الوجه الثاني: الأصل، كما ذكره المحقّق الأردبيلي وغيره (٦).

ومن الطبيعي كونه موقوفاً على عدم وجود دليل على التعميم، وإلّا فلا يصمد أمام الإمارات.

- ١- الخوئي، المعتمد ٤: ١٦٤؛ وانظر: فخر المحقّقين، إيضاح الفوائد ١: ٢٩٥، والأردبيلي، مجمع الفائدة والبرهان ٦: ٢٩٥؛ والفاضل الهندي، كشف اللثام ٥: ٣٧٠.
- ٢- المدني الكاشاني، براهين الحجج ٣: ١٣١؛ واللكراني، تفصيل الشريعة ٤: ١١٤.
- ٣- الفياض، تعاليق مبسوطة ١: ٢٢١.
- ٤- الشاهرودي، كتاب الحجج ٣: ١٨٣.
- ٥- الكركي، جامع المقاصد ٣: ١٨٣-١٨٤.
- ٦- الأردبيلي، مجمع الفائدة والبرهان ٦: ٢٩٥؛ وانظر: الفاضل الهندي، كشف اللثام ٥: ٣٧٠؛ والنجفي، جواهر الكلام ١٨: ٣٦٢.



ص: ٧٦

أدلة القول بالتعميم:

أما القول بالتعميم، فقد يستدل له بعدة وجوه أيضاً أهمها:

الوجه الأول: التمسك بصحيحة معاوية بن عمار نفسه، إذ جاء فيها بعد بيان حقيقة الجدل أنه إذا حلف الرجل بثلاثة أيمان ولاء في مقام واحد وهو محرم فقد جادل و.. وهذا ما يشهد على أن المراد بالصيغتين الإشارة بنحو المثالية إلى مطلق الحلف، لأنه رتب الحكم فيما بعد على عنوانه.

وقد أورد على هذا الوجه:

أولاً: بأنه وإن ذكرت هذه المسألة في الرواية على نحو الاستقلال إلا أنها جاءت عقيب الصدر الذي حدّد الجدل بالصيغتين، مما يعلم منه أن المراد بالحلف في الذيل هو الحلف الخاص لا- مطلق الحلف، فالذيل ليس في مقام بيان الجدل ومعناه، بل في مقام بيان التفصيل بين الكاذب والصادق (١).

إلا أن هذا الكلام قابل للمناقشة، فإذا كان الذيل في غير مقام بيان الحلف من حيث طبيعته صيغته وأنها الجدل، فإن الصدر أيضاً ليس في هذا المقام؛ لأن المفروض أن المنصرف من الجدل لغةً بإقرار الجميع هو المخاصمة، فحديث الصدر في مقام بيان الجدل بمعنى الحلف مقابل المعنى اللغوي، ومن غير المعلوم أن يكون في مقام بيان نوع الحلف، وكأن أصل كون معناه هو الحلف واضحاً، ولا أقل من الشك في كونه في هذا المقام فلا يتم الاستظهار المذكور من الرواية، ومعه فكما يحتمل قرينية الصدر للذيل يحتمل العكس أيضاً، فلا يتم القول المذكور، وإن لم تتم مناقشته.

ثانياً: لو سلمنا انعقاد الإطلاق، إلا أنه لا بد من حملها على الروايات التي فسّرت الجدل بالصيغتين على وجه الخصوص، لتقيدها بها، وبعد حمل المطلق

١- الطباطبائي، رياض المسائل ٦: ٣١٤؛ والنجفي، جواهر الكلام ١٨: ٣٦٢؛ والخوئي، المعتمد ٤: ١٦٥؛ والشاهرودي، كتاب الحجج ٣: ١٨٣-١٨٤؛ واللنكراني، تفصيل الشريعة ٤: ١١٥.

ص: ٧٧

على المقيد يكون القول بالتعميم لمطلق الحلف من الاجتهاد في مقابل النص (١).

ويجاب عنه: إنه بعد أن كانت صحيحة معاوية بن عمار معممته، فكما يحتمل التقييد، مع أنهما مثبتين، يحتمل كذلك - وبقوة - أخذ الصيغتين على نحو المثالية، فما هو المرجح - على تقدير الأخذ بإطلاق صحيح معاوية - لتقديم قريته غيره في التقييد على قريته هذا الصحيح في المثالية؟!

نعم، طرح بعض الفقهاء التعارض بطريقة أخرى، حيث جعل النسبة بين المطلق وبين مثل صحيحة معاوية بن عمار هي العموم والخصوص من وجه؛ لأنَّ الصحيحة تدلُّ بدلالة الحصر التي فيها على عدم مؤثرية غير الصيغتين، سواء كان حلفاً أو غيره، فيما المطلقات تدلُّ على المنع عن الحلف سواء كان بالصيغتين أو غيره، فيقع التعارض في الحلف بالله غير الصيغتين ويقع التسايط بمقتضى قواعد التعارض بين العامين من وجه، فيرجع إلى أصالة البراءة في مورد الاجتماع (٢).

الوجه الثاني: الاستناد إلى موثقه أبي بصير (الرواية الثامنة) المقاربة في مضمونها لذيل خبر معاوية، بتقريب أنها ترتب الحكم على مطلق الحلف دون تقييده بصيغه خاصة (٣).

ونوقشت بأن الرواية ليست بصدد بيان الجدل، بل في مقام التفصيل بين الكاذب والصادق في التعدد وعدمه، ومعه يصعب التمسك بها في المقام (٤).

الوجه الثالث: ما ذكره النراقي من أن الأصل في الألفاظ إرادة معانيها، دون خصوص اللفظ، ومعه يشمل الحكم تمام أوصاف الباري تعالى غير كلمة «والله»

١- السبزواري، ذخيرة المعاد ١، ق ٣: ٥٩٣؛ والنجفي، جواهر الكلام ١٨: ٣٦٢؛ والشاهرودي، كتاب الحج ٣: ١٨٤؛ وانظر: العاملی، مدارك الأحكام ٧: ٣٤٢؛ والبحراني، الحدائق الناضرة ١٥: ٤٦٣؛ والطباطبائي، رياض المسائل ٦: ٣١٤.

٢- الخوئي، المعتمد ٤: ١٦٥-١٦٦.

٣- المصدر نفسه: ١٦٥.

٤- اللنكراني، تفصيل الشريعة ٤: ١١٥.

ص: ٧٨

مثل الرحمن والخالق (١).

إلّا أنّ هذا الوجه تام على غير مبنى التعبدية والموقوفية في المقام، وإلّا فلا ريب في دخالة بعض الألفاظ الخاصة في العبادات، كما لا يخفى، ومعه لا يُحرز إرادة المعنى وحده، إذ لعلّ في اللفظ خصوصية.

وبهذا ظهر، أنّ أدلّة الاختصاص والتعميم مناقش فيها، عدا الأصل، والقول بأنّه على التعبدية في المقام بالمعنى الشرعي الخاص لمصطلح الجدل، لا دليل على التعميم، فيقتصر على ما جاء في النص وهو الاختصاص.

هذا كلّ مبنى على المعروف من فتوى الأصحاب، من أنّ المراد بالجدال معنى شرعي خاص، أمّا على ما تقدّم سابقاً من أنّ المراد به مطلق الخصومة والخصام والتنازع، فلا فرق فيه بين الحلف وغيره، ولا بين هذه الصيغ وغيرها.

نعم، لو التزمنا بالحلف فالخروج إلى غيره ممّا يسمّى حلفاً تسامحاً لا حقيقةً مثل «لا لعمرى» غير واضح، لعدم الدليل عليه، حينئذٍ.

المبحث الرابع: اشتراط العربية وعدمه

هل يختصّ موضوع الحلف - مطلقاً أو بالصيغتين - باللغة العربية أو يشمل غيرها؟

استشكل بعض الفقهاء في الأمر محتاطاً (٢)، بل جزم به آخرون (٣)، ومنطلق الأمر هو الوقوف على النص حيث الظاهر منه خصوص الصيغتين، وقد ورد باللغة العربية، ولا أقلّ من الشك في الشمول، فتجربى أصالة البراءة عن غير العربية، سواء كان لفظ الجلالة بالعربية دون غيره أو العكس أو كان كلّه عربياً مطلقاً (٤).

١- النراقي، مستند الشيعة ١١: ٣٨٧.

٢- المدني الكاشاني، براهين الحجج ٣: ١٣٢-١٣٣.

٣- النجفي، جواهر الكلام ١٨: ٣٦٣، مخصّصاً ذلك بلفظ الجلالة، وانظر: الفاضل اللنكراني، تفصيل الشريعة ٤: ١١٩.

٤- اللنكراني، تفصيل الشريعة ٤: ١١٩.

ص: ٧٩

إلّا أنّ الصحيح - وفقاً لمثل المحقق النراقى (١) - أنّ مثل هذه الشكوك لا ينبغي الوقوف عندها؛ إذ من الطبيعي أن يبين أهل البيت عليهم السلام الحكم باللغة العربية، وكلّ الأحكام على هذا المنوال، فالمفترض أنّه لو كان الحكم مختصاً بالعربية أن يبرزه الإمام عليه السلام، والحال أنّنا لم نجد مثل ذلك فى أى نصّ ولا حتّى فى سؤال السائلين، فالعربية هنا لا تؤخذ على نحو الموضوعيّة بل على نحو الطريقيّة، سيّما بناءً على القول بمطلق الحلف.

نعم، بناءً على التعبدية الشديدة فى هاتين الصيغتين قد يحصل شك حقيقى فى شمول هذه التعبدية حتّى لتلك اللغة التى تنطق بها الصيغتان، فمن يذهب إلى مزيد توقيفٍ فى التعامل مع هذا الموضوع من الطبيعي حصول الشك عنده، دون غيره. من هنا، وبناءً على ما تقدّم من أنّ المراد بالجدل مطلق التنازع، لا معنى لهذا

---

١- النراقى، مستند الشيعة ١١: ٣٨٧.

ص: ٨٠

البحث، حيث لا يختص الأمر ببلغةٍ دون أخرى، بل يتمسك بإطلاقات دليل تحريم الجدل للشمول لمطلق اللغات.

المبحث الخامس: شرطية «لا» و «بلى» في الصيغتين

هل يتحقق الجدل بقول: «والله»، دون إضافة: «لا» أو «بلى» أو استبدالها بغيرها مثل ما فعلت، أم لا بد من إضافة إحدى اللفظتين؟  
أ- أمّا إذا بنينا على القول بأنّ المراد بالجدال مطلق المنازعة والخصومة، فلا إشكال في عدم أخذ هذه القيود كما تقدّم، وإنّما تحمل برمتها على المثالية.

ب- وأمّا إذا قلنا بأنّ المراد به المنازعة المقرونة بهذا اللفظ أو الموقفيّة على هذا اللفظ، فقد يقال بعدم كفاية «والله»، انطلاقاً من الاقتصار على مفاد الدليل، سيّما وأن النصوص بصدد بيانه، فيكون غيره مورداً للبراءة (١).

وفي مقابل هذا القول، قد يتمسك بوجه:

أولاً: صحیحہ أبی بصیر (الروایة السابعة)؛ حيث إنّ تعليلها نفى الجدل في صورة قول أحد الطرفين لصاحبه: «والله لا تعمله»، بغير فقدان جزء من الصيغة، دليل واضح على أنه لولا إرادة الإكرام لثبت الجدل بمطلق «والله»، وإلا لعل الأمر بفقدان الصيغة بشكلها التام (٢).

لكن هذا الكلام أورد عليه:

أ- بأنّه يمكن أن يكون في هذا الفرض مانعان: أحدهما عدم توقّف الصيغة بصورة صحیحہ، وثانيهما صورة الإكرام، فأراد الإمام عليه السلام بيان أحد المانعين؛ لكفايته في هذا المورد، وليس من الواجب بيان الخلل الثاني الموجود في الصورة المفروضة (٣).

ب- إن الصحیحہ ليست في مقام بيان الحلف بأي صيغة، وإنّما هي في مقام بيان نفى البأس عن الحلف التكريمي، فلا يصحّ التمسك بإطلاقها من تلك الجهة.

١- الخوئي، المعتمد ٤: ١٦٧-١٦٩؛ والمدني الكاشاني، براهين الحج ٣: ١٣٢؛ والفاضل، تعاليق مبسوطه ١٠: ٢٢٣؛ واللنكراني، تفصيل الشريعة ٤: ١١٤، ١١٧-١١٩.

٢- أنظر: النجفي، جواهر الكلام ١٨: ٣٦٣.

٣- المدني الكاشاني، براهين الحج ٣: ١٣٢؛ وانظر: الشاهرودي، كتاب الحج ٣: ١٨٥، ١٨٦.

ص: ٨١

ثانياً: ما ذكره صاحب الجواهر من أنّ صيغة القسم في هذه الجملة هي لفظ الجلالة، أما ما يسبقها فهو المقسوم عليه، فلا دخل له بحقيقة القسم، فيجوز وجوده وعدمه، ويجوز أن يكون بغير العربية أيضاً (١).

لكن هذا الكلام يجرى على غير مبنى خصوصية الصيغتين، مع رفض مطلق الحلف أو مطلق المخاصمة، أمّا على هذا المبنى، فيصعب الخروج من حرفية الصيغة؛ لأنّه من غيرالمعلوم أن يكون الحلف هو المقصود حتى نجعل المعيار عليه دون على ما قبله من المقسوم عليه، فلعلّ المقصود تركيب الجملتين، وفق هذا المبنى.

المبحث السادس: الحلف الصادق والكاذب

هل يشترط في ترتيب آثار الجدل أن يكون الحلف (مطلقاً أو المخصوص بالصيغتين) كاذباً أم يشمل الحلف الصادق أيضاً؟ ذهب بعضهم إلى الشمول (٢)، وبعضهم إلى الاختصاص.

ظاهر بعض النصوص الشمول لصورتى الكذب والصدق غايته التفريق بينهما في الكفارة، مثل خبر أبي بصير وابن عمار وأبان بن عثمان عن أحدهما (الرواية الثامنة والتاسعة والعاشر)، بل في صحيحه محمد بن مسلم (الرواية الحادية عشرة) ثبوت الكفارة على المجادل صادقاً أيضاً، غايته أنّ كفارة الكاذب بقرة، فيما كفارة الصادق شاء، إلّا إذا قيل بعدم الملازمة بين الكفارة والحرمة. نعم، في صحيحه يونس بن يعقوب (الرواية الثانية عشرة) ورد أنّه ليس على من جادل صادقاً شيء، إلّا أنّ الظاهر منها أنّها في مقام الحديث عن الكفارة، لا عن أصل الجدل.

من هنا، فالظاهر شمول الحكم للصادق والكاذب، بل هو مقتضى إطلاق بقية

١- النجفي، جواهر الكلام ١٨: ٣٦٣.

٢- الصدوق، المقنع: ٣٢٢؛ وابن سعيد الحلّي، الجامع للشرائع: ١٨٤؛ والكلبي يگانی، تقريرات الحج ١: ١٩٦.

ص: ٨٢

النصوص سيما التى فى مقام البيان من هذه الجهات، كما أن مقتضى القول بأن المراد بالجدال مطلق المخاصمة لا فرق بين الصدق والكذب، حيث يستفاد من اللغة ومن إطلاق الآية ذلك أيضاً.

لكن على القول بخصوصية الصيغة، قد يمكن تخصيص الحكم بالكاذب لوجوه:  
أولاً: التمسك بأصالة البراءة فى الصادق.

وجوابه واضح، فإنه بعد وجود الدليل المحرز لا مجال للأخذ بالأصل العملى (١).  
ثانياً: التمسك بقاعدتى نفى الحرج والضرر.

وهذا واضح الدفع، إذ لا يحرز وجود حرج نوعى فى هذا المجال، فى مدّة بسيطة هى فترة الإحرام، كيف وسائر المحرمات الإحرامية يلزم منها ذلك إذا قيل به هنا، وخروج حالة الحرج والضرر الشخصى لا تستلزم تغيير الحكم أساساً، كما هى الحال فى سائر الأحكام الشرعية.

فالصحيح الشمول للصادق والكاذب مطلقاً.

المبحث السابع: إختصاص الحكم بوجود مخاطب وعدمه

هل قول: لا والله، وبلى والله من غير أن يوجه إلى أحد محقق للجدال المحرم فى الحج أم لا بدّ من فرض حوار أو حديث جرى فيه التلطف بالكلمة المذكورة؟

صريح بعض الكلمات الاختصاص بمخاطبة الغير (٢).

أ- أمّا على الاحتمال الأول من الاحتمالات الخمسة المتقدمة، وهو حصر الجدل بهذه الصيغة دون علاقة للخصومة، فإن ظاهر جملة من الروايات المحددة لمفهوم الجدل على هذا المبنى، الإطلاق من هذه الجهة، كصحيحة معاوية بن عمار،

١- الشاهرودى، كتاب الحج ٣: ١٨٧.

٢- راجع: العلامة الحلى، تحرير الأحكام الشرعية ٢: ٣٥؛ وتذكرة الفقهاء ٧: ٣٩٣.

ص: ٨٣

وصحيحة على بن جعفر وغيرهما، حيث لم تقيد بوجود حوار بين طرفين.

إلا أن مقتضى الجمع والضم للنصوص ظهورها في أن هذه الجملة قد قيلت لطرف آخر لا بين الإنسان ونفسه، فإن مناسبات الحكم والموضوع، وطبيعة مثل هاتين اللفظيتين هو كونهما في سياق حوار لا مطلقاً، ومجرد السكوت عن هذه المسألة وعدم ذكر قيد لا يدل على انعقاد إطلاق، ما دامت هذه القضية بنفسها تصرف الذهن إلى صورة حوار أو كلام بين طرفين، ولا أقل من عدم الظهور في غير ذلك.

والغريب ما ذهب إليه بعضهم من أخذ الخصومة في الجدل، ثم القول: إن مطلقات النصوص لا تستدعي كونه موجهاً إلى أحد، مستدركاً ذلك بفرضية الانصراف (١)، مع أنه كيف يتحقق مصداق الخصومة ثم يكون الحلف غير موجّه إلى أحد، إلّا على افتراض عقلي غير عرفي أبداً.

ب- وأما على الاحتمال الثاني، وهو صيرورة الجدل ذا فردين: أحدهما واقعي هو النزاع والآخر تعبدي هو الحلف، فيرجع فيه الكلام إلى ما تقدّم في الاحتمال الأول؛ لو حده المورد والمناط.

ج- وأما على الاحتمال الثالث، وهو كون هاتين الصيغتين تعبيراً عن اشتداد الخصام، أو الاحتمال الرابع وهو كونهما كناية عن أبسط أنواع الجدل والخصام، أو الاحتمال الخامس وهو الخصومة المرفقة باليمين، فمن الواضح اشتراط صدق الجدل بوجود طرف ثانٍ، لأخذ الخصومة في هذه الاحتمالات الثلاثة جميعها.

د- وأما على القول بالمفهوم اللغوي البحت فالأمر واضح جداً، إذ يتقوم هذا التفسير للجدال المحرم بوجود طرفٍ ثانٍ كما صار واضحاً.

فالأقرب اشتراط توجه الخطاب والجدال إلى طرفٍ ثانٍ على تمام المباني في المسألة.

١- الشاهرودي، كتاب الحجج ٣: ١٨٢، ١٨٦.



ص: ٨٤

المبحث الثامن: اشتراط المعصية في الجدل المحرّم وعدمه

هل يشترط في تحقّق الجدل المحرّم كونه وقع في معصية أم مطلقاً؟

ظاهر النصوص والآية على تمام التفاسير المحتملة هو الشمول لصورة المعصية وعدمها؛ إذ هي مطلقه غير مقيدة بقيد رغم تعددها. نعم، ورد في خبر زيد الشحام (الرواية الرابعة) تفسير الجدل بالصيغتين وبسبب الرجل للرجل، ممّا يعنى أنّ أحد فرديه معصية حيث يُبنى على حرمة السباب، لكن هذه الرواية لا تقيد الشكل الأوّل للجدل وهو الصيغتين - مهما فسّرناهما - بصورة المعصية، كما هو واضح، فيبقى التمسك بالإطلاق سارياً، ونحو هذا الخبر - بل أخف منه دلالةً - خبر إبراهيم بن عبد الحميد (الرواية الثالثة عشرة)، مع أنّ هذين الخبرين ضعيفا السند، كما مرّ.

والمقيد الوحيد في المقام هو صحيحة أبي بصير (الرواية السابعة) حيث حصرت - بصيغة الحصر (إنّما) - مسألة الجدل بما إذا كان لله فيه معصية، أمّا غيره كصورة إكرام الأخ فيجوز.

وقد ذهب بعض الفقهاء (١) إلى إخراج بعض أنواع الجدل بطريقة أخرى، حاصلها أنّ الجدل المحرّم يخرج عنه موردان: المورد الأوّل: أن يكون لإثبات حقّ أو إبطال باطل أو لحفظ النفس أو حفظ المؤمن، ويلوح منه أن مدرك هذا الاستثناء هو الضرورة، ومن ثمّ فلا ينبغي إفراده هنا بهذه الطريقة بل ينبغي القول - كما في أيّ حكم شرعي آخر -: إنّ هذا الحكم سارى المفعول إلّا إذا طرأ عنوان ثانوى حاكم مثل الضرورة، أو الحرج، أو الضرر، أو نحو ذلك، فلا خصوصية لإحقاق الحقّ و...

١- الفياض، تعاليق مبسوطه ١٠: ٢٢٢؛ والشاهرودى، كتاب الحجج ٣: ١٨٨؛ وانظر: مدارك الأحكام ٧: ٣٤٢؛ والشهيد الأوّل، الدروس الشرعية ١: ٣٨٧؛ والشهيد الثانى، الروضة البهية ٢: ٢٤٠؛ ومسالك الأفهام ٢: ٢٥٨؛ والبهاى، جامع عباسى: ١١٧؛ والفاضل الهندى، كشف اللثام ٥: ٣٧١؛ والبحرانى، الحدائق الناضرة ١٥: ٤٦٩؛ والطباطبائى، رياض المسائل ٦: ٣١٤؛ والنراقى، مستند الشيعة ١١: ٣٨٦.

ص: ٨٥

وقد استدلل بعض الفقهاء على إخراج صورة الجدل لإحقاق الحق في القضايا العقائدية ونحوها مما يرجع إلى الدين، لا القضايا الشخصية .. بانصراف الأدلة عن مثل ذلك (١).

إلا أنه لم يظهر الوجه في هذا الانصراف ما دامت النصوص مطلقة في حد نفسها، ولا شاهد على إخراج الجدل في قضايا الدين، ولم نفهم مبرر الانصراف، وليس هناك كثرة استعمال أو كثرة وجود و...، فالصحيح إطلاق النصوص الشامل لمطلق الجدل في الدين وغيره، سواء فسرناه بالمعنى اللغوي أو غيره.

المورد الثاني: أن يكون الحلف لإكرام المؤمن واحترامه وتعظيمه.

والمدرک الذي ذكر هنا لهذا الاستثناء هو:

أ- صحيحة أبي بصير (الرواية السابعة)، حيث جاء فيها: إنما أراد بهذا إكرام أخيه، وهذا ما يستفاد منه أن إكرام الأخ يجوز في مورد الحلف.

والأصح في التعامل مع صحيحة أبي بصير عدم الاقتصار على إكرام الأخ، ذلك أن الرواية إنما ذكرت ذلك بمناسبة طبعه سؤال السائل، وإلا فهي صرحت في خاتمتها بحصر الحكم بالحرمة بما كان لله فيه معصية، مما يعني أن الحلف الذي لا يقع في سياق معصية جائز، ولا يكون مشمولاً لحكم الحلف أو الجدل في الحج، فلا ينبغي الاقتصار في الاستثناء.

وقد حاول بعض الفقهاء تفسير المعصية هنا بالجدل نفسه أي الصيغتين بشروطهما، لا وقوع الجدل في سياق معصية كالكذب والغيبة ونحوهما (٢)، لكنّه غير واضح، فإن الظاهر أن الحديث عن وقوع الكلام في سياق الإكرام الذي قابلته الرواية بسياق المعصية، لا أن هذه العبارة هي معصية وتلك إكرام كما هو واضح.

ب- اقتران مفهوم الخصومة بالجدل الشرعي، فإذا بُنى على هذا الاقتران، لم

١- اللنكراني، تفصيل الشريعة ٣: ١٣١-١٣٢.

٢- اللنكراني، تفصيل الشريعة ٤: ١٣٢.

ص: ٨٦

يعد يمكن شمول الحكم لغير مورد الخصومة (١).

وهذا المدرك يختلف في طبيعته عن غيره، فإن نتيجه - لو بقي لوحده - استثناء ما لم يكن فيه خصومه سواء كان فيه معصية أم لم يكن، على خلاف النتيجة التي خرجنا بها من صحيحة أبي بصير، حيث صار الاستثناء لكل ما ليس فيه معصية سواء كانت فيه الخصومة أم لم تكن؛ فالنسبة بين النتيجتين هي العموم والخصوص من وجه.

من هنا، فمن تمسك بهما معاً في مسألة الإكرام - كالسيد الشاهرودي - يلزمه أخذ القدر المتيقن الجامع بينهما، وهو الجدل بالصيغة مع خصومه في غير معصية، وهذا هو الصحيح بناءً على ما ذكرناه سابقاً، نعم، لو بنينا على محض المعنى اللغوي للجدال، كان حراماً في غير معصية، سواء حصلت الصيغة الخاصة أم لا، أما الخصومة فتدخل في المعنى اللغوي حينئذ.

المبحث التاسع: الاكتفاء بإحدى الصيغتين

هل يتوقف تحقق الجدل على التلفظ بالصيغتين معاً أم تكفي واحدة منهما؟

قد يلتزم بكفاية إحدى الصيغتين - كما ذهب إليه مثل النجفي والمدارك وكشف اللثام (٢) و... - وذلك لوجه:

الأول: ذهب بعض الفقهاء إلى أن الظاهر من الروايات كفاية تحقق إحدى الصيغتين، سيما وأنه لا إشارة في أي رواية إلى عدم تحققه بواحدة من الصيغتين،

١- الشاهرودي، كتاب الحج ٣: ١٨٦.

٢- انظر: الخوئي، المعتمد ٤: ١٦٧؛ والنجفي، جواهر الكلام ١٨: ٣٦٤؛ والعاملي، مدارك الأحكام ٧: ٣٤٢؛ والعلامة الحلي، تحرير الأحكام الشرعية ٢: ٦٩؛ وتذكرة الفقهاء ٨: ٢٧؛ والأردبيلي، مجمع الفائدة والبرهان ٦: ٢٩٦؛ والسبزواري، ذخيرة المعاد: ٥٩٣؛ والجزائري، التحفة السنية: ١٨٢؛ والبحراني، الحدائق الناضرة ١٥: ٤٦٢-٤٦٣؛ والخوانساري، جامع المدارك ٢: ٤٠٦؛ والكليني، تقريرات الحج ١: ١٩٥-١٩٦؛ والنراقي، مستند الشيعة ١١: ٣٨٧.

ص: ٨٧

فيتمسك بهذا الظهور (الإطلاقي) لإثبات الحرمة لهما (١).

إلا أن هذا الكلام غير واضح على مسلك من يرى التوقف والتعديّة بالصيغتين، إذ مع ضمّهما إلى بعضهما في أكثر من رواية كيف يمكن التأكيد من كفاية واحدهٍ منهما، نعم على مسلك من يرى الجدل مطلق المخاصمة أو ما شابه ذلك مثل تعميمه إلى مطلق اليمين لأضير عليه في الالتزام بذلك؛ لا لأنّ الروايات ظاهرة في التفكيك بل لعدم البناء على التعديّة والتوقف فيما جاء في ألسنتها. الثاني: إنّ التأمّل في الصيغتين كفيلاً لوحده في الجزم بعدم أخذهما معاً، فإن المتكلم لا يتلفظ بهما، إذ أخذهما معاً أخذ للمتناقضين، «فبلى والله» جملة مثبتة موجبة، فيما «لا والله» جملة نافية، ولا يمكن للإنسان الحلف لإثبات شيء ونفيه معاً، وهذا خير دليل على أنّ الصيغتين مأخوذتان على نحو الانفصال لا الاتصال (٢).

وهذا كلام وجيه ودقيق، إلّا إذا قيل بأنّ النفي يتوجّه لما قاله الخصم والإثبات لما قاله هو نفسه (٣)، وهو غير ظاهر عرفاً. الثالث: إنّ الروايات المفصلة بين الحلف الصادق والكاذب يستفاد منها أنّ موضوع الحكم هو الحلف، ولو بصيغة خاصة، ولا شك في أنّ الحلف يصدق على كلّ منهما حتى لو لم ينضمّ إليه الآخر، فيكفي أحدهما (٤). إلّا أنّ هذا الوجه قابلٌ للمناقشة؛ فإن أخذ الحلف موضوعاً للحكم، ولو بصيغة خاصة، يستبطن احتمال كون هذه الصيغة هي مجموع الجمليتين، فكيف تمّ

١- الفياض، تعاليق مبسوطه ١٠: ٢٢٣؛ والخوانساري، جامع المدارك ٢: ٤٠٦.

٢- الشاهرودي، كتاب الحج ٣: ١٨٧؛ والخوئي، المعتمد ٤: ١٦٧؛ والفياض، تعاليق مبسوطه ١٠: ٢٢٣؛ والبحراني، الحدائق الناضرة ١٥: ٤٦٣؛ والراقي، مستند الشيعة ١١: ٣٨٧.

٣- الكلبيكاني، تقارير الحج ١: ١٩٦.

٤- الخوئي، المعتمد ٤: ١٦٧.

ص: ٨٨

القفز من هذا الاستبطان إلى الاكتفاء بإحدهما؟! وكيف عرفنا أن الصيغة الخاصة ليست مجموع العبارتين وإنما إحدهما؟!!

المبحث العاشر: إختصاص الحكم بالجملة الخبرية أو الشمول للإنشائية

هل يختص الحكم بالجملة الخبرية أو يعم الجملة الإنشائية؟

ذكر السيد الخوئي أنه لم ير من تعرض لهذا الموضوع قبله، ذاهباً إلى أن الظاهر من الروايات عدم شمول الحكم للحلف في الجملة الإنشائية، والوجه في هذا الأمر أن مثل صحيحة معاوية فضيلت بين الصادق من الجدل والكاذب، ومعنى ذلك أن الحلف الممنوع يجرى في حالة يصدق فيها عنوانا: الصدق والكذب، وبما أن مفهوم الصدق والكذب من شؤون الجملة الخبرية لا الإنشائية، نستفيد من ذلك اختصاص الحكم بمورد الإخبار دون غيره.

وبهذا السبيل فسّر السيد الخوئي معتبرة أبي بصير الواردة في إكرام الأخ، إذ فهم منه مجرد وعد للمؤمن، فلا تكون فيه معصية. وعبر ذلك، ذهب المحقق الخوئي إلى عدم شمول الحكم للحلف الوارد في التعارفات الدارجة بين الناس؛ لعدم صدق الإخبار عليها، وبهذا يكون إخراجها على نحو التخصص لا التخصيص (١).

وقد تابع السيد الخوئي في أصل فكرته هنا بعض تلامذته (٢).

ويعلق على هذا الكلام:

أولاً: إن الروايات - غير معتبرة أبي بصير الواردة في إكرام الأخ - تتحدث عن تحقق الجدل والكفارة في مورد الصدق والكذب، لكنها لا تنفي الجدل في مورد لا يكون فيه صدق وكذب، ومبرر التركيز على حالتى الصدق والكذب موجود، وهو أن الجدل بالمعنى اللغوي - وكذا بالمعنى الشرعي الخاص الذي اختاره بعض

١- الخوئي، المعتمد ٤: ١٦٦-١٦٧.

٢- الفياض، تعاليق مبسوطه ١٠: ٢٢٢.

ص: ٨٩

الفقهاء - يقع في الأغلبية الساحقة من مصاديقه في سياق الإخبار لا الإنشاء، فإن سياقات الإنشاء قليلة جداً نسبة للإخبارات في هذا المجال، لذا كان من الطبيعي أن يتركز الحديث عليها، دون نفى لغيرها، وسيأتي تعليق ختامى.

ثانياً: إن معتبره أبى بصير بينت أن العلة في سقوط الحكم هو الإكرام، وهذا كما يحتمل أن يكون بملاك كون الإكرام منفصلاً عن الإخبار، كذا يمكن أن يكون بنفسه ملاكاً بقطع النظر عن مسألة الخبرة والإنشائية، فلو فرضنا أن الحكم شامل لصورتى: الإخبار والإنشاء، لكن مسألة الإكرام أو عدم المعصية دخيلة في سقوط الحكم لكان يصح هذا القول الموجود في صحيحة أبى بصير، إذاً فلا تمثل الصحيحة دليلاً لصالح مسألة الإخبار والإنشاء، سيما وأن المأخوذ في لسانها مسألة المعصية والإكرام، فإدعاء الاستطراق منهما إلى غيرهما مع كونهما ممّا من شأنهما دوران الحكم مدارهما يحتاج إلى قرينة إضافية، وهي غير موجودة.

فالصحيح أن الحكم شامل لصورتى الإخبار والإنشاء، إلماً أنه إذا بنينا على المعنى اللغوى للكلمة طبقاً لنص الكتاب العزيز يمكن أن يدعى أن كلمة الجدل التى تستبطن الخصومة يفهم منها عرفاً صورة الخلاف على قضية، ممّا يغلب جداً فيه حالة الإخبار، بحيث يلحق غيره بالعدم لشدة ندرته، فلا يبعد حينئذٍ تخصيص الحكم بذلك، تبعاً لما تنصرف إليه الكلمة بين الناس.

ص: ٩٠

هذا تمام الكلام فى مباحث فقه الجدل فى الحج، أما الكفارة فتدرس فى مباحث كفارات تروك الإحرام على حدة، فلا نتعرض لها هنا، ويجب أن يعرف نهايةً أنّ الجدل كما فسّرناه بمعنى النزاع والخصومة لا يشمل الحوار والحوارات العلميّة والفكريّة و... الهادئة حتّى لو لم نأخذ الصيغتين بعين الاعتبار، فلا ينبغى الخلط بين مفهوم الجدل فى اللّغة العربيّة وبين مفهوم الحوار الهادئ الذى يضارعه فى المصطلح القرآنى الجدل بالتى هى أحسن من بعض الوجوه.

وطبقاً لمجمل ما توضّينا إليه، نجد أن القرآن الكريم طلب فى الحج تجنّب تمام الصراعات والمجادلات والمنازعات الصاخبة بمختلف أشكالها سواء جاء معها حلف أم لا، على بعض المباني، وسواء جاءت الصيغة الخاصّة أم لا، على مباني أخرى؛ فالحجّ مظهر التآلف والتوادد وترك الخصومات والمنازعات.

هذا ما فهمناه من هذا البحث، واللّهُ العالم بحقيقته أحكامه.

## حكايات من مكة المكرمة

الشيخ رضا أستاذى

قد وفتت فى المدينة المنورة لمطالعة قسم من كتاب «إتحاف الورى بأخبار أم القرى»، لمحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد القرشى الهاشمى المكى المشتهر بعمر بن فهد (٨٨٥-٩١٢ هـ) المطبوع بمصر فى خمسة مجلدات فى سنة (١٤٠٥ هـ) واختيار بعض الحكايات والوقائع البديعة منه، وإليك ما اخترناه بترتيب السنين الهجرية القمرية. قال:

مقام إبراهيم:

سنة ١٧- فيها جاء سيل عظيم فدخل المسجد الحرام، واقتلع مقام إبراهيم وذهب به من موضعه حتى وجد بأسفل مكة وعفى مكانه الذى كان فيه عفاه السيل، فأتى به فربط بلسق الكعبة بأستارها فى وجهها... فدخل عمر بعمرة فى شهر رمضان، فقال: انشد الله عبداً عنده علم فى هذا المقام، فقال المطلب بن أبى وداعة السهمى: أنا يا أمير المؤمنين عندى ذلك، فقد كنت أخشى عليه هذا، فأخذت قدره من موضعه إلى الركن ومن موضعه إلى باب الحجر ومن موضعه إلى



ص: ٩٢

زمزم بمقاط وهو عندى فى البيت... فأتى بها فمدّها فوجدها مستوية إلى موضعه هذا اليوم وذلك كان فى سنة ثمان عشرة. وفيها وسّع عمر بن الخطاب المسجد بدور اشتراها، وهدم على من أبى البيع، وترك ثمنها لأربابها فى خزانه الكعبة حتى أخذوها بعد. توسع المسجد الحرام:

سنة ٢٦- فيها اعتمر عثمان، وأمر بتوسيع المسجد الحرام، فوسّع بدور اشتراها ودور هدمها على من أبى البيع وترك ثمنها لأربابها فى خزانه الكعبة، وأمر بهم فحبسوا وقال: قد فعل ذا بكم عمر فلم تصيحوا به، فكلّمه عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم. أول من خطب...:

سنة ٤٤- فيها قدم من الشام منبر صغير على ثلاث درجات، فخطب عليه معاوية، وهو أول من خطب بمكة على منبر، وكانت الخلفاء والولاة يخطبون يوم الجمعة على أرجلهم قياماً فى وجه الكعبة وفى الحجر. سيل عظيم:

سنة ٨٠- أتى سيل عظيم كان يحمل الإبل عليها الأحمال والرجال والنساء مالأحد فيه حيلة ودخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة، وبلغ الركن، وخزّب دوراً كثيرة شارعة على الوادى، وقتل الهدم ناساً كثيراً، ورقى الناس الجبال واعتصموا بها... وفى سنة ٨٤ و ١٨٤:

وفى سنة ٨٤ وأيضاً ١٨٤- وقع سيل عظيم دخل المسجد الحرام وأحاط بالكعبة، وأصاب الناس عقبه مرض شديد فى أجسامهم وألسنتهم، أصابهم منه

ص: ٩٣

مثل الخبل...

تفريق الرجال والنساء في الطواف

سنة ٩٣- كان الرجال والنساء يطوفون معاً مختلطين، حتى ولّى خالد بن عبد الله القسرى بمكة، ففرق بين الرجال والنساء في الطواف، فأجلس عند كلّ ركن حرساً معهم السياط، فيفترقون بين الرجال والنساء، وهو أوّل من فرّق بينهما.

لعن الله السياسة الكاذبة

وكان خالد في إمرته على مكة في زمن الوليد بن عبد الملك يذكر الحجاج (لأنه كان سبباً لإمرته على مكة) في خطبة في كلّ جمعة إذا خطب ويقرّظه، فلما توفّى الوليد وبويع لسليمان بن عبد الملك أقرّ خالداً على مكة، وكتب إلى عماله فأمرهم بلعن الحجاج بن يوسف، فلما أتاه الكتاب قال: كيف أصنع؟ كيف اكذب نفسي في هذه الجمعة بذمه وقد مدحته في الجمعة التي قبلها؟ ما أدرى كيف أصنع؟

فلما كان يوم الجمعة خطب الناس ثم قال في خطبته:

أما بعد أيها الناس إنّ إبليس كان من ملائكة الله في السماء وكانت الملائكة ترى له فضلاً بما يظهر من طاعة الله وعبادته، وكان الله عزوجل قد اطلع على سريرته، فلما أراد أن يهتكه أمره بالسجود لآدم عليه السلام فامتنع فلعنه، وإنّ الحجاج بن يوسف كان يظهر من طاعة الخلفاء ما كنا نرى له في ذلك فضلاً وكنا نركيه وكان الله قد أطلع سليمان أمير المؤمنين من سريرته وخبث مذهبه على ما لم يطلعنا عليه، فلما أراد الله تبارك وتعالى هتك ستر الحجاج أمرنا أمير المؤمنين سليمان بلعنه فالعنوه لعنه الله.

اشترى الدور التي كانت في المسجد والمسعى

سنة ١٦١- فيها اشترى قاضي مكة بأمر من المهديّ (العباسي) جميع ما كان في المسجد والمسعى من الدور، فما كان منها صدقة عزل ثمنه واشترى هو لأهل

ص: ٩٤

الصدقة بثمن دورهم مساكن في فجاج مكة عوضاً من صدقاتهم، فاشترى كل ذراع في ذراع مكسراً مما دخل في المسجد بخمسة وعشرين ديناراً، وما فضل من الوادي بخمسة عشر ديناراً....

شهاد الفخ

سنة ١٦٩- فيها قتل الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب الحسنى يوم الترويه في أزيد من مائة نفر من أصحابه...

آخر حج الخلفاء

سنة ١٨٨- فيها حج بالناس هارون الرشيد، وهي آخر حجة حجة في قول بعضهم، وآخر حجة حجة خليفه والى وقتنا هذا. (القرن التاسع).

سيل والمقام والركن

سنة ٢٠٨- فيها في سؤال جاء سيل عظيم والناس غافلون... وأحدق بالكعبة وبلغ الحجر الأسود والباب، وذهب بناس كثير وهدم دوراً كثيرة مشرفة على الوادي، أكثر من ألف دار، ومات نحو ألف إنسان، ورفع المقام من موضعه خوفاً عليه من ذهابه...

سنة ٢٤٠- قال محمد بن جرير الطبري في سنة ثلاثمائة: كنت في مكة سنة أربعين ومائتين (وهو شاب) فرأيت خراسانياً ينادى: معاشر الحاج من وجد هيماناً فيه ألف دينار فردّه عليّ أضعف الله له الثواب، فقام إليه شيخ من أهل مكة كبير من موالى جعفر بن محمد (من الشيعة ظ) فقال: يا خراسانى! بلدنا فقير أهله، شديد حاله، أيامه معدودة ومواسمه منتظرة، لعله يقع بيد رجل مؤمن يرغب فيما تبذله له حالاً يأخذه ويردّه عليك. قال الخراسانى: بابا (كلمة فارسية ظ) وكم يريد؟ قال: العشر مائة دينار فقال: لا بابا ولكن نحيله على الله عزوجل قال وافترقا.

ص: ٩٥

قال محمد بن جرير: فوق لي أن الشيخ صاحب القريحة هو الواجد للهميان فاتبعته - وكان كما ظننت - ونزل إلى دار خلقه الباب والمدخل، فسمعتة يقول:

يا لبابة! قالت له: لبيك يا أبا غياث قال: وجدت صاحب الهميان ينادى عليه مطلقاً فقلت له: قيده بأن يجعل لواجده العشر فقال: لا والله ولكننا نحيله على الله فأى شيء نعمل؟ ولا بد لي من رده فقالت له لبابة: نقاسى الفقر معك منذ خمسين سنة ولك أربع بنات واختان وأنا وأمي وأنت تاسع القوم أشبعنا واكسنا ولعل الله يغنيك فتعطيه أو يكافئه عنك ويقضيه. فقال لها: لست أفعل ولا احرق حشاشتي بعد ست وثمانين سنة بالنار.

فلما كان من الغد على ساعات من نهار، سمعت الخراساني يقول: معاشر الحاج ووفد الله من الحاضر والباد! من وجد همياناً فيه ألف دينار وردّه أضعف الله له الثواب، فقام إليه الشيخ فقال له: يا خراساني! قد قلت لك بالأمس ونصحتك وبلدنا والله بلد فقير قليل الزرع والضرع، وقد قلت لك أن تدفع إلى واجده مائة دينار فلعله أن يقع بيد من يخاف الله فقلت: لا فالآن أقول لك: هل تدفع لواجده عشرة دينار فيرده عليك ويكون له في العشرة دنائير ستر وصيانته؟ فقال الخراساني: بابا لا نفعل، ولكن نحيله على الله عزوجل ثم افترقا.

قال محمد بن جرير الطبري فلما كان من الغد سمعت الخراساني ينادى ذلك النداء بعينه فقام إليه الشيخ فقال له: يا خراساني! قلت لك أول أمس العشر منه وقلت لك أمس عشر عشره فاعطه الآن ديناراً عشر عشر العشر...

قال: بابا لا - نفعل، ولكن نحيله على الله. قال فجذبه الشيخ وقال له: تعال إلى داري خذ هميانك ودعني أنام الليل وأرحنا من محاسبتك وظلمك، فمشى الشيخ وتبعه الخراساني فتبعتهما فدخل الشيخ وقال: ادخل يا خراساني، فدخل ودخلت، فلما أخذ الهميان وأراد الخروج من دار الشيخ فلما بلغ باب الدار تأمل أمر الشيخ الخراساني فرجع وقال له: يا شيخ مات أبي رحمه الله وترك ثلاثة آلاف دينار وقال

ص: ٩٦

لى: اخرج ثلثها ففرقه على من هو أحقّ الناس عندك وتبيع رحلى واجعله نفقةً لحجّك ففعلت ذلك، وأخرجت ثلثها ألف دينار وشدتها في هذا الهميان، وما رأيت منذ خرجت من خراسان إلى هاهنا رجلاً أحقّ به منك، فخذه بارك الله لك فيه ثم ولى وتركه...

سنة ٢٥٣- جاء سيل إلى مكة المشرفة وأحاط بالكعبة وبلغ قريباً من الركن الأسود ورمى بالدور بأسفل مكة وذهب بامتعة الناس وخرّب منازلهم...

ترك الحجّ للخوف من الظالم

سنة ٣١٢- لم يحجّ في هذه السنة أحد..

سنة ٣١٣- لم يحجّ أحد في هذه السنة، خوفاً من القرمطى...

سنة ٣١٥- فيها لم يحجّ أحد من العراق ولا من خراسان، للخوف من القرمطى.

سنة ٣١٦- فيها لم يحجّ أحد من العراق؛ للخوف من القرمطى...

سنة ٣٢٣- فيها بطل الحجّ من بغداد؛ لاعتراض القرمطى لهم في الطريق فيما بين القادسيّة والكوفة واستيلائه على أمتعة الناس وأحمالهم...

أخذ المكس (باج) لسفر الحجّ

سنة ٣٢٧- كان الحجّ قد بطل من سنة ٣١٧ إلى هذه السنة، فكاتب أبو عليّ عمر بن يحيى العلويّ الفاطمي من العراق أبا طاهر القرمطى، وكان يحبه لشجاعته وكرمه أن يخلى سبيل الحاجّ على مكسٍ يأخذه ويعطيه على كلّ جمل خمسةً دنانير وعن المحمل سبعةً دنانير، فأجابته إلى ذلك فخرج من العراق فرقتان: إحداهما على طريق الكوفة، والآخرى على طريق البصرة، وأخذ أبو طاهر منهم من كلّ محمل عشرين ديناراً، ومن كلّ جمل خمسةً دنانير، ومن كلّ راحلة عشرين درهماً، وهى أوّل سنة مكس الحاجّ فيها، ولم يعهد ذلك في الإسلام فنقد الحاجّ وليس

ص: ٩٧

معهم أحد من أصحاب السلطان إلّا رجل علويّ من أهل الكوفة، وهو أبو عليّ عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بكتاب القرمطى إليه وذمامه، وكان أمير القافلة يسرون بسيره وينزلون بنزوله إلى أن عادوا سالمين. وكان خرج في هذه السنة مع الركب القاضي أبو عليّ بن أبي هريرة الشافعي، فلما طولب بالخفارة- اسم مكان- لوى رأس راحلته، ورجع، وقال: لم أرجع شحاً على الدراهم، ولكن سقط الحجّ بهذا المكس.

الحجر الأسود

سنة ٣٣٩- فيها أعاد القرمطى الحجر الأسود في مكانه... وكانت مدة كينونته عند القرامطة اثنين وعشرين سنة إلّا أربعة أيام...

قصّة تخريب الركن الأسود

سنة ٣٦٣- فيها بينما الناس في وقت القيلولة وشدة الحرّ وما يطوف إلّا رجل أو رجلان، فإذا رجل... دنا من الركن الأسود ولا يعلم ما يريد (ومعه معول عظيم)، فأخذ المعول وضرب الركن ضربة شديدة، ثم رفع يديه ثانياً يريد ضربه، فابتدره رجل من أهل اليمن حين رآه وهو يطوف، فطعنه طعنة عظيمة بالخنجر، حتى أسقطه، فأقبل الناس من نواحي المسجد فنظروه، فإذا هو رجل روميّ جاء من أرض روم، وقد جعل له مال كثير على ذهاب الركن، وكفى الله شرّه، فأخرج من المسجد الحرام، فأحرق في النار...

حجّ يضرب به المثل

سنة ٣٦٦- فيها حجّت جميلة بنت الملك ناصر الدولة صاحب الموصل، وكانت حجّاً يضرب به المثل في التجمل وأفعال الخير كان معها أربعمائة كجاوة، ولم يدر في أيها هي... وأفردت للرجال والمنقطعين ثلاثمائة جمل- وقيل: خمسمائة-

ص: ٩٨

ونثرت على الكعبة حين شاهدها أو دخلتها عشرة آلاف دينار من ضرب أبيها وما يناب هذا، واعتقت ثلاثمائة عبد وثلاثمائة أمه... وأعطت المجاورين عشرين ألف دينار... وخلفت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب.

نحر رجلين من الأفرنج

سنة ٥٧٨- فيها نحر بمنى - كما تنحر البدن - رجلان من الإفرنج، وهما من الإفرنج الذين توجهوا إلى المدينة المنورة.

مزار شهيد الفخ

سنة ٦٠٥- فيها عمّر السيد قتادة بن إدريس المشهد الذي به قبر الحسين بن علي بن الحسن الحسنی صاحب وقعة فحّ، ظاهر مكة بطريق العمرة.

ص: ٩٩

كان أبو فراس الحلّي ابن أخى الشيخ ورّام أمير الحاج

٦٠٧- فيها حجّ بالناس محمّد ولد الأمير مجاهد الدين ياقوت، وكان أبوه قد ولّاه الخليفة خوزستان وجعله هو أمير الحاج، ومعه ابن أبى فراس الحلّي؛ لأنّه كان صبيّاً.

سنه ٦١٠- فيها حجّ بالناس أبو فراس بن جعفر بن أبى فراس الحلّي نيابةً عن أمير الحاج ابن ياقوت.

سنه ٦١٣- فيها حجّ بالناس حسام الدين أبو فراس بن جعفر بن أبى فراس، نيابةً عن محمد بن ياقوت خادم أمير المؤمنين. (أى الخليفة).

سنه ٦١٨- فيها حجّ بالناس من العراق حسام الدين أبو فراس بن جعفر بن أبى فراس ولم يحجّ فيها أحد من بلاد الأعاجم ولا من همذان ولا إصفهان؛ لخوف الطرق من انتشار التتار الكفرة فى البلاد وما يليها.

سنه ٦١٠ و ٦٢١- فيهما حجّ بالناس ابن أبى فراس.

موت جماعة من الحاج من الزحام فى المسعى

سنه ٦١٩- فيها مات بالمسعى جماعة من الزحام؛ لكثرة الخلق، حجّوا فى هذه السنه من العراق والشام.

فرار أمير الحاج

سنه ٦٢٢- فيها هرب أمير الحاج العراقى حسام الدين أبو فراس الحلّي، وهو ابن أخى الشيخ ورّام، وكان عمّه من الصالحين الأختيار من أهل الحلّة السيفيّة، فارق الحاج من مكّة والمدينّه وسار إلى مصر، وحمله على ذلك الضائقة وكثرة الخرج فى الطريق وعدم الدخل، ولما فارق الحاج خافوا خوفاً شديداً فأمن الله تعالى خوفهم ولم يذعرهم ذاعر فى جميع الطريق، ودخلوا آمنين إلّا أنّ كثيراً من الجمال هلكت وفنيت منهم، ولم يسلم منها إلّا قليل.



ص: ١٠٠

مولد جعفر

سنة ٦٢٣- فيها في صفر عمّر بعض المجاورين مولد (جعفر) الصادق رضی اللہ عنہ.

مولد على عليه السلام

سنة ٦٢٥- فيها عمّر الخليفة المستنصر العباسي... مولد سيدنا علي بن أبي طالب.

ترك الحج من العراق

سنة ٦٣٤- فيها لم يحجّ العراقيون بسبب أنّ التتار قصدوا بغداد، فجمع المستنصر العلماء فسألهم في ترك الحج فأفتوه بذلك، وبطل

الحج، وجمع مائة ألف فارس للمرابطة ببغداد إلى أن تمّ أمر اللّٰه في تفرقتهم.

سنة ٦٤٠- فيها حجّ الحاج العراقي بعد أن أقام سبع سنين لم يحجّ.

سنة ٦٥٠- فيها حجّ الناس من بغداد بعد عشر سنين بطل الحجّ فيها منذ مات المستنصر إلى هذه السنة (قاله سبط بن الجوزي في

مرآته).

سنة ٦٦٦- توجه الحاج العراقيون من بغداد إلى مكة، وهي أول سنة حجّوا فيها بعد غلبة التتار على بغداد في سنة خمس وخمسين.

مولد الرسول صلى الله عليه و آله

سنة ٦٦٦- فيها عمّر المظفر مولد الرسول صلى الله عليه و آله.

ألف جنازة

سنة ٦٧١- فيها كان بمكة فناء عظيم.. وعدّ أهل مكة ما بين العمرتين من أول الرجب إلى السابع والعشرين منه ألف جنازة.

ص: ١٠١

كثره الحاج

سنة ٦٧٧- فيها كان الحاج المصري أربعين ألفاً، سوى الشامي والعراقي.

العروة الوثقى المصنوعة

سنة ٧٠١- فيها أزيلت البدعة التي كانت بالكعبة الشريفه يقال لها: «العروة الوثقى»، وهي أن بعض الفجرة المحتالين عمدوا إلى موضع عالٍ من جدار البيت المقابل لباب البيت، فسّموه بالعروة الوثقى، وأوقعوا في قلوب العامة أن من ناله بيده فقد استمسك بالعروة الوثقى، فأجوجهم إلى أن يقاسوا في الوصول إليها شدة، وعلى أن يركب بعضهم فوق بعض، وربما صعد النساء فوق الرجال ولا مسوا الرجال ولا مسوهن، فلحقهم بذلك أنواع من الضرر- دنياً ودين- وسبب ذلك أن الصاحب زين الدين أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن حنا (م ٧٠٤) قدم إلى مكة في أثناء هذه السنة، فرأى هذه البدعة، فأمر بقلع ذلك المثال، وأزيلت تلك البدعة، ولله المنة.

حي على خير العمل

سنة ٧٠٢- فيها سعى عند الملك الناصر صاحب مصر بأن بمكة المشرفة جملة من البدع، منها الأذان بحي على خير العمل، ومنها إمام زيدى بالمسجد الحرام، ومنها بعض الفجرة جاؤوا إلى موضع عالٍ من جدار الكعبة المقابل لباب البيت فسّموه بالعروة الوثقى وأوقعوا في نفوس العامة أن من ناله بيده فقد استمسك بالعروة الوثقى، فكتب صاحب مصر صجبة أمير الركب بأمر الأشراف امراء مكة ألا يمكنوا من الأذان بحي على خير العمل، ولا يتقدم في الحرم إمام زيدى، وألا يهبط الحاج حتى ينقضوا ما كان في الكعبة مما سمّوه العروة الوثقى، ولا يمكن أحد من مسّ المسمار الذي في الكعبة الذي يقال له: «سرّة الدنيا». وكان

ص: ١٠٢

يحصل من التعلق بالعروة ومن التسلق إلى المسمار عدّة مفاسد قبيحة، فترك ذلك كله، وقد تقدم في السنة قبلها إزالة العروة.  
إمام الزيدية

وإمام الزيدية المشار إليه رجل شريف، كان يصلى بالزيدية بين الركنين اليماني وحجر الأسود فإذا (كان) صلى صلاة الصبح دعا بدعاء مبتدع وجهر به صوته وهو: اللهم صلّ على محمّد وعلى آل بيته المصطفين الأطهار المنتخبين الأخيار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، اللهم انصر الحقّ والمحقّين واخذل الباطل والمبطلين ببقاء ظلّ أمير المؤمنين ترجمان البيان وكاشف علوم القرآن الإمام محمّد بن المطهر بن يحيى بن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي بالدين أحيا إمام المتقين وحجاب الضالين، اللهم انصره وشعشع أنواره واقتل حسّاده، واكذب أضداده- مع زيادات على هذا- وكان إذا صلى صلاة المغرب دعا أيضاً بهذا الدعاء وجهر به صوته في هاتين الصلاتين.

الاختلاف في رؤية الهلال

سنة ٧٢٥- فيها وصل عسكر من مصر متوجّهاً إلى اليمن... وعند وصولهم خرج إمام الزيدية من مكة وأقام بوادي مرّ، وما رجع إليها إلى وقت الحاجّ وعاد بعد الموسم إلى ما كان يفعله.

وفيهما (٧٢٥) وقف الناس بعرفة يومين: السبت والأحد؛ لاختلاف في هلال ذي الحجة، وكان الركب المصري قليلاً والعراقي كثيراً.  
خداينده ملك التتار

سنة ٧٢٦- فيها لحق الشريف حميضة بن أبي نما الحسنى بخداينده ملك التتار، وأقام ببلاد أشهراً وطلب منه جيشاً يغزو به مكة، وساعده جماعة من الرافضة على ذلك، وجّهوا له جمعاً من خراسان، وكانوا مهتمين بذلك، وكان مقدّمهم

ص: ١٠٣

درقندی- وقيل: دقلندی- وهو رافضی من أعيان دولة التتار، وكان قد قام بنصر الشريف حميضة، وجمع له من الأموال والرجال على أن يأخذ له مكة ويقيمها بها، وأتهم ينقلون الشيخين: أبا بكر وعمر من جوار النبي صلى الله عليه وآله، ثم إن الأمير محمد بن عيسى... قاتلهم ونهبهم وكسب العسكر منهم أموالاً عظيمة من الذهب والدراهم...

عدم الحج من العراق سنين كثيرة

سنة ٧٣٦- فيها لم يحج العراقيون؛ لموت سلطانهم أبي سعيد بن خدابنده، واختلاف الكلمة بعده، ودام انقطاعهم سنين كثيرة.

الاختلاف في رؤية الهلال ونزاع الفقهاء والقضاء

سنة ٧٤٧- وفيها كانت الوقفة الجمعة؛ لأنه ثبت ذلك عند قاضي مكة بحضور قاضي القضاء عز الدين بن جماعة وغيره من حجاج مصر والشام والعراق، وكان يوم عرفه بمصر والاسكندرية يوم الخميس، فأنكر الشيخ علاء الدين علي بن عثمان التركماني الحنفي على القاضي عز الدين بن جماعة، وأفتى أن حج الناس فاسد ويلزم من وقف بالناس يوم الجمعة بعرفه جميع ما أنفقه الحاج من الأموال، وأنه يجب على الحجاج كلهم أن يقيموا محرمين لا يطؤوا نساءهم، ولا يمسوا طيباً، حتى يقفوا بعرفه مرة أخرى، وشتت بذلك عند الأمراء، فشق ذلك على الأمير من أجل أن زوجته حجت فيمن حج... فغضب الشافعية وأنكروا مقالته وردوها، وقصد ابن جماعة أن يعقد مجلساً في ذلك ويطلب التركماني ويدعى عليه بما أفتى به، مما لا يوجد في كتب الحنيفة، فرجعه الناس عن ذلك مخافة الشناعة.

سنة ٧٤٨- فيها حج الركب العراقي بعد انقطاعه عن الحج إحدى عشرة سنة، وكان الحجاج كثيراً من العراق بخلاف مصر والشام.

ص: ١٠٤

استتابة إمام الزيدية

سنة ٧٥٥- فيها في رمضان عقد لكبير الزيدية أبي القاسم بن محمد بن حسين بن الشقيف مجلس بحضرة القاضي عز الدين بن جماعة واستتيب فيه، وكتب خطه أنه يبرأ إلى الله عز وجل من اعتقاد أهل البدع من الزيدية والإمامية وغيرها، وأنه يواظب على الجمعة والجماعة، وإن خرج عن ذلك فعل به ما تقتضيه الشريعة المطهرة، وذلك بعد سؤاله لأهل السنة وخضوعه لهم، وكان سبب ذلك خوفاً حصل له من ضرب الأمير عمر شاه لعلّي مؤذن الزيدية حتى مات في موسم السنة التي قبلها.

وفيها حضر أبو القاسم محمد بن أحمد اليمنى إمام الزيدية المطلوب في السنة الخالية إلى قاضي القضاة عز الدين بن جماعة، تائباً مما كان عليه من مذهب الزيدية، فعقد له مجلس بالحرم، حضره أمير الركب وعامة أهل مصر ومكة، وأشهدهم أنه رجع عن مذهب الزيدية وتبرأ إلى الله من إباحة دماء الشافعية وأموالهم، وأنه يواظب على صلاة الجمعة والجماعة مع أئمة الحرم، وإن خرج عن ذلك فعل به ما تقتضيه الشريعة وكتب خطه بذلك.

الاختلاف في رؤية الهلال

سنة ٧٥٧- فيها وقف الناس بعرفة يومين.

وفيها حج بعض العجم، وتصدق بذهب كثير في الحرمين على أهلها.

تيمور لنگ

سنة ٨٠٣- فيها لم يحج أحد من الشام على طريقتهم المعتادة لخرابها، ولما أصاب أهل دمشق من القتل والعذاب والأسر وإحراق دمشق بعد أن صودر أهلها وكانوا مسلمين البلاد بأمان، والفاعل لذلك أصحاب تيمورلنگ صاحب الشرق، ودام انقطاع الحجج الشاميين من هذا الطريق سنين ثم حجوا.

ص: ١٠٥

مزار شهيد الفخ

سنة ٨٠٥- فيها في صفر عمر السيد حسن بن عجلان المشهد الذي به قبر الحسين بن علي بن الحسن الحسنى بفتح ظاهر مكة بطريق التنعيم.

وفيه لم يحج أحد من الشام ولا العراق ولا اليمن.

صلاة المغرب والأئمة الأربعة

سنة ٨١١- فيها في الموسم أطل الناصر فرج صلاة المالكي والحنبلي والحنفي في صلاة المغرب؛ لأنهم كانوا يصلونها في وقت واحد، وبسبب اجتماعهم في هذه الصلاة يحصل للمكيين لبس كثير بسبب التباس أصوات المبلغين واختلاف حركات المصلين، وهذا الفعل ضلال في الدين، وصار الشافعي يصلي بمفرده الناس المغرب، واستمر إلى موسم سنة ٨١٦.

الاختلاف في رؤية الهلال

سنة ٨١٣- وقف الناس بعرفة يومين؛ لاختلاف وقع في تاريخ أول الشهر، وأوقفت المحامل في اليوم الأول يوم التروية على مقتضى رؤية أهل مكة بعرفة على العادة، ونفروا بها وقت نفر الأول المعتاد إلى قرب العلمين، ثم ردت إلى مواضعها.

عدم الحج من العراق سنين

سنة ٨١٣- فيها لم يحج أحد من العراق، لأن فيها- على ما يقال- قتل صاحب بغداد أحمد بن أويس ... ودام انقطاع الحجاج بمحمل بغداد سنين بعد هذه.

من شيراز

سنة ٨١٤- فيها لم يحج العراقيون، وحج من العراق ناس قليل من شيراز وغيرها على طريق الحسا (الأحساء) والقطيف..

ص: ١٠٦

سنة ٨١٥- فيها أيضاً لم يحج ركب العراق وحج ناس من العراق من شيراز وغيرها على طريق الحسا (الأحساء) والقطيف. الجمل والحجر الأسود

سنة ٨١٥- فيها قيل في جمادى الآخرة: كان جملٌ لرجل وكان يكلف فوق طاقته فلما كان يوماً هرب إلى المسجد الحرام ودخله ولم يزل يطوف بالبيت حتى كمل له ثلاثة أسابيع مع أن الناس يريدون إمساكه وإخراجه من المسجد فما قدروا على ذلك، وكان إذا دنا منه شخص دقه وغلبه، فلما قضى الثلاثة الأسابيع، قال الناس بعضهم لبعض: اتركوه، فتركوه فجاء إلى الحجر الأسود فقبتله ساعة، ثم راح إلى عند مقام الحنيفة تجاه الميزاب فبرك عنده، ثم بكى ساعة وألقى نفسه على الأرض، فمات فحمل إلى ما بين الصفا والمروة. اختلاف كثير في رؤية الهلال

سنة ٨١٧- فيها حصل اختلاف كثير في تعيين الوقفة؛ لأنّ جمعاً كثيراً من القادمين إلى مكة في البرّ والبحر وبعض من بمكة المشرفة ذكروا أنهم رأوا الهلال لدى الحجّة ليلة الإثنين، ولم ير ذلك أهل مكة ولا غالب الركب المصرى، فوقع الاتفاق على أن الناس يخرجون إلى عرفة في بكرة يوم الثلاثاء تاسع ذي الحجّة على مقتضى قول من قال: إنّه رأى بالاثنتين، وأن يقيموا بعرفة ليلة الأربعاء ويوم الأربعاء، ففعل ذلك، وسار معظم الحاج إلى عرفة بعد طلوع الشمس من غير نزولٍ بمنى، فبلغوها بعد دخول وقت العصر، فتخلف غالب المكّيين وأهل اليمن بمكة إلى وقت الظهر، وتوجهوا إلى عرفة من غير نزولٍ بمنى... فوصلوا إلى عرفة وأقاموا بها ليلة الأربعاء ويوم الأربعاء إلى الغروب، ونفروا مع الحجّاج إلى المزدلفة، وباتوا بها إلى قرب الفجر، ثم رحلوا إلى منى بعد رحيل المحامل، والمعهود أنّها لا ترحل إلّا بعد الفجر، وكذا غالب الناس ففاتتهم الفضيلة... وانتهوا إلى منى في بكرة يوم الخميس...

ص: ١٠٧

مطر عظيم

سنة ٨٢٥- فيها في آخر ليلة السبت سابع عشر ذى الحجة وقع مطر عظيم بقوة عظيمة، فلما كان وقت صلاة الصبح صلى الإمام الشافعي بالناس أمام زيادة دار الندوة بالجانب الشامي من المسجد الحرام؛ لتعذر الصلاة عليه بمقام إبراهيم وما يليه هنالك... وصار المسجد الحرام مغموراً بالماء الكثير المرتفع نحو قامته بحيث قارب عتبة باب الكعبة... وما مات فيه أحد فيما علمناه، ولكن مات في هذه الليلة أربعة نفر بمكان أسفل مكة بصاعقة وقعت عليهم هناك...

وباء عظيم

٨٢٧- فيها كان وباء عظيم عام دام أشهراً لعل الموتى فيه ممن يعرف اسمه ومكانه يزيدون على ألفين أو يقاربون ذلك، وكان كثيراً ما يجمع من الجنائز عقب صلاة الصبح أو العصر سبع أو أكثر، وكان يموت في كثير من الأيام بضع وعشرون في كل يوم أو أكثر، غير الموتى الذين يؤتى بهم من بادية مكة إليها، وكان ابتداء كثرة الموتى بهذا الفصل يوم الثامن من صفر.

الحج من مشهد على عليه السلام

سنة ٨٣١- فيها حج محمل من العراق ومعه ركب قليل، أربعمائه جمل تحمل الحاج من مشهد على، والمجهز له سلطان الحلة حسين بن علي بن السلطان أحمد بن اويس، بعد أن انقطع محمل العراق قبل هذه السنة مدة تزيد على عشر سنين..  
سنة ٨٣٢- فيها في ليلة عاشوراء وجدت نجاسة في مقام إبراهيم- إما عذرة أو خرا- فغسل المقام ونظف وطيب (١).

١- روى السنجاري في حوادث سنة ١٠٨٧ أنه لما كان يوم الخميس ثامن شوال من السنة المذكورة أصبح الناس فإذا الكعبة المشرفة ملطخة بعذرة أو بأشبه العذرة عن جميع جوانبها، وكذلك الحجر الأسود والركن اليماني، فاتهم بهذا الفعل الشيعة، فاشتدت حمية الأتراك المجاورين، فأخذوا من الحرم خمسة أنفس من العجم بعد شروق الشمس، و أوقعوا فيهم الضرب والرجم بالحجارة، ثم الضرب بالسيوف، وألقوهم على بعضهم ولم يطالب فيهم أحد.



ص: ١٠٨

الموت من الحرّ والعطش

سنة ٨٣٣- فيها أصاب الحاج في قدومهم بين الإزلم وينبع (في طريق المصرى إلى الحج) شدة عظيمة من الحرّ والعطش، مات فيها ثلاثة آلاف نفس، ويقال:

خمسة آلاف.

موت نحو الألف

سنة ٨٣٤- فيها في يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة، وصلت الرجبية إلى مكة المشرفة في جماعة كثيرة ممن يريد الحج والعمرة، منهم شيخنا العلامة تقى الدين أحمد بن على المقرئى رحمه الله، وكانت عدة أحماهم نحو ألف وخمسمائة حمل، ومقدمهم سعد الدين إبراهيم بن المرّة ناظر جدّه، فوجدوا ما بين الوجه واكرة (هما في طريق المصرى الى الحج) عدة موتى ما بين رجال ونساء ممن هلك بالعطش من الحاج، فدفن منهم نحو الألف.

مولد جعفر عليه السلام

سنة ٨٣٥- فيها في جمادى الآخرة عمّر الخواجا جمال الدين محمّد بن على الرومى مولد جعفر الصادق (الصحيح جعفر بن أبى طالب) بدار أبى سعيد.

السيل العظيم

سنة ٨٣٧- فيها في ليلة الجمعة سادس عشر جمادى الاولى حصل مطر قوى سالت منه الأودية... فداخل المسجد الحرام صار الماء بحراً إلى عتبة باب إبراهيم... وتهدم في هذه الليلة دور كثيرة فقول الكثر ألف وزيادة ومات تحت الردم اثنا عشر إنساناً وغرق ثمانية أنفس ودلف (أى انصب منه الماء) سقف الكعبة، فابتلت الكسوة التى بداخلها وامتألت القناديل التى بها.

وحدث عقيب هذا السيل بمكة وأوديتها وبأطراف اليمن وباء واشتعل الوباء فى شعبان حتى بلغ بمكة فى اليوم عدة من يموت خمسين.

ص: ١٠٩

## الاختلاف في رؤية الهلال

سنة ٨٥٠- فيها وقع الاختلاف في الوقفة، شهد شخص من المغاربة- ذكر أنه من أهل العلم والدين وزكى- أنه رأى الهلال لدى الحجية ليلة الخميس، وقال القاضي كاتب السر أن اخته- زوجة الملك الظاهر- رأت الهلال ليلة الخميس، فقال القاضي الشافعي لكاتب السر: ينبغي أن تتوجهوا من مكة صبح يوم الجمعة، ولا تبيتوا بمنى ليلة السبت، بل تكونوا ليلة السبت بعرفة فامتنع من ذلك وقال: لا- يسعني ذلك أبداً، ثم لما وصل الركب الشامي ذكروا أن قاضي محملهم ثبت عنده بشهادة من يثق به أنه رأى هلال ذى الحجية ليلة الخميس، فوقف الناس يوم الجمعة ولم تطمئن قلوب غالب الناس بالوقوف يوم الجمعة. والله أكرم من أن يرد هذا الوفد العظيم خائبين.

## الوقوف يومان

سنة ٨٥٩- فيها وقف الناس بعرفة يومين، لاختلاف وقع في تاريخ الشهر وأوقفت المحامل في اليوم الأول يوم الأربعاء يوم التروية على مقتضى رؤية أهل مكة بعرفة على العادة، ونفروا بها وقت النفر المعتاد إلى مواضعها، وباتوا بعرفة وأقاموا بها يوم الخميس، ووقفوا بها عصر يوم الخميس ونفروا.

ص: ١١٠

الحجّ بعد سبعة عشر سنة

سنة ٨٧١- فيها حجّ العراقيون بمحمل على العادة بعد انقطاعهم سبع عشرة سنة وكان وصولهم من المدينة الشريفة وقدومهم إلى مكة في اليوم السابع من ذى الحجة، وعادوا إلى المدينة أيضاً.

السيد تاج الدين

سنة ٨٧٥- فيها مات السيد تاج الدين عبد الوهاب بن عمر بن الحسين بن أحمد بن الحسن بن حمزة بن محمد بن ناصر بن علي بن الحسين بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب الحسيني الدمشقي، في عصر يوم الأحد ثاني جمادى الاولى، وصلى عليه صباح يوم الإثنين ودفن بالمعلاة. (راجع الضوء اللامع ٥: ١٠٦).

العمرة الرجبية

سنة ٨٤٨- فيها لما كان في ظهر يوم الإثنين تاسع عشر شعبان، وصل السيد أبو القاسم من وادي الآبار إلى مكة المشرفة، ووصل معه قاصده الشريف صعب الينبعي، وأخبر أن الرجبية كبيرة أربعة آلاف جمل، وهي ركبان، مقدّمها الأمير كزّل المعلم أمير الترك بمكة...

شاب من التركمان

سنة ٨٥٠- فيها حجّ محمل من بغداد في هيئة عظيمة... في ركبٍ نحو ألف راحلة (إبل أو غيرها)، لم يكن فيها كجاوة ولا محارة (صندوق كالهودج)، وأميرهم شخص شاب من التركمان المغل يسمّى جعفرًا، وكانوا لما وصلوا ركبته (بين مكة والطائف) خرج عليهم عرب يسمّون: مطير، في مائة وخمسين فارساً ونحو ألفي راجل، أرادوا أخذ الحاجّ فجادلهم الأمير، وكان في نحو خمسمائة، فظهر

ص: ١١١

من الأمير شجاعه عظيمه ظهر بها أنه من فرسان الإسلام فنصرهم الله على العرب وردّ كيدهم في نحورهم. طاعون في جدّه

سنه ٨٨٢- في أوائلها وقع بجدّه- ساحل مكّه- طاعون، مات به جماعه كثيره من أهلها، حتّى غلقت أبواب كثيره، وكان يصلّى في بعض الأيام على الستين ميّتاً في الجامع، وبلغ عدّه من يموت في كلّ يوم مائه وأكثر.

أيضاً الاختلاف في رؤيه الهلال

سنه ٨٨٣- فيها في يوم الخميس سابع ذى الحجه اجتمع الشريف والقضاء عند أمير الحاج المصري مرتين؛ بسبب رؤيه هلال ذى الحجه ما هو؟ أو متى تكون الوقفه؟ وزعم أمير الحاج وبعض الجهال أنّ بعض الشاميين رآه ليلة الخميس فتكون الوقفه الجمعه وأهل مكّه يقولون: إنّه لم يره بمكّه أحد ليلة الجمعه، لكن رؤى في بعض الآفاق، فتكون الوقفه السبت- وكان من كلام الغرباء في غير المجلس أنّ أهل مكّه لا يحبّون وقفه الجمعه فإنّ الغلاء عندهم بل ويغرم السلطان... قاتلهم الله فإنّ هذا افتراء لا يعرف- وانفضوا في المره الاولى من عند أمير الحاج من غير فصل، وفي المجلس الثاني رسم أمير الحاج أن يقفوا مرتين: يوم الجمعه ويوم السبت، ويتوجه الناس منه إلى يوم الخميس، فتوجه كثير من الناس يوم الخميس، وبعضهم يوم الجمعه، وخطب الخطيب بمكّه يوم الجمعه ولم يكن بها إلّا اناس قليل ووقف من حضر الموقف يوم الجمعه ويوم السبت مرتين، كما رسم أمير الحاج، فلا قوه إلّا بالله العلي العظيم.

ص: ١١٢

أسماء بنت عميس

شخصيات من الحرمين الشريفين (٢١)

**أسماء بنت عميس داعية تحتدى**

حسن محمد

إن للنساء المؤمنات الصالحات تاريخاً رائعاً لم تنسه أقلامه ومصادره، وكيف ينسى وقد غدا تاريخاً مثمراً متواصلاً جعل منهن أمثلةً تحتدى، ونماذج تقتدى؟!

ومن تلك النساء، مؤمنة صابرة حصلت على أوسمة متعددة من رسول الله صلى الله عليه وآله منها وسام الإيمان حيث قال: «الأخوات الأربع مؤمنات: ميمونة، وأمّ الفضل، وسلمى، و أسماء».

صحابية جليّة، بعد أن عرفت بصبرها، وثباتها، ووعيتها، وعبادتها، وبصيرتها، ومعرفتها فى تأويل الرؤيا، وحفظها لكثير من الأحاديث النبوية وروايتها، وتسجيلها للعديد من المواقف النبيلة، نالت لقباً كبيراً ووساماً رفيعاً، طالما اشترأت له الأعناق، إنه (لقب الهجرتين) وهو من رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً، حيث إنها عرفت بأنها صاحبة الهجرتين، فهى أول النساء المهاجرات إلى ديار الحبشة، حيث ملكها العادل، ثم يثرب مدينة رسول الرحمة محمد صلى الله عليه وآله.

غدت هذه المرأة أنموذجاً يقتدى، ومثالاً يحتدى، كما قلنا بحق وجدارة، فهى زوجة وفيه صالحه، عرفت بصبرها ووفائها، لبيوت حلت فيها زوجة وأماً...

ص: ١١٣

وهي أمّ مدرّسة نقالة أينما كانت، وحلّت في مكّة، وفي الحبشة، وفي يثرب، بكل ما تحمله هذه المدرّسة، من دروس قيمة، ومفاهيم صادقة، ومبادئ عالية...

وهي داعية مخلصّة، هنا وهناك، حفلت حياتها بمفاصل قيمة، وألوان زاهية، وأغصان مؤرّقة، راحت تثمر دروساً في بناء المؤمنة الداعية، والأسرة المسلمة الصادقة، والأبناء الصالحين، الذين أحاطتهم بيئة نظيفة، وتربية سليمة...

وإن قراءة حياتها، كما حياة الأخريات من الصالحات المربيات، تؤكد ضرورة وأهمية التواصل الإيجابي بينهنّ ومجتمعهن، بل ومجتمعات أجيال أخرى جاءت بعدهن، وإن دل هذا فإنه يدل على عظم الرسالة السماوية، التي صنعتهنّ بعد أن وفقن للإيمان بها، وصرن أعضاء عاملات في مدرّسة النبوة المقدّسة، والصحبة المباركة، وما أعظمها من صحبة خرّجت نخباً صالحاً من الرجال والنساء. نسبها:

هي أسماء بنت عميس بن معد بن تيم بن الحارث - أو معد بن الحارث بن تيم - بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن سعد بن مالك بن نسر - أو بشير - بن وهب الله بن شهران بن عفرس بن خلف بن أفتل وهو خثعم (١). هذا نسبها من أبيها.

وأمّها: هند بنت عوف بن زهير بن الحارث الكنانية، أو هي هند بنت عوف بن الحارث، وهو حماطة بن ربيعة بن ذى جليل بن جرش، واسمه منبه بن أسلم بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدى بن مالك بن زيد بن سهل بن

١- أنظر: تاريخ الطبري ٢: ٣٥١، أحداث سنة: ١٣؛ ومقاتل الطالبين، لأبي الفرج الإصفهاني ٣٥، ترجمة محمد بن جعفر.

ص: ١١٤

عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن غريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير، وهو العرنجج بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان، كما في مقاتل الطالبين، أو هي بنت عوف بن زهير بن الحارث ابن حماطة... كما في الطبقات.

وهند هذه التي هي أم أسماء بنت عميس التي قيل فيها:

الجرشية أكرم الناس أحماء. وجرش من اليمن.

وابنتها أسماء بنت عميس، تزوجها جعفر بن أبي طالب، ثم أبوبكر، ثم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وابنتها الأخرى، ميمونة أم المؤمنين، زوجة النبي صلى الله عليه وآله، وهي آخر امرأة تزوجها صلى الله عليه وآله.

وابنتها الأخرى، لبابة أم الفضل أخت ميمونة، أم ولد العباس بن عبدالمطلب.

وابنتها الأخرى، سلمى بنت أم ولد، حمزة بن عبدالمطلب، وقد ولدت له ابنته عمارة.

إذن، فأحماءها، أي أحماء هذه الجرشية هم: رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والحمزة، والعباس، وجعفر، وأبوبكر، ومن أحمائها أيضاً الوليد بن المغيرة المخزومي، فأم خالد بن الوليد، أم الفضل الكبرى بنت الحارث أخت أسماء لأمها.

وميمونة أم المؤمنين، أبوها الحارث بن الجون بن بجير بن الهرم بن ربيعة بن عبد الله بن هلال بن عامر، وأم المؤمنين هذه هي أخت أسماء من أمها.

وأخوات ميمونة لأمها، هنّ عشر أخوات، وست أخواتها لأبيها (١).

١- أنظر: مقاتل الطالبين ٣٦-٣٥، ترجمة محمد بن جعفر؛ وابن سعد في الطبقات ٨: ٩٤، ٢٠٥، ٦: ٨٦؛ والإصابة ٨: ٢٠٢-١٩١، ١٨: ٧٨، وفي غيرها من المصادر التاريخية.

ص: ١١٥

زواجها:

وقع اختلاف بينها وأختها سلمى، حيث قيل: إن أسماء بنت عميس كانت قبل الإسلام تحت حمزة بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله، أنجبت له ابنة «أمه الله»، ثم من بعده كانت تحت شداد بن الهادي الليثي، وأنجبت له «عبدالله وعبد الرحمن» ولكن ردت هذه الدعوى بأن المرأة التي كانت تحت حمزة وشداد هي سلمى بنت عميس أختها، وليس أسماء.

والشيء المتيقن أنها تزوجت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله، جعفر الطيار بن أبي طالب رضى الله عنه، والذي كان شبيهاً به صلى الله عليه وآله، فقد كان صلى الله عليه وآله يقول لجعفر: «أنت أشبه الناس بخلقى وخلقى» (١).

فكان ذلك يسر أسماء، ويسعدها عندما ترى زوجها شبيهاً بأحسن الخلق وأفضلهم وأحبهم إليها، فكان يحرك فيها مشاعر الشوق لرؤية النبي الكريم صلى الله عليه وآله..

وقد أسلمت مع زوجها جعفر- الذى ظل طيلة حياته معها يبادلها المحبة والوفاء والرفقة الصالحة حتى فى مسيرتهما الإيمانية- فى وقت واحد ومبكر من عمر الدعوة، حتى يقال: إن إسلامهما كان قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وآله دار الأرقم بمكة.

أسماء فى بلاد الهجرة الأولى:

ما إن قرّر زعماء ومشركو قريش معاقبة المؤمنين، حتى أذن رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فكانت أسماء وبرفقة زوجها جعفر، وبعد فترة قليلة من زواجهما، واحدة ممن شد الرحال هجرةً فى سبيل الله تعالى، وتنفيذاً لطلب الرسول صلى الله عليه وآله، و فراراً بدينهم وأنفسهم، فوثقت هجرتهم الحياة بينهما، وملأت عليهما أجواء إيمانية، جعلت منهما نعم الزوجين، المؤمنين،

١- مختصر تاريخ دمشق ٦: ٦٩ ترجمة جعفر بن أبي طالب.



ص: ١١٦

المهاجرين، المجاهدين، الصابرين، الصادقين، بعد أن أدركا أن الآخرة خير من الأولى.

إذن، ما إن وصل المهاجرون إلى بلاد الحبشة، حتى كانت أسماء وزوجها جعفر، وهو أمير المهاجرين، وابنهما عبد الله على قول، في مقدمته ذلك الركب العظيم، وكانت واحدة من ست عشرة امرأة مهاجرة... ليقيموا في بيت بسيط تكتنفه آلام الغرباء، والبعد عن الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه المباركة، وعن الوطن والأحبة، وتملؤه المودة، والمحبة، والاحترام، لتجعل منهما مثلاً للزوجين الصالحين؛ حقاً لقد ملأ هذا الصحابي الجليل، حياة زوجته أسماء بكل معاني الخير، مما حداها أن تكون شريكته الصالحة في حمل مسؤوليته هذا الدين الحنيف، ونشر دعوته في مهجرهما الجديد؛ إضافةً إلى تحملها تربية أولادها الثلاثة الذين من الله تعالى عليهما بهم، فقد أنجبت لجعفر في بلاد الحبشة: عبدالله، ومحمداً، وعوفاً، وكان ولدها عبد الله أكثر شبيهاً بأبيه الذي كان شبيهاً بالنبي الكريم صلى الله عليه وآله فكانا كلما اشتاقا لرؤية رسول الرحمة صلى الله عليه وآله ملئاً عيونهما منه.

بقيت هذه الصحابية المؤمنة الصابرة وزوجها في الحبشة خمس عشرة سنة أو أقل من هذا بقليل، وقعت فيها أمور عديدة واصل فيها رسول الله صلى الله عليه وآله دعمه لهم، عبر موفده عمرو بن أمية الضمري رضى الله عنه يتفقدهم، ويستوضح ما عندهم، ويعلمهم أحكام الله، وما ينزل من آيات قرآنية.

وفي المقابل كانت قريش هي الأخرى، ترسل وفودها إلى ملك الحبشة، لتحنه على تسليمهم وإعادتهم إليه، فقد جاء وفد من قريش إلى ملك الحبشة (النجاشي) يطالبونه بإعادة المسلمين إلى مكة، وكان يضم عمرو بن العاص، وكانوا يقولون له:

«قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم

ص: ١١٧

أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم».

فما كان من النجاشي إلّا أن أرسل بطلب وفد المسلمين، يسألهم بشأن هذا الأمر، فتقدم جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه، زوج أسماء، فقال:

«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع الأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام...»

فتشوق النجاشي لسماع المزيد؛ فسأله عما جاء به النبي صلى الله عليه وآله من عند الله، فما كان من جعفر إلّا أن أسمعته من سورة مريم...

فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته، وبكت معه أساقفته، فقال النجاشي:

«إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، إنطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكيدهم أحد».

فكان ذلك سبباً في إسلام النجاشي، وكان النجاشي سبباً في إسلام وفد قريش، والذي كان من بينهم عمرو بن العاص.

وقد سمى النجاشي ولده (عبد الله) على اسم ابن جعفر وهو عبد الله، وليس هذا فقط، بل إن أسماء قد أرضعته مع ولدها عبد الله بن جعفر، وبالتالي فهما أخوان بالرضاعة، وهذا دليل على عمق العلاقة بين العائلتين: عائلة النجاشي وعائلة جعفر.

إن ذلك كان اختباراً عظيماً لهذه الفئة المؤمنة، وأسماء منها تؤدي رسالتها كأفضل داعية قولاً وعملاً وسلوكاً...

هجرتها الثانية:

كم كان سرور رسول الله صلى الله عليه وآله عظيماً حين عادت أسماء وجعفر من الحبشة إلى المدينة المنورة، وهو يعيش فرحة فتح خيبر، وقد عبّر عن فرحته، فقال صلى الله عليه وآله بعد

ص: ١١٨

أن قبل بين عيني جعفر:

«ما أدري بأيهما أنا أسرّ: بفتح خبير أم بقدم جعفر؟!» (١).

هي و الخليفة الثاني:

ما إن عادت من هجرتها إلى الحبشة، التي تأخرت فيها، حتى وفقت وزوجها وأولادها إلى هجرة أخرى، وهذه المرة إلى حيث رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة، وما إن التقت بحفصة زوج النبي صلى الله عليه وآله حتى دخل عليهما عمر بن الخطاب قائلاً:- «لقد سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وآله منكم أو: يا حبشية، سبقناكم بالهجرة! فغضبت رضى الله عنه وقالت:

«أى لعمري لقد صدقت! كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وآله تطعم جائعكم، ويعلم جاهلكم، وكنا البعداء الطرداء. أما والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وآله فلاذكركن ذلك له، ولا أنقص ولا أزيد في ذلك» فذكرت ذلك له، فقال صلى الله عليه وآله: «لكم الهجرة مرتين، هاجرتم إلى النجاشي! وهاجرتم إلي»، أو «للناس هجرة واحدة، ولكم هجرتان».

وعن البخاري في صحيحه عن أبي موسى، أنه قال:

بلغنا مخرج النبي صلى الله عليه وآله ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه، فركبنا فالقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب، فأقمنا معه، حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبي صلى الله عليه وآله حين افتتح خيبر، وكان أناس من الناس يقولون لنا- يعنى أهل السفينة:-

سبقناكم بالهجرة!

ودخلت أسماء بنت عميس- وهي ممن قدم معنا- على حفصة زوج النبي صلى الله عليه وآله

ص: ١١٩

زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر:

الحبشية هذه، البحرية هذه؟

قالت أسماء: نعم.

قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وآله منكم!

فغضبت وقالت: كلاً والله، كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وآله يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في الدار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله صلى الله عليه وآله وأيم الله، لا- أطعم طعاماً، ولا- أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وآله وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

قال: «فما قلت له؟»

قالت: قلت له: كذا وكذا.

قال صلى الله عليه وآله: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني رسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم، مما قال لهم النبي صلى الله عليه وآله.

فقد قضى رسول الله صلى الله عليه وآله لها- رضوان الله تعالى عليها- ولمن كان معها في الهجرة بالسبق على عمر وهجرته، وهكذا جاهدت أسماء لتثبت حقها الشرعي

ص: ١٢٠

وحقّ إخوانها الذين صحبوا في المشوار الطويل هجرةً ودعوةً، وها هي تبشّر وتُنشّر هذا الأمر بين من كانوا، يأتونها جماعات للسؤال عن حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وقضائه لهم بالسبق في الهجرة والجهاد.

فسرت بقول رسول الله صلى الله عليه وآله هذا وأثلج صدرها، ولم يكن ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله تطيباً لخاطرها، وإراحةً لنفسها فقط، بل كان منه صلى الله عليه وآله توضيحاً للحقيقة، وتبييناً للواقع العظيم الذي عاشوه، والهدف الكبير الذي حملوه، وقطعاً لدابر الفتنة، فهم تركوا مكة فارّين بدينهم إلى الحبشة، فكانت هجرة، وهم كذلك انتقلوا من بلاد الحبشة إلى المدينة المنورة، فهذه هجرة أخرى!!!

الامتحان الكبير:

حلّت أسماء في بيت النبوة مع زوجات النبي صلى الله عليه وآله وبناته، فيما راح جعفر يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله مواقفه الجهادية... إنه ابتلاء آخر لإيمان أسماء، وصبرها، وصدورها، وثباتها، إنه يوم مؤتة ووقعتها، يوم الشهادة، شهادة من؟! شهادة زوجها جعفر، وهو يقارع أعداء الإسلام ونبيه...

حزن رسول الله صلى الله عليه وآله حزناً شديداً حين وصله خبر استشهاد عزيزه وحبيبه جعفر، الذي كان يحظى بمعزة خاصة، ومنزلة رفيعة عنده صلى الله عليه وآله، فهو شبيهه وداعيته الثابت الواعي والمجاهد الواعد، فكان يستحق منه ذلك الألم والحزن...، جاء صلى الله عليه وآله أسماء، وهو يحمل إليها نبأ استشهاد حبيبها، ورفيق إيمانها وهجرتها، وها نحن نقرأ ما قالته رضوان الله تعالى عليها.

«أصبحتُ في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله ولقد هنأت (أى دبغت أربعين إهاباً من آدم) وعجنت عجيني، وأخذت بنى فغسلت وجوههم ودهنتهم، فدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال:

«يا أسماء: أين بنو جعفر؟» فجاءت بهم، فقبلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى، فأحست أسماء بحدوث شيء لزوجها، فسألت النبي صلى الله عليه وآله، فقال لها:

ص: ١٢١

«قتل جعفر اليوم»

فقامت تصيح وتنحب، حتى اجتمع عليها الناس يهدونها من روعها.

فقال صلى الله عليه وآله: "يا أسماء! لا تقولى هجراً ولا تضرى صدرأ،" فكان حزنها عظيماً وبكاؤها مريراً...

وفى خبر آخر، إنه لما نعى رسول الله صلى الله عليه وآله جعفرأ إلى زوجه أسماء بنت عميس، قامت وصاحت وجمعت الناس،

فدخلت عليها فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله وهى تبكى وتقول: وا عمأه!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: على مثل جعفر فلتبك البواكى!!!

فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يطمئنها قائلاً:

«يا أسماء! هذا جعفر بن أبى طالب، قد مرّ مع جبريل وميكائيل»، فرد عليه السلام، ثم قال صلوات الله عليه: فعوضه الله عن يديه جناحين يطير بهما حيث شاء.

وورد إنه صلى الله عليه وآله توجه بالدعاء قائلاً: اللهم اخلف جعفرأ فى أهله وبارك لعبدالله.

ثم رجع - بتشديد الجيم - وقال: إصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد شغلوا عن أنفسهم.

وقد نقل الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام: إن النبي صلى الله عليه وآله أمر فاطمة أن تأتى أسماء بنت عميس، ونساؤها وأن تصنع لهم طعاماً ثلاثة أيام، فجرت بذلك السنّة.

وما إن ذكرت أسماء يتم أولادها حتى قال صلى الله عليه وآله لها:

«العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة». رواه أحمد.

ثم رثته رضوان الله عليه بيتين من الشعر، وهو ما عثرت عليهما:

فآليت لا تنفك عيني حزينه عليك ولا ينفك جلدى أغبرا

فلله عيناً من رأى مثله فتى أكر وأحمى فى الهياج وأصبرا

وهى القائلة: ما رأيت شاباً من العرب، كان خيراً من جعفر.

ظلت أسماء صابرة وفيه لذكرى زوجها، وحببها، ورفيق دربها، يظهر كل هذا وغيره من خلال انكبابها على رعايته أولادها، وتنشئتهم تقرؤهم القرآن، وتعلمهم مبادئه، ومفاهيمه، وأحكامه، ولم يشغلها أولادها عن الدعوة إلى الله تعالى بين أخواتها المؤمنات... وبقية مجالسها عامرة بذكر الله تعالى.

وفاؤها لفاطمة الزهراء عليها السلام:

كانت تتوفر على حب كبير، ومودة عالية لسيدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء عليها السلام، ونورد هنا بعض ما روى فى حبها وتعلقها المتواصل بسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام:

فقد روى فى تزويج فاطمة عليها السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر النساء بالخروج، فخرجن مسرعات إلا أسماء فقد تأخرت، فدخل النبي صلى الله عليه وآله.

وهنا تقول أسماء:

"فلما خرج رأى سوادى، فقال: من أنت؟

فقلت: أسماء بنت عميس.

قال: ألم أمرك أن تخرجى؟!!!

فقالت: بلى يا رسول الله، وما قصدت خلافك، ولكن كنت قد حضرت وفاة خديجة، فبكت عند وفاتها، فقلت لها: تبكين وأنت سيدة

نساء العالمين، وزوجة رسول الله صلى الله عليه وآله، ومبشرة على لسانه بالجنة؟!  
فقلت: ما لهذا بكيت.. ولكن المرأة ليلئ زفافها لا بد لها من امرأة، وفاطمة حديثه عهد بصبا، وأخاف أن لا يكون لها من يتولى أمرها.  
فقلت لها: يا مولاتي، لك عهد الله علي إن بقيت إلى ذلك الوقت، أن أقوم مقامك في ذلك الأمر.





ص: ١٢٣

فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال:

"أسأل الله أن يحرسك يا أسماء من فوقك، ومن تحتك، ومن بين يديك، ومن خلفك، وعن يمينك، وعن شمالك، من الشيطان الرجيم."

وروى أيضاً أنها كانت حاضرة عند سيدة نساء العالمين فاطمة، في ولادة الإمام الحسن عليه السلام كما في الرواية التالية...  
تذكير مهم:

وهنا لابد لي من تسجيل هذا التذكير حول حضور كل من أسماء بنت عميس وزوجها جعفر زفاف سيدة نساء العالمين لعلّي عليه السلام، وهي أن أسماء هاجرت إلى الحبشة مع رفاق دربها، وعلى رأسهم زوجها جعفر الطيار، بعد البعثة النبوية، وقبل الهجرة النبوية إلى المدينة، في السنة الخامسة، وكانوا آخر العائدين هي وزوجها وصحبه إلى المدينة دار هجرتهم الثانية، سنة ٧ هجرية، فيما كانت سنة زواج سيدة نساء العالمين من الإمام عليّ عليه السلام سنة ٢ أو ٣ هجرية، أو في السنة الأولى للهجرة، كما عليه بعض الروايات. والمفروض أن أسماء وأيضاً جعفر، كانا في هذا الوقت في الحبشة! فكل هذا وغيره من الأخبار وقع فيه اشتباه، انتبه إليه بعضهم:  
كمحمد بن يوسف الكنجي الشافعي في كتابه «كفاية الطالب» حيث قال:

إن ذكر أسماء بنت عميس في خبر تزويج فاطمة عليها السلام غير صحيح، لأن أسماء التي حضرت في عرس فاطمة إنما هي بنت يزيد بن السكن الأنصاري، ولها أحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله، وأسماء بنت عميس كانت مع جعفر بن أبي طالب بالحبشة، وقدم بها يوم فتح خيبر سنة سبع، وكان زواج فاطمة عليها السلام بعد بدر بأيام يسيرة.  
أما في كشف الغمة، فقد احتمل أن تكون سلمى بنت عميس هي التي حضرت زفاف فاطمة الزهراء.

ص: ١٢٤

وهنا لا بد لي من القول:

١- إن هذه الأنصارية كانت من أهل يثرب وتسكن فيها.

٢- لم تكن مسلمة حين وفاة أم المؤمنين خديجة في مكة، وقد توفيت قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة. والرواية تذكر أن أسماء حضرت وفاة خديجة، وراحت هذه الأخيرة تبكي وتشكو لها خوفها على ابنتها السيدة فاطمة، فيما تعهدت أسماء إن بقيت إلى ذلك الوقت، أن تقوم مقامها، أي مقام السيدة خديجة، في رعاية ابنتها... فكيف لهذه الأنصارية أسماء بنت يزيد بن السكن - وهي في المدينة، وهي لم تكن بعد مسلمة - تأتي إلى مكة لتحضر وفاة أم المؤمنين خديجة، وتعطي ذلك العهد؟!

والنتيجة التي يبدو لي أنها قد تكون الأقرب إلى الصحة، ما احتمله صاحب كشف الغم، من أن الحاضرة ذلك الزفاف، هي سلمى أخت أسماء بنت عميس، وكانت سلمى زوجة لحمزة بن عبد المطلب رضوان الله عليه. وما وقع هو اشتباه من الرواة في أسماء بنت عميس، وفي وجود جعفر أيضاً (١).

وعلى أية حال، فقد كانت العلاقة وطيدة بين سيدة نساء العالمين وأسماء، فهي التي تشرفت بتمريضها أيضاً حتى نفسها الأخير، وقد أوصتها بوصاياها في تكفينها وتشيعها، وهي التي نعتها إلى الإمام علي عليه السلام، وشاركته في تغسيلها، وتكفينها، وترحيلها، إلى مثاها الأخير... (٢) فلما رأت عليها السلام دنو أجلها، وأنها تسرع الخطى للحاق بأبيها صلى الله عليه وآله، طلبت من أسماء بنت عميس أن تحضر لها ماءً لتغتسل به، فاغتسلت، ولبست أحسن

١- أنظر: تاريخ هجرتهم وعودتهم في المصادر التاريخية، ومنها مختصر تاريخ دمشق، ترجمة جعفر بن أبي طالب ٦: ٧٤-٦٢.

٢- أنظر: تاريخ الطبري ٢: ٢٥٣، سنة ١١ وغيره من المصادر.

ص: ١٢٥

ثيابها... و طلبت من أسماء أن تضع لها فراشاً وسط البيت، فاضطجعت في فراشها، و هي مستقبلة القبلة، ثم دعت أسماء و أم أيمن، و طلبت إحضار علي بن أبي طالب عليه السلام، فحضر علي عليه السلام و راحت عليها السلام توصيه بوصاياها...  
 «يا ابن العم! إنه قد نعت إلى نفسي، و إنني لا أرى ما بي إلا أنني لاحقته بأبي ساعة بعد ساعة، و أنا أوصيك بأشياء في قلبي». قال لها علي: "أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله."

فجلس عند رأسها، و أخرج من كان في البيت، ثم قالت: "يا ابن العم! ما عهدتني كاذبة، و لا خائنة، و لا خالفتك منذ عاشرتني." فقال: "معاذ الله، أنت أعلم، و أبز، و أتقى، و أكرم، و أشدّ خوفاً من الله، من أن أوبخك بمخالفتي، و قد عزّ عليّ مفارقتك و فقدك، إلا أنه أمر لا بدّ منه، و الله لقد جددت عليّ مصيبة رسول الله صلى الله عليه و آله و قد عظمت وفاتك و فقدك، فإننا لله و إننا إليه راجعون، من مصيبة ما أفجعها و آلمها و أجزنها، هذه والله مصيبة لا عزاء عنها، و رزية لا خلف لها..."

ومن ضمن ما قالته عليها السلام في وصيتها للإمام عليه السلام مما له علاقة بمقاتلتها هذه:

... أوصيك يا ابن عم أن تتخذ لي نعشاً... (١) و فعلاً، فقد قام الإمام علي عليه السلام بتغسيلها، ولم يشاركه أحد من النساء إلا أسماء بنت عميس، و كان الحسنان يحملان الماء، و يدخلانه إلى المغتسل، ولم يشارك في الغسل، و لم يحضرها غيره، و غير الحسنين، و زينب و أم كلثوم، و فضة جاريتها، و أسماء بنت عميس، ثم صلى عليها علي عليه السلام و كفنها...  
 ثم وضعها على نعش، صنعته أسماء بنت عميس لفاطمة عليها السلام...  
 وقد ذكر المؤرخون، أن أول من حمل علي نعش، هي فاطمة عليها السلام، صنعتها لها

١- أنظر: المجالس الستية للسيد الأمين ٢: ١٢٣؛ و فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد: ٦٠٩ من روضة الواعظين؛ و بحار الأنوار ٧٨: ٢٥٦.

ص: ١٢٦

أسماء بنت عميس، على النحو الذى شاهده فى الحبشة، أيام هجرتها (١).

وقد روى عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام قال:

أول نعش أحدث فى الإسلام نعش فاطمة، إنها اشتكت شكوتها التى قبضت فيها، وقالت لأسماء:

إنى نحلت، و ذهب لحمى، ألا تجعلين لى شيئاً يسترنى؟ قالت أسماء:

إنى إذ كنت بأرض الحبشة، رأيتهم يصنعون شيئاً أفلا أصنع لك؟ فإن أعجبك أصنع لك.

قالت: نعم.

فدعت بسرير، فأكبته لوجهه، ثم دعت بجرائد فشددته على قوائمه، ثم جللته ثوباً، فقالت: هكذا رأيتهم يصنعون.

فقالت فاطمة: إصنعى لى مثله، أسترينى سترك الله من النار

كما ظلت وفيه لبيوت أخرى شاءت السماء أن تحلّ فيها زوجها، بعد أن راح يتمنى الاقتران بها رجال رأوا فيها صدق الإيمان، وعمق

الوعى، ونفاذ البصيرة والعقل والحكمة، فكان الخليفة الأول أول المتقدمين إليها، بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب، ورزقها الله منه

محمدًا، نعم العبد الصالح، المطيع لله ورسوله وأهل بيته، والمتفانيين فى سبيلهم...

تعهدت مسؤولية تربية أبنائها من جعفر، ضمت إليهم ابنها محمد من أبى بكر، وهى تدعو الله أن يصلح بهم، وأن يجعلهم على

الصراط المستقيم...

مع الإمامة:

وقدر لهذه المرأة الصالحة، أن تحل فى بيت ارتضاه الله تعالى أن يكون من بيوته، بيت إيمان و طهر، بيت إمامة وصدق، فتشرفت بأن

تقترن بمن عرف بقرابته

١- أنظر: مثلاً تاريخ المدينة المنورة، لعمر بن شبة ١: ١٠٨؛ والاستيعاب لابن عبد البر.

ص: ١٢٧

القريبة، من رسول الله صلى الله عليه وآله وبقدمه في الإسلام، ونصرته، وجهاده، و بمن وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله بصفات عظيمة، لم تتوفر لغيره كالأخوة، والوصية، والخلافة، والولاية...، وقد عصت على الجميع وأبت إلما أن تكون لعلّي وعلّي فقط. وهو رفيق رسول الله صلى الله عليه وآله وصهره لابنته الراحلة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، وهو شقيق جعفر الطيار زوجها الشهيد، وهو عمّ أولادها الثلاثة. وهو فوق كل هذا وغيره، أروع شخصيّة صنعتها السماء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وبدخولها هذا المنزل المبارك تكون قد دخلت أفضل وأعظم مصداق لمدرسة النبوة والإمامة، و من أوسع أبوابها، لتكون أنموذجاً حياً لأخلاق القرآن والإسلام...

لقد تزوج أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بأسماء بنت عميس، وانتقلت إليه برفقة أولادها الأربعة، ليتذوقوا مفاهيم وقيم النبوة والإمامة، من أصدق منابعها؛ وعاشت معه، فكانت صورةً رائعةً للمرأة المسلمة، والداعية المؤمنة، وقد أولدها يحيى و عوناً، فكانت مثلاً حياً للزوجة الصالحة، والأم المربيّة، فجعلت الإمام عليه السلام معجباً برجاحة عقلها، وهو ما تنطق به سيرتها، و ماتجده واضحاً حينما اختلف كل من ولديها:

"محمد بن جعفر و محمد بن أبي بكر" وراح كل منهما يتفاخر بأبيه، فقال كلّ منهما للآخر: "أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك." وأحال الإمام عليّ هذا الأمر إليها- رضوان الله تعالى عليها- لتقضى بينهما، إذن، كيف استطاعت أن ترضيهما؟! وفتت أسماء بينهما، وقالت غير مترددة ولا- منتظرة طويلاً: "ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر، ولا- رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر." فسكت الولدان، وتصالحا.

فقال عليّ مداعباً: "فما أبقيت لنا أو ما تركت لنا شيئاً، ولو قلت غير الذي قلت لمقتك!"

ص: ١٢٨

قالت: إن ثلاثة أنت أحسنهم خياراً!!! (١).

لقد كبرت في عين عليّ، حتى أصبح يردد في كل مكان:

«كذبتكم من النساء الخارقة، فما ثبتت منهنّ امرأة إلّا أسماء بنت عميس».

و أخيراً رحلت رضوان الله تعالى عليها، وأحداث جسام تعاقبت عليها، كتتمت آلامها، وتعالّت على جراحها، حين جاءها مصرع ولدها محمد بن أبي بكر، فراحت تتلوى مما تركه نأ استشهاده من أثر مؤلم على قلبها، فحبست دمعها، وكتمت حزنها، وعكفت في مصلاها، حتى شخب ثديها ونزفت، ثم فجعت بمقتل زوجها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فلم تعد بعد مصابه قادرة على تحمّل الألم الذي يعتصر بقيّة قلبها الذي انهكه المرض، حتى فاضت روحها إلى العليّ العظيم، في سنة أربعين للهجرة، رضوان الله تعالى عليها.

---

١- أنظر ما رواه زكريا بن أبي زائدة، عما سمعه عن عامر.

ص: ١٢٩

## الرحلة الحجية

للعلامة السيد محسن الأمين العاملي قدس سره

عبد الخالق الصائغ

في كل عام، ومنذ أن أطلق نبينا إبراهيم عليه السلام نداءه بالحج، والمؤمنون يتوافدون على البيت العتيق لأداء هذا الفرض، ولم يُعق الناس عن المعجىء إليه تقلبات الزمان وتقادم السنون، فالبيت الطاهر لم يخلُ من الحجاج منذ ذلك الحين، وحتى في زمن الجاهلية بقيت هذه الشعيرة بعنوانها العام دون مساس؛ إلا اللهم ما شابها من إضافات أهل الشرك في بعض نداءات التلبية أو ما كان من بعض رسوم الطواف، أو ترك الحمس للوقوف بعرفات، لأنهم أهل الحرم كما ادعوا، وكانوا يرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، وهم يعرفون ويقرّون أنها من المشاعر، والحج دين إبراهيم عليه السلام (١).

قال ابن الكلبي في كتابه الأصنام: وفيهم [العرب على ذلك] الشرك وعبادة الأصنام بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفه ومزدلفه، وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه. فكانت نزار تقول إذا ما أهلت: لييك

١- ابن هشام ١: ١٦٢.

ص: ١٣٠

اللهم ليبيك؛ ليبيك لا شريك لك؛ إلا شريك هو لك؛ تملكه وما ملك!. ويؤخّره بالثلبية، ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده... وكانت تلبية عك إذا خرجوا حجاً، قدّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم، فكانا أمام ركبهم.

فيقولان: نحن غرابا عك! فتقول عك من بعدهما: عك إليك عانيه، عبادك اليمانية، كيما نحج الثانية! وكانت ربيعة إذا حجت فقضت المناسك ووقفت في المواقف، نفرت في نفر الأول ولم تقم إلى آخر التشريق (١).

ثم جاء الإسلام؛ فأعاد الأمور إلى نصابها الإبراهيمي، حيث بين النبي صلى الله عليه وآله كل شؤون الحج كما يريد الله تعالى؛ أضف إلى ذلك إلغاء النسيء وعودة مواقيت الحج والعبادات الزمانية إلى حيث شاء الله تعالى أن تكون.

وقد كان لرحلة الحج في الإسلام نكهتها الخاصّة، رغم المعاناة غير العاديّة التي يتكبّدها المؤمنون فيها، وخاصّة بعد عقد الإحرام، حيث يحرم على الحاج أمور كثيرة عدّها الفقهاء في محلّها، ولم تكن رحلة المحرم رحلة يوم أو بعض يوم كما هو الحال في زماننا، حتى يسهل عليه أمر السفر وهو كذلك، وقد حرّم عليه جملة من الأمور.. لا بل كان سفر الحج عموماً يعني رحلة في المجهول من المخاطر، لذا كان من أكثر ملازمات هذه الرحلة كتابة الوصيّة.

وعلى ما وصف بعض مؤرخي السيرة، فقد استغرقت رحلة النبي صلى الله عليه وآله من المدينة إلى مكة أسبوعاً، وليس بين المدينة ومكة غير قرابة الخمسمائة كيلومتر، فكيف حال أهل الشام والعراق، ثم فارس وما بعدها من بلاد الإسلام، وأفريقيا وما والاها؟ لذا قلت: إن رحلة الحج كانت ذات نكهة خاصّة، فهي مغامرة ملؤها القصص، فالحاج إن كتب له العودة بالسلامة إلى بلده، بعد أداء فرضه، يكون لديه من القصص والحكايات ما يشدّ المستمعين.

واليك قصة رحلة من هذه الرحلات، قام بها واحد من كبار علماء المسلمين



ص: ١٣١

من جبل عامل، وهو المرجع المقدس السيد محسن الأمين العاملي؛ لكن، وقبل الخوض في وصف تلك الرحلة، إليك أيها القارئ العزيز هذه النبذة من سيرته، مع ملاحظه أن جميع التواريخ الواردة هنا هي بحسب التاريخ الهجرى القمري:

المجتهد الكبير المرجع السيد محسن الأمين، بن السيد عبد الكريم، بن السيد علي، ينتهي نسبه الشريف إلى زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين عليه السلام، ولد سيدنا الأجل كما ذكر هو (١) في قرية شقراء من بلاد جبل عامل سنة ١٢٨٤؛ وقد أكد ذلك من خلال قرائن، حيث لم يكن تدوين المواليد سائداً في زمانه لاسيما في القرى.

وعندما كان في السابعة، التحق بكتاب لتعليم القرآن ليوم واحد، فلم يرق له البقاء فيه لما رأى من معاناة الطلبة، فقامت والدته بتعليمه القرآن حتى ختمه، وتعلم الخط عند بعض شيوخ العائلة، وبعد ذلك رغب بالدراسة الدينية فتابع دراسة ما ينبغي درسه لطالب العلم من العلوم، كالنحو والصرف أولاً في قريته؛ ثم في قرية عيتا الزط، وبقي في عيتا إلى أن سافر شيخهم إلى العراق، وكانوا يقرؤون عليه المغنى؛ فقصد رحمه الله بلدة أخرى فلم يستفد من شيخها، فقصد الشيخ موسى شرارة في بنت جيبيل، التي اضطر لتركها بعد وفاة الشيخ موسى رحمه الله عام ١٣٠٤؛ والتحق بدرس أستاذ كان قدم من العراق حديثاً فلم يرق له درسه، فتركه، وقال عن نفسه رحمه الله: ولم تكن نفسى تميل إلى عشرة العوام، وكنت أفضى أوقاتي في التدريس والمطالعة والعزلة عن الناس، ونفسي تتوق للهجرة إلى العراق، فلا أستطيع ذلك.

وفي هذه الأثناء، طلبوه للخدمة العسكرية، فاضطر لمغادرة بلده إلى قرية الغور، وهي قريبة من حمص، بقي فيها فترة ثم عاد إلى وطنه، حيث توفيت والدته وأصيب والده بنزول الماء على عينيه فكفّ بصره، وكان للسيد رحمه الله شقيقتان لا كافل لهما غيره فاضطر للعمل، وبقي ينتظر الفرصة المؤاتية للسفر إلى العراق.

ص: ١٣٢

وطلب للعسكرية مرّةً أخرى، وقدّر الله تعالى له أن يُعفى، بعد أن أشار عليهم البعض بتأسيس مدرسة وتسجيلها رسمياً، ومن خلالها يتم تسجيل الطلاب ويتقدّموا بامتحان للحصول على الإعفاء، وفعلوا ذلك ورخصت المدرسة، وقدّم السيد الامتحان في بيروت مع جماعة من الطلبة أمام لجنة خاصة، ونجح، فأعفى كطالب علم؛ وبقي حلم السفر إلى العراق يراوده رغم صعوبة الأحوال، لكنه عزم أخيراً على ذلك متوكلاً على الله، فسافر إلى العراق سنة ١٣٠٨.

كان خلال إقامته في النجف يدرس ويدرس، وكان أساتذته في العراق كما ذكر رحمه الله: السيد علي الأمين، والسيد أحمد الكربلائي، والشيخ محمد باقر النجمابادي، والشيخ ملا فتح الله الإصفهاني، والشيخ ملا كاظم الخراساني صاحب الكفاية، والشيخ آقا رضا الهمداني صاحب مصباح الفقيه، والشيخ محمد طه نجف.

بقي رحمه الله في العراق إلى سنة ١٣١٩؛ حيث كتب له الشيعة في دمشق يطلبون حضوره إليهم والسكن عندهم، فكانت مدّة إقامته في العراق عشر سنوات ونصف كما ذكر هو في غير موضع من ترجمته في كتابه معادن الجواهر (١)؛ وقد ورد السيد رحمه الله دمشق في أواخر شعبان ١٣١٩، وقام بمجموعة إصلاحات كان لا بد من القيام بمثلها لرجل مثله؛ بدأ بالتعليم، حيث لاحظ تفشّي الأميّة، فأسس مدرسة للبنين وأخرى للبنات، وتطوّرت هاتان المدرستان حتى صارتا من أكبر المدارس وأكثرها امتيازاً، وهما مستمرتان حتى يومنا هذا، وقد جعل لهما بعض الأوقاف.

أما مدرسة الذكور فكان اسمها العلويّة، واسمها اليوم المحسّية، ومدرسة

١- معادن الجواهر ٤: الصفحات ١٠١ و ١٠٣ وغيرها، وكانت ترجمته رحمه الله في هذا الجزء من المفروض أن تطبع ضمن كتاب أعيان الشيعة، الجزء الأربعون، لكن السيد رحمه الله قال في مقدمته: وقدّمناه للطبع قبل الوصول إلى محلّه من الكتاب خوفاً من مفاجئة الأجل. وترجمه السيد رحمه الله هنا هي ملخص عن ١٤٥ صفحة وردت في هذا الكتاب بقلمه أعلى الله مقامه.

ص: ١٣٣

الإناث سميت باليوسفية. وقد أطلق السيد رحمه الله اسم اليوسفية عليها تقديراً منه للحاج يوسف بيضون رحمه الله، الذي تبرّع بثمان الدار الذي أقيمت فيه المدرسة، وكان ثلاثة آلاف وثمانمائة ليرة عثمانية ذهبية، وعين ألف ليرة أخرى يصرف ريعها لنفقات المدرسة..

ثم إن سيدنا المترجم رحمه الله، كان يتنقل بين بلدته شقراء ودمشق، واضطر في الحرب العالمية الأولى أن يسكن عياله شقراء، وظل هو يتردد على دمشق؛ فكان يقوم بأداء رسالته الدينية في كل من سوريا ولبنان؛ فكان لوجوده المبارك الأثر الكبير في حل كثير من عويصات المشاكل في حينه؛ وامتد تأثيره المباشر إلى بعض الأحداث السياسية التي وقعت في تلك الفترة في سوريا، وقد نظر الوطنيون السوريون بعد الثورة إليه نظر التبجيل والاحترام، لذا تم تغيير اسم المنطقة التي كان يسكنها إلى "حي الأمين"، وقد كان اسمها قبل ذلك "الخراب"؛ "كما أن الشارع الذي كان يقطن فيه حمل اسمه أيضاً.

رفض رحمه الله تقسيم الحكومة السورية المسلمين إلى سنة وشيعة، وكتب إلى الحكومة أن الشيعة تعتبر المسلمين طائفة واحدة، ولا تريد الافتراق عن إخوانها السنة، فكان لذلك الوقع الحسن عند الوطنيين، فقررت الحكومة أن المسلمين طائفة واحدة لا فرق بين سنيهم وشيعتهم؛ ولما أصدر الفرنسيون قانون الطوائف كان من المحتجين عليه.

وفي وقت لاحق عزم الفرنسيون على إحداث منصب رئيس علماء للشيعة في سوريا ولبنان، وأصدروا مرسوماً بتعيينه لكنه رفض المرسوم.

اهتم السيد رحمه الله بجمع تراث عامله الذي سلم من أيدي العابثين، وعلى رأسهم الجزائر، واشتغل في غالب وقته بالكتابة والتأليف إلى أواخر حياته وقد ناهز التسعين من العمر؛ ولم يكن ليترك الكتابة حتى في السفر، فكان يصطحب بعض كتبه معه، لا بل كان ينشئ أسفاراً لأجل بعض المعلومات التي يحتاج إليها

ص: ١٣٤

لبعض كتبه، لاسيما حين كان يشتغل بكتابه «أعيان الشيعة».

ترك السيد الأمين عشرات الكتب في مختلف المواضيع والعلوم، كانت وما زالت من غرر ما كُتب في مواضيعها، ويعدّ كتابه «أعيان الشيعة» واحداً من أهم آثاره المميزة التي تركها بعد رحيله في جملة من نفائس المؤلفات.

كان للسيد الأمين رحمه الله من القداسة ما جعله ملاذاً في الشدائد، وقد روى أنه استسقى للناس مرتين، بعد قحط وجذب أرهق العباد، حيث إنّ مورد رزق العاملين في ذلك الزمان كان يعتمد بالدرجة الأولى على الزراعة، فخرج بالناس كما ورد في السنّة، صغارهم وكبارهم بعد صيام، ثم صلى بهم صلاةً جامعةً، وتضرّع لله تعالى، وما مرّ على ذلك إلا سويغات حتى أمطروا..

كان يوم وفاته رحمه الله مشهوداً، فقد انتقل إلى جوار ربه الكريم قرابة منتصف ليلة الأحد ٤ رجب ١٣٧١، الموافق ٣٠ آذار ١٩٥٢، وكان لخبر وفاته صدى مسموعاً في أنحاء العالم الإسلامي، وأقيمت المآتم ومجالس الفاتحة عن روحه الطاهرة في مختلف العواصم والمدن الإسلامية.

دفن رحمه الله بجوار السيدة زينب سلام الله عليها في دمشق في غرفة خاصية عند مدخل الحرم، وذلك بعد أن أجرى له أعلى الله مقامه في بيروت تشييع رسمي وشعبي قلّ نظيره، ونُقِل الجثمان الطاهر إلى دمشق بموكب عظيم، واستقبلته الحكومة السورية عند الحدود استقبالاً رسمياً وشعبياً إلى مثواه الأخير.

ص: ١٣٥

## رحلة الحج

فى وصف رحلة حج سيدنا الأجل، اعتمدت على ما ذكره هو فى الجزء الثانى من كتابه معادن الجواهر ونزهة الخواطر، مع تعليقاتين أخذتهما من كتابه أعيان الشيعة، أشرت إليهما فى الهامش.

قال السيد الأمين رحمه الله متحدثاً عن رحلته من البداية، بعد أن عزم على الحج إلى بيت الله الحرام، وكان ذلك سنة ١٣٢١: خرجنا من دمشق يوم الاثنين سابع ذى القعدة الحرام سنة ألف وثلاثمائة وإحدى وعشرون بقصد الحج إلى بيت الله الحرام، فركبنا القطار الحديدى من دمشق قاصدين بيروت فى الدرجة الثانية، بأجرة أربعة مجيديات (١) عن الشخص؛ ودخلنا بيروت بعد غروب الشمس بربع ساعة، فبتنا بها ليلة الثلاثاء، وفى مساء يومها ركبنا فى الباخرة الفرنسية من شركة الميساجيرى فى الدرجة الثالثة، وفيها أربعة درجات، والأجرة ثلاثة أرباع ليرة فرنسية إلى بور سعيد، فتحركت بنا من بيروت فى الساعة الثانية تقريباً من ليلة الأربعاء، فوصلنا بور سعيد فى الساعة الثامنة من يوم الأربعاء...

وبتينا فى بور سعيد ليلة الخميس، وخرجنا منها يومه فى الساعة الخامسة

١- المجيدى عملة تركية من الفضة، وهنا ربما يكون من المفيد ذكر العملات التى كانت تتداول هناك وما تعادله بالنسبة للعملات الأخرى، ونذكر هنا ما كان فى القطيف قريباً من تلك الفترة، فالعملات التى كانت سائدة فى القطيف خلال القرن التاسع عشر الميلادى قبل الاحتلال التركى الأخير، كان منها القران بفتح أوله وثانيه، وهو عملة فارسية فضية، تساوى ٤٠ وجميع تلك العملات اضمحل التعامل بها بعد سيطرة الأتراك على البلاد، حيث حلت العملة التركية محلها، ومن بينها الليرة العثمانية الذهبية التى تساوى ١٢ روبية، والمجيدى وهو عملة فضية تساوى ٣ روبيات، وينقسم إلى فئات منها: الجرخى بالجيم المخففة ويساوى ١٦/١ من المجيدى، والمتمليك والقمرى، وهى أسماء لعملة تساوى ١٤ من الجرخى، وهى بدورها تساوى ١٠٠ باره، والباره أصغر عملة تركية.

ص: ١٣٦

والدقيقة الخامسة في القطار الحديدي الضيق (١)، وهو بقدر عرض الخط الذي بين دمشق وبيروت، قاصدين الإسماعيلية، وكانت العملة تشتغل بإبدال ذلك الخط الضيق بخط عريض؛ فوصلنا الإسماعيلية في الساعة الثامنة من يوم الخميس. والإسماعيلية بلدة في طريق القاصد من بور سعيد إلى مصر، أحدثها إسماعيل باشا أحد الخديويين، فنسبت إليه؛ وانتقلنا في الإسماعيلية إلى القطار الحديدي ذي الخط العريض، وهو أسرع من الأول و أتقن، ولا تسل عن شطط الحمالين الذين ينقلون الأمتعة من قطار بور سعيد إلى قطار مصر في طلب الأجرة، وبين القطارين بضعة أقدام؛ فدخلنا مصر قبل غروب الشمس بنصف ساعة من يوم الخميس، وكانت الأجرة من بور سعيد إلى مصر أربعين قرشاً صحيحاً مصرياً ونصف قرش (٢) فبقينا في مصر ستة أيام. كان السيد رحمه الله مشغولاً في بعض تلك الفترة بتصحيح ملازم رسالته «الروض الأريض في حكم تصرفات المريض»، وقد أرسلها إلى مصر لتطبع هناك نتيجةً لتشدد الحكومة العثمانية في أمر المطبوعات، حيث كان الأمر يستلزم ترخيصاً من الأستانة بعد تقديم نسختين من المؤلف، وما يكلف ذلك من العناء والمال، وأيضاً التشدد غير العادي في مراقبة المحتويات.

مصر

ثم تطرق السيد رحمه الله إلى وصف عظمة مصر، ورخص أسعارها، ووفرة الأشياء فيها، وعظيم محبة المصريين لآل البيت عليهم السلام، واحترامهم للسادة الأشراف، وتحدث عن حسن نظم الأمور فيها في كل شيء، فجميع الناس في راحة خيرهم وفاجرهم، وتطرق إلى سهولة التنقل فيها لانتشار خطوط السكة

١- خطوط القطار على قسمين: الضيق القديم وهو النظام المترى ويبلغ عرض السكة فيه ١٠٦٧ ملم، والحديث القياسي ويبلغ عرض السكة فيه ١٤٣٥ ملم.

٢- و كان كل قرش مصرى يعادل قرشين ونصف رائج الشام.

ص: ١٣٧

الحديد، حيث فيها محطة عظيمة فخمة، ليلها كالنهار من الأنوار الكهربائيّة، وما ليس فيه سكّة من المناطق، فالعربات تصل إليه، وهي كثيرة؛ ثم ذكر الأهرامات وعظمتها وما جاورها من آثار، ومزّ على ذكر حديقّة الحيوانات وما فيها من صنوف الحيوان؛ وقلعة الجبل ومسجد محمد على باشا؛ و الأنتيكة خانة (١)؛ ثم تحدّث عن الجامع الأزهر ومشهد رأس الحسين عليه السلام، قال: وعنده مسجد كبير فخم متقن البنيان.. وتصنع فيه كسوة الكعبة الشريفة التي يبعث بها المصريون كلّ سنة.

ثم ذكر مشهد السيدة زينب وتعظيم أهل مصر للمشهدين، وشبهه تعظيمهم بتعظيم العراقيين لمشاهد أئمة أهل البيت عليه السلام.. وذكر من المشاهد: مشهد السيدة نفيسة، والإمام الشافعي.. ثم عاد لذكر بعض أهم معالم مصر، وهي القناطر الخيرية؛ ثم ذكر لقاءه بالشاعر الشهير الشيخ عبد المحسن الكاظمي الذي زار السيد بصحبة نقيب الأشراف، وكان بينهما كلام حول نظام التعليم في النجف، ومقارنته ذلك بالنظام المتبع في الأزهر..

السويس وبور توفيق

قال رحمه الله: وبعد أن أقمنا بمصر ستة أيام، ركبنا القطار الحديدي إلى الإسماعيلية، فالسويس، فبقينا فيها يومين، ثم ركبنا البحر في مركبٍ يسمى عبد المنعم، من المراكب الخديوية، وأكثر عمّاله من المصريين، بأجرة ٢٥٠ قرشاً مصرياً صحيحاً في الدرجة الثانية و ١٥٠ في الدرجة الثالثة الأخيرة.

وأطرى السيد على ما رأى من حسن الترتيب في السويس، فقال: إن ميناءها التي تسمى «بور توفيق» نسبةً إلى توفيق باشا الخديوي، وتبعد عن البلد مسافة، ولها قطار حديدي مخصوص يذهب ويجيء كل ساعة مرة، وقد جعل لها مرفأً تصل إليه المراكب العظام إلى جنبه (٢)، فتخطوا الركاب من البر إلى المركب

١- المتحف.

٢- يريد بذلك رصيف الميناء.

ص: ١٣٨

بدون حاجة إلى زورق، وعند مدخل المرفأ باب كبير، وعلى جانبه جنديان ينظمان الدخول بالدور، فأول ما تؤخذ أمتعة الركاب، يأخذها الحمالون بالعدد، ويحفظ صاحبها نمره الحمال، وذهبت مع بعض رفقاتنا لعلنا نتمكن من الدخول فنختار مكاناً موافقاً، لأننا أخذنا مكاناً في الدرجة الثانية، وليس في المركب درجة ثانية، فجعلوا ظهر الدرجة الأولى بدل الدرجة الثانية، وكان خيراً من الدرجة الأولى.

قال رحمه الله: فلما وصلنا الباب رأينا جماعة من المغاربة معتمين، عليهم البرانس يحاولون الدخول، فمنعهم الحرس فلم يمتنعوا، فأعملوا فيهم ضرب السياط، فوفقت مع رفيقي ناحية، فلما رأني الحرسيان أشارا إلى أن تعال، فأتيت، فقالا: يا شريف! تريد أن تدخل؟ قلت: نعم؛ قال: تفضل؛ قلت: ورفيقي؟ قال:

ورفيقك؛ فدخلنا قبل كل أحد، وفي أيدينا أوراق المركب والكرتينا والجواز؛ واخترنا لأنفسنا ولمن معنا من النساء والرجال أمكنة حسنة واسعة، ثم جاء رفقاؤنا؛ وأقلع بنا المركب من السويس مساءً، فوصل الطور ضحوه الغد، وبقي هناك ينقل ما حمله إلى الطور من آلات البناء، لأجل بناء محجر في الطور بقيه ذلك اليوم والليله التي بعده وفي غدها إلى الليل.

ثم أقلع من الطور قاصداً جدّة، فوصلناها بتمام الراحة؛ لأن البحر كان ساكناً إلا في موضع يدعى بركة فرعون ورأس أم محمد، فهاج البحر، وهاجت المرّة الصفراء بأكثر الحجاج، وذلك بعدما أحرمتنا بيسير، وكنا في الليله التي أحرمتنا في صبيحتها اغتسلنا في حمام في المركب، منارٍ بالكهرباء، يجيء ماؤه من البحر، ويغسل فيه الإنسان منفرداً بأجرة قليلة؛ ولبسنا ثوبى الإحرام بعدما خلعتنا المخيط.

نذر الإحرام قبل الميقات



ص: ١٣٩

في الصباح، نذرنا الإحرام قبل محاذاة الميقات، تخلصاً من الإشكال [معرفة محاذاة الميقات للإحرام وعدم تجاوزه] بناءً على ما هو الحق من جواز الإحرام قبل الميقات بالنذر... وتحدثت أعلى الله درجاته عن مسألة النذر للإحرام، ثم تطرقت للكلام عن كيفية تعيين محل الوفاء من خلال الساعة؛ لعدم إمكان تشخيص الأماكن في البحر، لذا لا يمكن الاعتماد على غير الوقت للدقة؛ لذلك قال رحمه الله:

وعيننا مكان الإحرام حين النذر بالساعة، على أننا إن بقينا إلى المكان الذي تكون فيه الساعة كذا نحرم من ذلك المكان، فلما صارت تلك الساعة عقدنا الإحرام بالتلبية، وبقينا مستحضرين للنية مكررين للتلبية حتى وصلنا المكان الذي قال الربان: إنه يحاذى الميقات، وهو «الجحفة» القريبة من رابع، وأذن الربان بذلك بصفير المركب، وتجاوزناه كثيراً ونحن نلبي مستحضرين للنية، ولكن ظهر لنا بعد ذلك أن من يريد الاحتياط التام، فلينذر الإحرام من السويس...  
إجراءات الوقاية من الأمراض والأوبئة في ذلك الزمان

قال رحمه الله: ولما وصلنا جدّة، نزلنا في سفينة أقلتنا إلى جزيرة في البحر، مسافة ساعة عن جدّة تقريباً، لأجل تبخيرنا وتبخير الفراش والدثار فقط، ليموت ما فيها من الميكروب، خوفاً من سراية الأمراض الوبائية، وذلك بسبب مرورنا على مصر، مع أنها خالية من كل مرض وبائي، وكل من يحضر من الديار المصرية يأخذ ورقة من إدارة الصحة بأنه سالم من كل مرض، فيدفع رسماً عن ذلك ثلاثة قروش صحيحة وكسراً؛ فسرنا محرمين والبحر هائج، والشمس تصهرنا، والبحر يقذف علينا من مياهه، حتى وصلنا الجزيرة بغاية المشقة، فوجدنا السفن حولها مملوءة بالحجاج، والشمس على رؤوسهم، ومنعوا الناس من دخول الجزيرة تحكماً بلا فائدة مظنونة ولا موهومة، إلى أن أخذوا الفراش، ووضعوه في المبخرة ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة حتى دخل البخار في أعماقه، ورشوه بالفينيك، ثم أذنوا للركاب بدخول الجزيرة من باب مخصوص، وأوقفوهم في مكان مخصوص، ثم أمروهم بالخروج من باب آخر، كأنهم قطع غنم يصرفه الراعي كيف يشاء، وهذه الجزيرة لا ماء فيه ولا كلاً، فأضرب العطش بهذا الجمع

ص: ١٤٠

المحتشد.. وبعد هذا أعطوا ورقةً بأسماء الراكبين في السفينة، ليأذن لهم أهل الميناء بدخول البلد.

الوصول إلى جدّة

ثم سرنا من الجزيرة قاصدين جدّة في حرّ الظهيرة، والأمواج تفيض على الوجوه والرؤوس والأبدان والأردية والأزر، والسفينة تصعد تارةً وتهبط أخرى، ونحن في خوف من الغرق لشدّة الأمواج، ولولا الذهاب إلى الجزيرة لوصلنا الميناء بسهولة.. وعند الوصول إلى الميناء، أخرجونا من السفينة وأدخلونا من باب، ونحوا السفينة إلى باب آخر، وفيها الأمتعة مع الملاحين، ثم أتوا بنا إلى شبّاك، والمأمور داخل الشباك، فقال إنسان: ادفعوا عن كل شخص نصف مجيدي، فدفعنا؛ وأخذنا أوراقاً، فمشوا بنا قليلاً وأخذوا الأوراق، وقرضوها بمقراض، ثم أتوا بنا إلى مكان قريب من هذا المكان، وأخذوا جوازات السفر وقالوا: ادفعوا عن كل جواز غرشين وربعاً صحيحة، فدفعنا، وأعطوا كل واحد ورقة علامة على أنه دفع ما عليه، ليأذن له البوّاب بالخروج؛ فخرجنا، ووجدنا السفينة واقفة، فأخذنا منها الأمتعة؛ وبسبب قلّة الركاب، لم يسرق منها شيء، ولكن لا تسل عن الذين جاءوا بعدنا عصرًا، ولم يصلوا إلى أمتعتهم إلا بعد ظلام الليل، ماذا جرى عليهم؟! وكم فقد من أمتعتهم؟ وكم باكية لفقد نفقتها التي وضعتها داخل خرجها.

وبعد فراغنا من مزاوله هذه المشاق دخلنا البلد، ونزلنا داراً عاليةً البنيان متسعةً البيوت، فيها أربعة طبقات، كما هو الحال في أكثر بيوت جدّة، والأجرة عن كل نفس ثلاثة قروش صحيحةً يومياً، فبقينا في جدّة ستة أيام ننتظر أمتعتنا المشحونة من بيروت، فبعد وصولها ومعاناة مشقة التفتيش في الكمرك، سافرنا قاصدين مكة المكرمة؛ وفي جدّة زرنا قبر أمتنا حواء، وقبرها خارج البلدة، مفرط في الطول.

ص: ١٤١

مدينة جدّة

وجدّة مدينة مسوّرة، لها ثلاثة أبواب، وفيها قنصل الدول، ولا يؤذن لغير المسلمين في الخروج خارج السور، ويوجد فيها كثير من السودان الغُبر الألوان، وما فيها إلا الجائع العريان، وأسعارها غاليه، وماؤها أجاج متنن، يتجرّعه الشارب ولا يكاد يسيغه، والسقاء الصغير منه بقرش واحد صحيح، ولكن ظهر لنا بعد ذلك أن فيها ماء حلواً في الصهاريج من ماء المطر لم نعلم به.

الخروج من جدّة

وعن الذهاب من جدّة إلى مكة قال رحمه الله: وكانت أجره البعير من جدّة إلى مكة تسع مجيديات وربعاً وعرشين صحيحين، ولكن لا يصل إلى الجمال منها إلا اليسير، والباقي يأخذه المخرج باسم الحكومة؛ وقطع الأجره بأمر من الحاكم، وكل جمال يأخذ كوشاناً بعدد ما معه من الأباعر، بعد دفع الرسم المفروض عليه، والذي ليس معه كوشان لا يدعونه يدخل مكة حتى يؤخذ منه الرسم، والذي يركب مع الأعراب خارج جدّة يأخذون منه نصف هذه الأجره أو ثلثها، وهم يصيحون في الطريق: يارويجب، يارويجب. وعند الخروج من باب جدّة أخذوا عن كل بعير عرشين صحيحين، وبسبب الوقوف بالباب، سرقت أمتعه لكثير من الحجاج، وأكثر سراقها أفراد العساكر النظامية الموضوعين لحفظ الأمن؛ وسرق لنا إبريق نحاس.

وسرنا من جدّة إلى بحره فوصلناها بعد الغروب؛ وأدركتنا صلاة الظهرين في الطريق، لأننا خرجنا من جدّة قبل الظهر، فنزلت أنا وزميلي من الخشب (١) وتوضئنا أولاً، ثم سرنا قليلاً وصلينا الظهر، ثم سرنا كذلك وصلينا العصر؛ لأنه لا يمكن الانقطاع عن القافلة لحظة من خوف الطريق، مع أن العساكر النظامية

١- وهو مركب طويل له شفتان يركب فيه اثنان على بعير واحد.

ص: ١٤٢

منتشرة من جدّة إلى مكّة، في السهول وعلى رؤوس الجبال، ينفخون في بوقاتهم، فيجيبهم الآخرون؛ ولكن هؤلاء العساكر لا يفترون عن سرقة ما يمكنهم من أمتعة الحجاج؛ وصادف أنه بينما نحن نسير، إذا بامرأتين من رفقاتنا راكبتين في خشب شامى وقف بهما البعير عجزاً عن السير، وأباعر الحجاز دقيقة الساق لا تقوى على حمل الخشب الشامى، فنزلت أنا ورفيقتى نمشى وأركبناهما مكاننا إلى بحرة، فوصلناها بعد الغروب.

بحرة

وهى فى وسط الطريق بين جدّة ومكّة، وكلّها قبائح مملوءة من القراد الذى يلتصق بالأجساد، وماؤها كماء جدّة، وليس فيها مسكن إلا أرض محاطة بقصب ونحوه ينزل فيها الحجاج، ويبدل لهم أهلها الماء والضياء والحطب لقاء دراهم يأخذونها، وقد أتونا قريباً من نصف الليل بوجههم السوداء الكالحة، بأيديهم المشاعل، وعلى متونهم البنادق، وجعلوا يوقظون الحجاج بعنف وإزعاج، وقد أخذهم النعاس، وأضناهم التعب، ويطلبون منهم أجره ويشتطون فى المقدار، ويعتفون بالناس كأنّهم يأخذون جزيه، وكانّهم زبانية جهنم أو منكر ونكير؛ ومن لم يدفع لهم كما طلبوا، وهو أضعاف ما فرض لهم، أو سعوه شتماً، بل وضرباً إن تمادى فى الامتناع؛ وإذا هدّدهم بالحاكم، سبّوه وسبّوا الحاكم، فقبحوا من قوم سوء.

ثم سرنا من بحرة صباحاً، فوصلنا مكّة عند العصر، وقد سلبت فى هذا الطريق قوافل قبلنا وبعدنا ومعنا، وجرى قتل ونهب فى أكثر الأوقات، أما نحن فلم نر شيئاً من ذلك، والحمد لله.

حدود الحرم

هناك أحكام تتعلق بحدود الحرم والمشاعر، منها حرمة الدخول لغير المحرم، ولزوم الوقوف فى نفس عرفات والمكث فى المزدلفة والمبيت فى منى، وكلّها لها

ص: ١٤٣

حدود معلومة منذ القدم، ويحدّثنا السيد الأمين رحمه الله عن هذه العلامات التي كانت واضحة، عندما خرجوا من جدّة ووصلوا إلى مكة، قال رحمه الله: وقبل الوصول لمكة المشرفة رأينا العلامات الموضوعه في أول الحرم من جهة جدّة، فقرأنا الأدعية الواردة عند دخول الحرم، ولم تتمكن من الغسل.

مكة المكرمة

ونزلنا في مكة في شعب عامر، في دار رجل يمانى قاطن في مكة، في دار جيدة، وكان وصولنا إليها قبل هلال ذى الحجة بيومين، ورأينا الهلال ليلة الجمعة خفيفاً جداً قبل مغيبه بيسير، وكان ذلك من جملة نعمه تعالى علينا، فكان الوقوف بعرفة في يوم واحد لجميع المسلمين.

وبعد أن أدوا عمرة التمتع، قال رحمه الله: وفي يوم التروية ثامن ذى الحجة، اغتسلنا وأحرمنا للحج من مقام إبراهيم عليه السلام، وخرجنا قاصدين منى، فوصلناها مساءً، ونزلنا قرب مسجد الخيف، وصلينا فيه تلك الليلة المغرب والعشاء، وخرجنا منها صباحاً إلى عرفات، وقد وضعت علامات بآخر الحرم من جهة عرفات، فنوينا الوقوف بعرفات من الزوال إلى الغروب، وكنا في مجموع هذه المدّة مشغولين بالدعاء والتضرّع إلى الله تعالى لنا ولإخواننا المؤمنين، وزرنا الإمام الحسين عليه السلام... وبعد الغروب نفرنا من عرفات راجعين إلى المزدلفة وهي المشعر، وتسمى جمعاً أيضاً، وهي بين منى وعرفات، وقد وضعت علامات لحدود عرفات من جهة المشعر، لأنه لا يجوز الخروج من حدود عرفات قبل الغروب...

والمأزمان بالهمز أيضاً في تلك الأماكن تثنية مأزم، والمأزم الطريق الضيق بين جبلين، والمأزمان أحدهما مضيق بين جمع وعرفة والآخر بين مكة ومنى...

قال رحمه الله: وبذلك نفر يتذكر الإنسان يوم النشور، فبتنا في المشعر، والتقطنا منه الحصيات حسب الاستحباب.

ص: ١٤٤

يوم عيد النحر

وفى الغد رجعنا إلى منى، وهو يوم عيد النحر [الأضحى] وبعد الوصول بيسير ذهبنا إلى مكان بيع الأضاحى، فاشترينا هدياً بليرة عثمانية، حسب ما طلب بئعه، ولم نساومه لكرهه المساومه فيه، وذبحناه وتصدّقنا بثلثه، وأهدينا ثلثه، وكانت الجنود تمنع من حمل اللحوم إلى الخيم، خوفاً من انتشار الروائح الكريهة، على أنه لم يكن منعاً شديداً، فأخذنا شيئاً من الهدى لتأكل منه حسب الاستحباب؛ ومن لم ير ذلك المكان، لا يعلم حقيقة معنى قول القائل «مجزّرين كالأضاحى»، وبعد الزوال عمدت جنود الحكومة إلى جمع ما بقى من تلك اللحوم والأوساخ المطروحة في مكان الذبح، فدفنتها في حفر أعدت لذلك، ولم يحدث في الحاج مرض في تلك السنة في منى وعرفات، وكانوا بتمام الصحّة، وكان الحاج متوسط العدد.

ويبدو من وصف السيد رحمه الله أنه لم يكن هناك زحام كالذى نشهده اليوم، ولو نسبياً، حيث لم يتحدّث عن تدافع ولا اختناقات ولا غيرها، حتى فى أعمال الحج من الرجم والطواف عندما تطرّق لها، كما سنرى، فإنّه أتمّها بسهولة ويسر فى نفس اليوم، حيث فى رحلته الثانية سنة ١٣٤١ هـ ذكر الزحام الذى كان ضمن طيات الكلام تلميحاً.

الجمرات الثلاث

وبعد النحر ذهبنا لرمى جمرة العقبة [هكذا أورد السيد رحمه الله الترتيب] وهى أوّل جمرة من جهة مكّة، وبعدها جمرة تسمى الوسطى، وبعدها جمرة تسمى الأولى لأنها ترمى أولاً فى الأيام التى ترمى فيها الجمرات الثلاث، وجمرة العقبة تسمى الأخيرة، لأنها آخر ما يرمى إذا رُميت الجمرات الثلاث، وذلك فى الحادى عشر والثانى عشر من ذى الحجة... أما فى يوم النحر، فلا ترمى إلا جمرة العقبة فقط، وأصل الجمرة مجتمع الحصى.

وجمرة العقبة بناء فى سفح الجبل، ظهرها إلى الجبل ووجهها إلى الطريق الذى

ص: ١٤٥

بين مكّة ومنى، والوارد استقبالها فى الرمى، أى رميها من قبل وجهها لا رميها من أعلاها، بحيث يصعد فى الجبل ويرميها من فوقها، وسميت جمره العقبة لوجود عقبة هناك ليست بعالية، فإن الطريق من مكّة إلى منى يأخذ فى علو سير، لا يدرك حتى يصل إلى قريب منى، فهناك ترى عقبة يسيرة، تصعدنا فتصل إلى منى؛ وهى سهل فسيح تكتنفه جبال شاهقة من الجنوب والشمال، وكذلك عرفات، وأكثر بلاد الحجاز طرقها فى سهول تكتنفها جبال.

بئر زمزم

ولم يكن بمكّة قديماً غير ماء بئر زمزم، التى هى قرب الكعبة المشرفة، وماؤها لا يخلو من مجوّه يسيرة، وكان الحجاج يحملون الماء معهم من مكّة إلى منى وعرفات عند خروجهم إليها يوم الثامن من ذى الحجة، ولذلك سمى يوم التروية. العودة إلى مكّة

وبعد أن رمينا جمره العقبة يوم العيد حلقتنا، وفى اليوم الثانى رجعنا إلى مكّة، وطفنا طواف الحج، وسعينا بين الصفا والمروة، وطفنا طواف النساء، وصلينا صلاة الطوافين، وذلك لأنّ المستحب الرجوع إلى مكّة يوم العيد بعد الرمي والحلق، لأجل طواف الحج، الذى يسمى طواف الزيارة، أى زيارة البيت، ولأجل السعى وطواف النساء... فإن لم يتمكن من الرجوع إلى مكّة يوم العيد ففى الذى بعده، وحيث لم يمكننا الذهاب يوم العيد ذهبنا فى الحادى عشر، ثم عدنا إلى منى فبتنا بها ...

الزينة بمنى

يبدو من خلال ما ذكره سيدنا المقدّس رحمه الله أنّ هناك طقوساً كانت تجرى للاحتفال بالعيد فى منى، ونقل أعلى الله درجاته بعض ما كان يجرى بقوله: وفى

ص: ١٤٦

تينك الليلتين، كانت منى فى زينئ عظيمئ، تضرب بها المدافع من مكان المحملين الشامى والمصرى، فيتردد صداها فى تلك الأودية والجبال، وتعلو الحزاقات فى الجوّ بألوانها المختلفة البديعة الشكل.

ثم قال رحمه الله عن باقى أعمال الحج: ورمينا الجمرات الثلاث فى ذينك اليومين ثم عدنا إلى مكئ يوم الثانى عشر بعد الظهر. وكما فى كل عام، يكون فى الحج بعض الزعماء، وذوى الجاه، وفى تلك السنة كان منهم جماعة ذكر منهم رحمه الله: امرأة من ملوك الهند، وبعض ملوك الغرب، ووزير الصدر فى إيران ميرزا على أصغر خان الملقب أمين السلطان. المزارات بمكئ

وتشرفنا فى أثناء إقامتنا بمكئ بزيارة قبور: أبى طالب، وعبد المطلب، وعبد مناف عليهم السلام، وخديجة بنت خويلد أم المؤمنين عليها السلام، ومولد النبى صلى الله عليه و آله ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام وغيرها من الأماكن المشرفة. وصعدنا إلى جبل أبى قبيس، وهو مشرف على الكعبة المشرفة.



ص: ١٤٧

## الدخول إلى الكعبة المشرفة

ودخلنا ليلاً إلى الكعبة المشرفة، وصلينا في جوانبها الأربعة، وعلى الرخامة الحمراء، وهي ما بين العمود الأخير الذي يلي حجر إسماعيل، والذي قبله، فإن فيها ثلاثة أعمدة من خشب، ممتدة من وسط الحائط الذي بين الركن اليماني ... إلى وسط الحائط الذي يلي حجر إسماعيل وباب الكعبة المشرفة، قريب من الركن الذي فيه الحجر الأسود، عال عن الأرض بأزيد من قامته، يُصعد إليه بدرج منقول، وقوام الكعبة الذين بيدهم مفاتيحها هم بنو شيبه منذ عهد الجاهلية إلى اليوم، ورأينا داخل الكعبة حراً شديداً لعدم المنافذ، مع أن ذلك كان في وسط الشتاء، لكنّ شتاء الحجاز كقيظ الشام، وقرأنا في حائطها الداخل، الذي بين الركن اليماني والركن الذي يلي حجر إسماعيل تاريخ تجديد رخامها الداخل من أبي جعفر المنصور المستنصر بالله في حدود الستمائة، وهذا هو أبو جعفر منصور بن الظاهر ويلقب بالمستنصر، وهو والد المستعصم آخر ملوك بني العباس، وتاريخ آخر بتجديده من السلطان محمد خان في حدود الثمانمائة، وآخر من بعض الملوك.

## الشريف عون

وكان حج السيد رحمه الله في إمارة الشريف عون، وولاية أحمد باشا والي الحجاز. أما عن علاقة أمير مكة بأهلها فقال رحمه الله: وكان أهل مكة يخافون الشريف عوناً ويغضونه، خوفاً وبغضاً شديدين، ويميلون إلى ابن أخيه الشريف علي، الذي تولّى إمارة مكة بعد وفاته. ووالى الحجاز من قبل الدولة العثمانية ليس له مع الشريف من الأمر شيء، وعنده عساكر نظامية؛ وعند الشريف عسكر يسمّى البيشة.

وبقى سيدنا رحمه الله في مكة إلى الثامن والعشرين من ذي الحجة الحرام، حيث خرج منها بطريق البر مع أمير الحج الشامي عبد الرحمن باشا اليوسف، من

ص: ١٤٨

أمراء أكراد صالحية دمشق.

قال رحمه الله: فخرجنا من مكة إلى الشيخ محمود، وهو بمسافة ساعة عن مكة، وكانت أجرة الخشب الشامي من مكة المكرمة إلى دمشق اثنين وأربعين ذهباً عثمانياً في حمل الحاج علي آغا الشيرازي، وذلك مع أجرة الذهاب والإياب إلى عرفات. وأجرة الكجاوى اثنين وثلاثين ذهباً، والراكب أحد عشر ذهباً.

والشيخ محمود مسمى باسم ولي مدفون هناك، قال رحمه الله: ثم ارتحلنا صباحاً من الشيخ محمود إلى وادي فاطمة كما يسميها أهل الشام، وأهل العراق يسمونها وادي الشريف، وهو الذي كان يسمى بمر الظهران، أو بطن مرّ، وهو مكان فيه نخل ونهر جار وهو [على] مسافة أربعة فراسخ عن مكة تقريباً، يباع فيه لحم الضأن الجيد، والبيض والبطيخ الأخضر والطماطم والليمون الحامض الصغير الأخضر... وغير ذلك، فبتنا فيه ورحلنا منه صباحاً إلى عسفان، فوصلناه مساءً، وهو مكان مشهور، له ذكر، وهو الذي حبس فيه هشام بن الحكم الفرزدق الشاعر لما مدح الإمام زين العابدين عليه السلام بالميمية المشهورة.

والمسافة بين عسفان ووادي فاطمة نحو من اثنتي عشرة ساعة، وريّضوا نحواً من ساعة عند منتصف النهار كما هي العادة، ويسمونها راضة الظهر؛ فيبقون الأحمال على الجمال، ولا ينصبون الخيام، فيتغدّون ويصلّون ثم يسرون.

وعادة الركب الشامي أن يضرب مدفعاً عند النزول وآخر عند الرحيل؛ ولما لم يتحقق زوال الشمس قبل المسير صلّينا الظهرين في أثناء السير، وحملنا الماء من وادي فاطمة إلى عسفان، وقيل: إن بعسفان ماءً، لكن يتعسر الوصول إليه لدخول الليل، ومنع العسكر المحافظ على الحجاج من الخروج خارج «الزنجير»، أي العسكر المحيط بالحاج من العسكر النظامي والجنדרمة، الذين رسمهم أن يسيروا يمين الحاج وشماله حالة السير، ويحيطون به عند النزول، فلا يدعون في الليل أحداً يخرج ولا أحداً يلج إذا لم يعرفوه، فيصيحون به ثلاث مرات، فإن لم يجب رموه

ص: ١٤٩

فقتلوه؛ كما وقع ذلك لبعض الحجاج الذين لا يعرفون العربية، وطول الليل يتصارخون، فيصيح أحدهم «كركون» فيجيبه الذى يليه «حازرون»، وهكذا دوراً حتى تنتهى النوبة إلى الأول، فلا يزال هذا دأبهم طول الليل.

وفى الأعيان ذكر السيد رحمه الله هؤلاء الحرس المرافقين للحاج فقال عنهم:

والجمال قطاران تحيط بهما العساكر السلطانية يميناً و شمالاً، ففى أحد الجانبين عسكر شاهانى على بغال، و فى الجانب الآخر «جندرمة» على خيل ذكور؛ و بين كل واحد و آخر مرمى حجر، و أمام الكل قائد معه مدفع على جمل؛ فإذا وصل الحاج إلى المنزل أقام قسم من هذا العسكر بالتناوب حول الحاج بينادقهم و بين الواحد و الآخر مرمى حجر فيصيح الأول «كركون» فيجيبه الآخر «حازرون» و يصيح للذى بجانبه كركون فيجيبه حازرون حتى ينتهى الدور و يبدأ غيره فلا يزالون كذلك إلى الصبح (١).

قال رحمه الله: وفى ساقه الحاج عسكر من عرب عقيل، موظفون من طرف الحكومة لحمل الضعيف والمنقطع به؛ لكنهم لا يفعلون ذلك إن لم يسلبوه.

النظام فى القافلة الشامية

وجاء السيد رحمه الله على ذكر النظام المتبع فى مسير قافلة الحج الشامية، فقال: وكان للحاج الشامى من الترتيب والنظام ما يوجب راحة الحجاج؛ من ذلك أن السير يكون بقطارين أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار. والحاج قوافل متعددة، ولكل واحدة رئيس، يسمى «مقوماً»، ويسميه العجم وأهل العراق «حملدار»، فيسير كل رئيس بقافلته، ميمنة وميسرة، هذا أولاً وذاك بعده، وهكذا فى كل يوم، وجمال كل قافلة لا يتغير مكانها، فمن كان بعيره أولاً فى أول يوم بقى كذلك إلى آخر يوم، ومن كان فى الميمنة، لا يتحول إلى الميسرة، وبالعكس.

ص: ١٥٠

وإذا سارت الجمال ليلاً، حمل قائد كل جمل، ويسمى عكّاماً، فانوساً بيده؛ فيرى لهم من بعيد صورة جميلة، فيرى الرائي مصابيح تتقد في البر سائرة صفين، ولا يرى غيرها. وخيام كل قافلة لها جمال مخصوصة وأناس مخصوصون يسمون «المهاترة» يسبقون الحجاج، وينصبونها أول يوم على ترتيب خاص لا يتعدونه إلى آخر السفر، وخيام كل قافلة في مكان مخصوص لا تتعداه، هذه أولاً، وتلك بعدها، وهكذا. وكذلك كل خيمة لها مكان مخصوص لا تتعداه؛ وخيام كل قافلة كأنها بلد بنفسها، بأزقتها وبيوتها، لا تتغير، فلو ضلّ إنسان في حال السير أو النزول، يهتدى إلى مكانه بأيسر ما يكون، حتى كأنه في بلده.

وفي ذلك اليوم [يوم المسير من وادي فاطمة إلى عسفان] وقع كثير من الأباعر بأحمالها في أثناء الطريق، ما يقرب من خمسين بعيراً، بعضها قضى نجه في الحال، وتناولته شفار السودان الذين يسرون مشاةً مع الحجاج، فقطعته إرباً إرباً، وربما كان ذلك قبل خروج روحه؛ وبعضها سلم بعد وضع حمله على غيره، ومداواته بالفصد في أنفه، وصب الماء على سنامه وبدنه، وذلك على ما قالوا بسبب سمنها واشتداد الحر، مع أن الفصل شتاء، ولكن من «البارخانة» التي نحن فيها، لم يمت بعير واحد. ورأينا هلال المحرم بعسفان، ليلة السبت مفتتح ١٣٢٢. وفي عسفان بئر يسمى بئر التفلة، يقال: إن النبي صلى الله عليه وآله تفل فيها فعذب ماؤها.

الخُلَيْص وتعرض بعض الحاج للسلب

قال السيد رحمه الله: وخرجنا صباحاً من عسفان، قاصدين الخُلَيْص، بوزن المصغّر؛ فوصلناها منتصف النهار، وماؤها لا بأس به، وفيها البطيخ الأخضر الجيد والقثاء والبصل واللحم وغير ذلك، وفيها بعض النخل، وهي مسكونة من الأعراب، ثم سرنا منها صباحاً، فثار بعض الأعراب على رجلين من أهل معزة النعمان، معهما بعير وأحدهما راكب عليه، فجرحوا الماشى وأخذوا هميانه بما فيه من النقود وأخذوا الراكب وجمله، فذهبوا به، ولا يعلم رفيقه حتى أم ميت؛ رأيت

ص: ١٥١

يمشى فى الطريق مضرّجاً بدمائه وقد ورم رأسه من الشمس، حتى أخفى الورم عينيه. وهؤلاء الأعراب - كما قال لنا شيخ الفراشين حينما كنا فى داره فى المدينة المنورة وعنده بدوى - فقال مشيراً إليه: هذا وقومه يشتغلون فى وقت الحج بسلب الحجاج، فإذا انقضى الموسم اشتغلوا بالحرب والغارة بينهم؛ لا شغل لهم إلا ذلك.

فوصلنا إلى الكظيمة - بفتح الكاف - قبل الغروب بأربع ساعات، وفيها بئر عظيمة وهى مسكونة من الأعراب، يباع فيها التمر والبطيخ واللحم وغيرها، وفيها من البنادق الدولية من كل جنس، حتى إننى رأيت فيها بندقية إيرانية؛ وفى مائها ملوحة ورحلنا منها ليلاً فى الساعة الثامنة والنصف إلى رابع، وإنما مشوا ليلاً لبعث المنزل، وخوف سقوط الأباغر من الحر، كما جرى بين وادى فاطمة وعسفان؛ فوصلناها عند الغروب، وهى الجحفة أو قريب منها.

وفى محلّ يبعد عنها بعض البعد مسجد غدير خم، وهو مسجد بُنى فى الموضع الذى نصب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله عليه السلام وصياً وخليفةً بعده، فنزل فى ذلك الموضع فى حر الظهيرة، وخطب الناس فقال: ألت أولى بكم من أنفسكم؟ فقالوا: بلى.

قال: من كنت مولاه، فهذا على مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه كيفما دار، فى حديث مشهور. وكان المسجد متهدّماً، فبناه بعض ملوك الهند من الشيعة، ولم يمكننا الذهاب إليه لخوف الطريق.

ورابع ميناء على شاطئ البحر الأحمر، عامرة وماؤها شروب، وفيها قلعة صغيرة بعيدة عن البلد، يسكنها شردمة من العسكر العثماني، وحين وصول الحجاج رفعوا العلم العثماني، وأطلقوا عدّة مدافع كما هى العادة؛ لكن العداوة بينهم وبين أهل رابع متأصلة، فلا يجسرون على الخروج إلى السوق أو لجلب الماء إذا كانوا دون العشرة. وفيها من البنادق الدولية المختلفة الأجناس ما لا يحصى عدده، وهو أزيد مما فى الكظيمة، وكذلك أكثر بلاد الحجاز. وجملة من الحاج يشتررون

ص: ١٥٢

البنادق بثمر بخس ويخفونها في أمتعتهم خوفاً من التفتيش إذا دخلوا الشام. وفيها دهن البيلسان، الذي تداوى به الجراح والرضوض؛ يجنيه الأعراب من شجر هناك، وقد اشترينا منه قنينة، فلما فتحناها وجدنا أكثرها ماء؛ وشيئاً قليلاً من الدهن على وجه الماء، فكأن هؤلاء الأعراب أخذوا على أنفسهم النهب في كل شيء.

وثارت فيها العواصف والعجاج الشديد، وقد وصلناها عند الغروب، فبقينا فيها تلك الليلة، ويومها إلى ما بعد العصر، ثم رحلنا منها إلى مكان ليس بمعداً للنزول، فسرنا نحواً من ست ساعات، فوصلناه الساعة الرابعة ليلاً. وبعد الفجر رحلنا منه فوصلنا ضحى إلى بئر الشيخ، وكانت هي المنزل، لكن خوف سقوط الأباغر من الحر، منع من السير رأساً إليها من رابع، مع كون الفصل شتاءً، فسقوا الدواب من تلك البئر، وفي أثناء الطريق آبار كثيرة ماؤها شروب...

ثم رحلنا إلى مكان ليس بمنزل ولا فيه ماء، ثم رحلنا منه إلى المستورة، ورحلنا ضحى من المستورة إلى بئر الحصان فوصلناها بعد المغرب؛ وعند الفجر رحلنا منها إلى خلص، ثم منها إلى بئر الدراويش؛ فوجدنا ماءه قليلاً، والذين تأخروا لم يستقوا شيئاً، ومات بعض الحمير والأباغر تلك الليلة من العطش، ثم رحلنا منها الساعة السادسة ليلاً إلى المدينة المنورة.

بعض صعوبات الطريق

ذكر السيد رحمه الله في الأعيان أموراً لم يذكرها عندما سرد هذه الرحلة في الجزء الثاني من معادن الجواهر، لذا لزم إثباتها، لأنها تعكس بعض مصاعب السفر في تلك الفترة، قال أعلى الله مقامه: ولما وصلنا إلى مكان يدعى المضيق، وهو طريق ضيق بين جبلين، جاء الخبر إلى أمير الحاج عبد الرحمن باشا اليوسف الكردي بأن الأعراب وقفوا ببنادقهم على أعلى الجبلين، فإذا مر الحاج تناولوه بالرصاص، فلا يفلت منهم أحد.

ص: ١٥٣

و كان لشيوخهم «خاوة» على السلطان، فكان يبعث بها من استنبول، فكان يأكلها من يتولّى إمارة الحاج مع مشاركة غيره، فأرسل أمير الحاج تلك الليلة إلى شيوخهم فأرضاهم، و جمع البيارق التي توضع عادةً فوق الحجاج و نصبها حوله ليوهم الأعراب أن معه عسكرياً كثيراً، و سار الحاج في اليوم الثاني في ذلك المضيق بسلام، و لم نزل نسير حتى وردنا المدينة المنورة (١).

المدينة المنورة

دخلنا المدينة المنورة يوم الأحد بعد الظهر، و زال العناء، و اشتدّ الفرح و السرور لما شاهدنا القبة الخضراء الشريفة و المنائر المنيفة؛ من جميع الحاج.

و دخلنا من باب رأينا في أعلاه مدفعين خارجين من كوتين، و نزلنا في بستان خارج السور، فيه دار، وفيه نخل و بركة ماء يستقى لها على الناضح؛ وهو ملك لبعض «الطواشي» خدام الحرم الشريف النبوي، و يسكنه و يقوم بأعماله بعض النخاول، فزرنا الحضرة الشريفة النبوية، و قلبنا الشفاه على تلك الأعتاب الشريفة، و فرزنا بنعمة الدخول إلى الحجرة المطهرة بسبب أوراق مأخوذة من الأستانة، تتضمن الإذن بخدمة الحجرة المنيفة حسب المعتاد.

الدخول إلى الحجرة الشريفة

فذهبنا أولاً إلى بيت شيخ الفراشين لتقييد أوراق الرخصة عنده، و قال لنا:

تأتون في الساعة الحادية عشرة إلى الدكة التي في الحرم المطهر، حيث يجيء المحافظ وهو عثمان باشا، فحضرنا في الوقت المضروب، فوجدنا شيخ الفراشين هناك، ثم جاء ضابط عثمانى يحمل نياشين كثيرة، فقال لنا شيخ الفراشين هذا خفية؛ وهو من الشام، فعزّفه بنا و قال له: هؤلاء من أقارب الشيخ أبي الهدى، فقال: ما أكثر من يقرب بأبي الهدى، ثم التفت إلّي و قال: ما اسم أقارب أبي الهدى الذين في حلب،

ص: ١٥٤

وفى موضع كذا وكذا؟ فقال له شيخ الفراشين: وهل كل من كان أقارب أبى الهدى يلزمه معرفة جميع عشيرته وهم متفرقون فى البلاد؟! فسكت؛ ثم جاء عثمان باشا محافظ المدينة، وشيخ الحرم لابسا العمامة البيضاء والجبّة والقباء، وهو رجل أبيض اللون، أبيض اللحية، طويل القامة، فقام الحاضرون كلهم وقبلوا يده، أما أنا فلم أقبلها.

فجلس قليلا، وأذن المؤذن لصلاة المغرب، وكان ذلك الضابط إلى جانبى فى الصف، فقال لى: أنا فى كل سنة أحج وأزور عن السلطان، وجعل يعلمنى كيفية الدخول إلى الحجره الشريفه، فشكرته. وبعد الفراغ من صلاة المغرب، أتونا بفرجتين بيضاوتين وأتوه بعمامة بيضاء، أما أنا فاكتفوا بعمامتى الخضراء؛ وهكذا كل من يريد الدخول يؤتى له بفرجية، وهو ثوب أبيض محيط بالبدن، يلبسه فوق ثيابه ويتعمم بعمامة بيضاء إن لم يكن متعمما؛ فدخل محافظ المدينة لابسا الفرجية، وخلفه المأذون لهم بالدخول، وفى يد كل منهم شمعة صغيرة، فيضيئها ويشعل أحد القناديل التى داخل الحجره الشريفه ليتشرف بالخدمة؛ ويزور المحافظ ومن معه النبى صلى الله عليه وآله ثم صاحبيه، ثم الزهراء، يتلو لهم الزيارة بعض السدنة، وهم يتابعونه.

وهذا الدخول إنما هو بين الحاجز الحديدى الدائر حول الحجره الشريفه وبينها، بحيث يمشى الداخل حول حائط الحجره الشريفه، أما نفس الحجره فبابها مسدود، ولا يمكن الدخول إليها ولا رؤيه القبر الشريف.

مزارات المدينة

قال السيد رحمه الله: وتشرفنا بزيارة سيد الشهداء حمزة بأحد، وسائر الشهداء؛ والمسافة بين المدينة المنورة وأحد نحو من فرسخ، ولم نتمكن من زيارة مسجد قبا، مع أنه لا يزيد عن هذه المسافة لشدة الخوف، فضلا عن مسجد الفصيخ ومشربة أم إبراهيم وغيرها؛ لكننا تشرفنا بزيارتها بعد ذلك، فذهبنا من



ص: ١٥٥

الشام فى السكة الحديدية وزرناهما بصحبة عرب العوالى .

وبقينا فى المدينة المنورة ستة أيام وخرجنا منها بعد الظهر .

طريق الرجوع إلى الشام ومحطاته

كان طريق السير من المدينة إلى الشام يمرّ بمناطق مختلفة، والمسير يتم فى طريق معلوم، وهناك أماكن خاصة للنزول معدّة لذلك لأجل الراحة والتزوّد بالماء والطعام؛ وكما وصف السيد رحمه الله بعض هذه المحطات فى طريقه من جدة إلى مكة، ومن مكة إلى المدينة كما مر، فإنّه يستمرّ بالوصف على هذا المنوال عند الخروج من المدينة قاصداً الشام؛ قال رحمه الله يذكر المناطق التى مرّ بها بعد الخروج من المدينة المنورة:

الجرف، وهو معسكر المدينة قديماً، وهو على نحو فرسخ منها، ورحلنا من الجرف الساعة السادسة ليلاً إلى بئر جبر فوصلناها أول النهار، وقبل الغروب رحلنا منها إلى اصطبل عنتر، فوصلناه قبل المغرب من اليوم الثانى، فبتنا فيه، وبعد العصر رحلنا منه إلى هديّة فوصلناها صباحاً، وماؤها مالح لكنه قريب من وجه الأرض، وفى أى محل حُفر يخرج الماء، فأقمنا بها إلى ما بعد العصر، ورحلنا إلى براقه، فوصلناها بعد طلوع الشمس ولا ماء فيها، وبقينا فيها إلى الساعة التاسعة من النهار، ثم رحلنا منها إلى قلعة الحديد، فوصلناها الساعة الثالثة ليلاً، فبقينا فيها بقيّة تلك الليلة، ونهارها إلى الساعة التاسعة، ورحلنا منها إلى قلعة الزمرد، وهى على ثمان ساعات من قلعة الحديد، وفيها بعض العسكر، فلم نبت بها؛ وواصلنا السير قاصدين سهل مَطْران بالتحريك، فوصلناه عند طلوع الشمس وبقينا فيه إلى ما بعد العصر من ذلك اليوم، ثم سرنا قاصدين آبار الغنم، فوصلناها الساعة الخامسة ونصفاً من الليل، ورحلنا منها الساعة العاشرة ليلاً إلى مدائن صالح.

ص: ١٥٦

مدائن صالح

فوصلناها قبيل طلوع الشمس، وأقمنا فيها بقية ذلك اليوم والليله التي بعده إلى الظهر، وفيها بئر عذب مأوها وسط القلعه، وهي مدائن ثمود قوم صالح عليه السلام، وبيوتهم المنحوتة في الجبال بدرجها الظاهر للعيان باقية إلى اليوم على أبداع شكل وأتقنه؛ يراها المارّ على الطريق قبل الوصول إلى القلعه، وبعد الوصول إلى المنزل حاولنا الذهاب لرؤيتها فممننا عدم الأمن؛ وسمعنا ونحن بالمدائن أعرابياً راكباً على ناقه، ينادى: يا شارى العرض بالعرض، فقلت لأصحابي: ما يقول هذا؟ قالوا: لا نعلم. قلت: يريد المبادلة على ناقته بناقة أو جمل، لا يبيعها بدراهم. وقريب منها بلدة تسمى العلا، وذات مياه وبساتين فجاء أهلها إلى مدائن صالح ومعهم الشعير والسمن والتمر الجيد والليمون الحلو والحامض، وهو كبير الحجم للغاية، كثير الماء شديد الحلاوة والحموضة.

ص: ١٥٧

طريق صعب.. وخرافة

ثم سرنا من مدائن صالح بعد الظهر قاصدين ظهر الحمراء، فسرنا بقیة ذلك اليوم، وتلك الليلة، وساعتين ونصفاً من اليوم الذى بعده، فكانت المسافة نحواً من اثنين وعشرين ساعة، والطريق وعرة جداً، ومررنا بين جبلين على هيئة واحدة وعلو واحد، كأنهما ساريتان، وبينهما مقدار ممر قطارين من الجمال فقط، والناس يسمونها جبل أبوطاقتة، تشبيهاً لما بين الجبلين بالكوة فى الحائط؛ والطريق بينهما فى مكان ذى رمال تغوص فيها أيدي الجمال وأرجلها، وتسير صعوداً، وأكثر الناس ينزلون من المحامل عدى العاجز والمرأة، وبعلو هناك الصباح والضجيج من أهل القوافل، وربما ضربوا بالطبول؛ وأصل استعمال ذلك لتهديج الإبل على السير؛ خوفاً من وقفها وسقوطها لصعوبة الطريق بسبب الرمل والصعود، لكنّه شاع بين العامة أنّ هذا الصباح لثلاث تسمع الإبل حنين فصيل ناقة صالح، الذى هو متعيب فى ذينك الجبلين على زعمهم فتموت؛ والطريق بعد ذلك أكثره صخور ومزالق ورمال.

إن ما مر يعطى صورة عن صعوبة الطرق، والمخاطر التى تحف السائر عليها، وخصوصاً الطرق الصخرية، حيث يكون السائر معرّضاً للسقوط زلقاً سواء كان راكباً أو ماشياً، عدا عن الإنهاك الحاصل من طول الركوب أو المشى.

الأخضر، واحة الطريق

ثم قال السيد رحمه الله: وبقينا فى ظهر الحمراء من الساعة الثانية والنصف نهاراً إلى الساعة التاسعة؛ ثم سرنا بقیة ذلك اليوم، وتلك الليلة، ووصلنا فى الساعة الثالثة من نهارها إلى المعظم. فكانت المسافة بينهما نحواً من سبع عشرة ساعة، والمعظم فيه قلعة عظيمة، مأوها من المطر، لكنه لم يكن فيها ماء. وسرنا من المعظم الساعة التاسعة من نهار اليوم الذى وصلنا فيه، فوصلنا الأخضر ضحوه الغد، فكانت المسافة بينهما نحواً من إحدى وعشرين ساعة، والطريق من

ص: ١٥٨

المدائن إلى الأخضر ليس فيه ماء، وهو ستون ساعة و قطعناه في ثلاث مراحل، وحملنا الماء معنا من المدائن إلى الأخضر، وفي الأخضر قلعه فيها بعض العسكر؛ وفي وسطها بئر ماءها غزير وعذب جداً، وعليه ناعورة، تديرها دابه، فتصب في بركة كبيرة، فإذا جاء الحاج وجدها مملوءة، فلا يخرج حتى ينفذ ماؤها ولولا ذلك لكثير الزحام، ولعله يسمى بالأخضر لوجود العشب حوله بخلاف باقي المنازل التي هي قاحلة جرداء، ومن الأمثال فيه «إذا ما وصلت إلى الأخضر، فامش وتبخر» لجمود مائه وغزارته، فبقينا فيه ذلك اليوم والليلة التي بعده إلى الصباح.

إلى تبوك

ثم سرنا حتى وصلنا إلى منزل يدعى ظهر المغر، ليس فيه ماء، فوصلناه الساعة الحادية عشرة من النهار، فبتنا به تلك الليلة وخرجنا منه قبل الفجر بساعتين تقريباً، أعنى الساعة الثامنة من الليل فوصلنا إلى تبوك الساعة الرابعة من النهار، وهي بلدة مسكونة بقليل من الأعراب، وفيها آبار كثيرة عذب ماؤها، ونخل وكروم، ونخلها للحكومة، وشربنا منها اللحم والسمن والزبد بثمان رخيص. وجاءتنا بها بعض الهدايا من الشام، وكان حقها حسب العادة أن تجيء إلى مدائن صالح مع الجردة، إلا أن الجردة لاقتنا بالأخضر، والأمانات بعضها وصل في تبوك والأكثر بقي في معان. وهي التي غزاها النبي صلى الله عليه وآله ولم يلاق حرباً. وفيها مسجد يقال: إنه فيه صلى النبي صلى الله عليه وآله؛ وقلعه مشيدة هي أحسن ما رأينا من القلاع قبلها. وكتب على بابها على الكاشي أنها بنيت بأمر فلان من السلطان محمد خان من بني عثمان سنة ١٠٦٤. وفيها بيوت خربة ومزارع حنطة وشعير. وبقينا بها بقيّة ذلك اليوم والليلة التي بعده إلى الساعة الثامنة ونصف.

ص: ١٥٩

محطات مختلفه

ثم خرجنا قاصدين القاع، فوصلناه قبل الغروب بنصف ساعة تقريباً، وهو منزل لا ماء فيه. وخرجنا منه آخر الليل فوصلنا ذات حج، قبيل المغرب، وهي بكسر الحاء المهملة بعدها جيم، وفيها قلعة جيدة وفيها بعض العسكر، جدّد بناؤها زمن السلطان عبد المجيد، وفيها عيون ماؤها غزير على عمق ذراعين عن وجه الأرض، ماؤها لا بأس به؛ وفيها بعض نخيلات، وتكثر فيها العقارب، أرضها صلبة لا تنزل فيها الأوتاد، وقد شدوا أطناب الخيام فيها بالحجارة، وسكك الحديد.

وخرجنا منها عند الفجر إلى المدورة، فوصلناها الساعة الثامنة من النهار، وفيها قلعة محكمة، وفي وسطها عين ماؤها عذب جداً، تجرى إلى برك ثلاث كبار أعدت للحاج.

وخرجنا منها آخر الليل إلى منزل ليس فيه ماء يسمى: تحت العقبة، فوصلناه بعد العصر، وخرجنا منه آخر الليل إلى منزل يسمى فوق العقبة، ومنه إلى معان، وهي بلدة معمورة، فيها قائم مقام، وهي تابعة لحكومة سوريا، فيها دار للحكومة وجامع قديم محكم البناء، وفيها ماء جار، ومزارع وبساتين فيها أنواع الفواكه، ورماتها مشهور.

وسرنا منها إلى عترة، ويكثر فيها العجاج والغبار، من الرياح العاصفة التي تسفي الرمول.

المحطة الأخيرة

وسرنا منها إلى القطرانة، وهي بنواحي مؤتة التي فيها قبر جعفر الطيار عليه السلام ومن استشهد معه من الصحابة، وكانت السكة الحديدية الحجازية وصلت إليها، ومنها ركبنا القطار الحديدي إلى دمشق بعدما تأخرنا فيها عدة أيام، لعدم تيسر قطار سوى القطارات المكشوفة وامتاعنا عن الركوب فيها.

ص: ١٤٠

ومن القطرانة إلى دمشق ست مراحل بسير الإبل، وكان السير فيها قبل السكة الحديدية هكذا على ما قيل لنا: القطرانة، المدورة، الزرقاء (١) وفيها نهر جار، ولها ذكر في التاريخ، ويسكنها الآن مهاجرو الجركس، وهي بنواحي البلقاء الشهيرة في التاريخ، القلعة، الرمثا، المزيريب، الكسوة، دمشق. والخمسة الأخيرة من بلاد حوران، أما بعد وجود السكة الحديدية، فأسماء المحطات هكذا: القطرانة- سواقه- محجة- ضبعة- جيزة- لبن- قصر- عمان- الزرقاء- سمرا- مفرق- نصيب- ذرعا [أذرعان]- خربة غزاله- ازرع- دير على- خب- جباب- مسمية- الكسوة- القدم، ويقال إن فيه أثر قدم النبي صلى الله عليه وآله حين أتى الشام، وأنه وصل إلى ذلك المكان ولم يدخل دمشق- القنوات (محلّة بدمشق).  
هنا قال السيد رحمه الله: انتهت الرحلة الأولى الحجازية والحمد لله رب العالمين.

١- علق رحمه الله في الهامش فقال: وقد مر أن المدورة قبل القطرانة بأربع مراحل، إلا أن تكون هذه غيرها.

## صفحات من تاريخ المدينة المنورة

محسن أسدى

احتلت مكة والمدينة مكانة مقدسة في قلوب المسلمين وضمائرهم، واهتماماً كبيراً عندهم وعند غيرهم، لما لهاتين المدينتين من موقع كبير في تاريخ الدعوة الإسلامية، فعلى ساحتيهما دارت أكثر أحداثها منذ نشوئها، وإلى يومنا هذا مازالت آثارها وثمارها قائمة؛ فظهور الدين الإسلامي وترعرعه وانتشاره منهما إلى بلدان العالم الأخرى جعل الأنظار تتوجه إليهما بحثاً ودراسةً، إضافةً إلى ما يترتب على تتبع تاريخهما والعناية بهما وبشؤونهما - حفظاً - وعمراناً من أجرٍ لصاحبه وثوابٍ عظيمين.

ولأن مكة تضم الكعبة، وهى بيت الله الحرام قبله المسلمين فى كل فرض أو مستحب ودعاء، والمدينة المنورة التى تضم مرقد رسول الله صلى الله عليه وآله خلق منهما حرمان مباركان يقصدهما الحجاج، والمعتمرون، والزوار، والباحثون، من كل أقطار الدنيا. من هنا، جاءت كتابات وبحوث تاريخية، وميدانية، وجغرافية، واجتماعية، واقتصادية، وتقصُّ لهما ولأحوالهما فى عمق التاريخ من أولى اهتمامات الباحثين

ص: ١٤٢

والمحققين، فكثرت الكتب والمجلات والبحوث والمقالات، وأقيمت المؤتمرات والأنشطة الأخرى حولهما، حتى حظيت كل منهما (مكة المكرمة والمدينة المنورة) بما لم تحظ به أي مدينة أخرى في العالم.

وقبل أن نتحدث عن تلك الصفحات التاريخية، عن مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله نقف قليلاً عند اشتغال مؤرخي المسلمين بهاتين المدينتين المقدستين، وبما تضمانه من الكعبة المباركة، والضريح المبارك لرسول الله صلى الله عليه وآله، اللذين صاروا الباعث الحقيقي لكتاباتهم، وبحوثهم، وأنشطتهم، إذ لولاهما لما كان كل ذلك وغيره، حتى نالت دراسة هاتين المدينتين المنزلة الكبرى في دراسة تاريخ المدن الإسلامية، وغدت دراساتهم معالجات دينية، و تاريخية، وجغرافية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية رائعة، لواقع تلك المدن ولشعوبها، وجميع مفاصل حياتها...

نعم قد تكون بعض تلك الدراسات لم تأت بشيء ذي بال، إلا أن الحال مختلف جداً فيما تناولته بالنسبة لهاتين المدينتين مكة والمدينة، اللتين هما محل كلامنا دون غيرهما من المدن، موضحة ما يتصل بهما دينياً وسياسياً واجتماعياً.. وما ظهر فيها من شخصيات دينية، وعلماء نحو ولغة، وقراء، ومفسرين، ومحدثين، وفقهاء، ومتكلمين، وشعراء، وأدباء، سواء أكانوا من الصحابة أو التابعين.

إن تاريخ هاتين المدينتين بدأ قبل بداية القرن الثالث الهجري، بل ظهر بعضها في أوائل القرن الثاني أو قبله: كتاريخ مكة، للحسن البصري، الذي توفي سنة ١١٠ هجرية، وفي مكتبة تيمور، بدار الكتب المصرية نسخة منه. وتاريخ المدينة لابن زباله، الذي كان حياً سنة ١٩٩ هجرية. ثم تاريخ مكة للأزرقي المتوفى سنة ٢٤٤ هجرية، فتاريخ المدينة لابن شبة، الذي عاش بين ١٧٣-٢٦٢ هجرية.



ص: ١٦٣

وفي مقالتنا هذه، نقف عند مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة المنورة، يثرب قبل الهجرة وقديماً، وهي تعيش عمقاً تاريخياً نشأةً وتطوراً، ثم قاعدةً للدين الجديد، وعاصمةً لدولة إسلامية واعدة رائدة...

يثرب في اللغة

يثرب: ثرب بتشديد الراء، وثر به وأثرب: الكبش زاد شحمه، والثرب:

شحم قد غشى الكرش والأمعاء رقيق، وفلان قلّ عطاؤه، وفلان منّ بما أعطى.

و ثرب: أفسد و خلط، و ثرب فلاناً و عليه: لامة و عيره بذنبه.

و أثربه: لامة و عيره بذنبه. و الثريب: التعيير والاستقصاء في اللوم.

وفي التنزيل العزيز: «لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومًا». ويقال: ثرب عليهم - بتشديد الراء - و ثرب عليهم فعلهم: قبحه.

و ثرب بتشديد الراء: أفسد و خلط.

و ثرب عليه فعله - بتشديد الراء - ثرب ثريباً: قبح عليه فعله أو قبحه (١).

هذا في اللغة

أما يثرب قديماً:

فقد انتشر اسمها في نقوش وكتابات غير عربية، كجغرافية بطليموس اليوناني، حيث إن (يثرب) كانت باسم يثربا

وفي كتاب اسطفان البيزنطي باسم يثرب

كما ظهر اسمها في نقش على عمود حجري بمدينة حران (اتربو)

يثرب في القرآن الكريم والحديث:

وقد وردت لفظه يثرب مرة واحدة اسماً قديماً للمدينة المنورة في قوله تعالى

١- أنظر: مادة ثرب في لسان العرب، والمعجم الوسيط، ومختار الصحاح.

ص: ١٦٤

في سورة الأحزاب الآية ١٣، و على لسان بعض المنافقين:

«وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا...»

أى لا يصح لكم الإقامة ههنا حول الخندق، فارجعوا إلى منازلكم.

أما إسمها الجديد، فقد ذكر في القرآن الكريم ثلاث مرات، هي قوله تعالى:

«وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ...» (١)

وقوله تعالى:

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ...» (٢)

وقوله تعالى:

«يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ...» (٣)

وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وآله غير اسمها من يثرب إلى المدينة، ونهى عن استخدام اسمها القديم فقال: (من قال للمدينة:

(يثرب) فليستغفر الله...)، وأيضاً سماها رسول الله صلى الله عليه وآله بأسماء أخرى في عددٍ من الأحاديث النبوية، أهمها: (طابة وطيبة)

(٤).

بعد هذا، نقرأ صفحات قديمة عن تاريخها، بدأ بمن سميت باسمه وظلت تحمله طيلة حياتها قبل الإسلام، إنه واحد من أحفاد نبي الله

نوح عليه السلام.

يثرب حفيد نوح عليه السلام

وقد أجمعت معظم المراجع العربية على أن (يثرب) إسم لرجل من أحفاد

١- التوبة: ١٠١.

٢- التوبة: ١٢٠.

٣- المنافقون: ٨.

٤- أنظر: مسند الإمام أحمد ٤: ٢٨٥؛ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام؛ و وفاء الوفا.

ص: ١٦٥

نوح عليه السلام، وأن هذا الرجل أسس هذه البلدة فسميت باسمه، وهو أمر معروف في الحضارات القديمة أن تسمى المدن باسم مؤسسها، مثل الإسكندرية نسبة للإسكندر.

ولكن تلك المراجع اختلفت في عدد الأجيال التي تفصل الحفيد (يثرب) عن جده نوح عليه السلام، حيث جاء في بعض أسماء سلسلة الآباء والأبناء في المراجع أن (يثرب) وقع في الجيل الثامن بعد نوح، فهو: (يثرب بن قايئه بن مهلائيل بن إرم بن عييل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح).

فيما جاء في بعضها الآخر أنه كان في الجيل الخامس: (يثرب بن عييل بن عوض بن إرم بن سام بن نوح).

و مع اتفاق المؤرخين على أن القبيلتين: (عييل والعماليق) قد سكنتا يثرب على التوالي، إلا أنهم يختلفون فيمن هي الأسبق، انطلاقاً مما تركه الخلاف في وقوع يثرب حفيد نوح عليه السلام في الجيل الثامن أو الخامس.

ولكن هناك من يرجح أن قبيلة عييل هي الأسبق، ثم جاء العماليق أو بعضهم فأخرجوهم منها وسكنوها؛ كما يقول الطبري: ... ولحقت عييل بموضع يثرب، ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء، ثم انحدر بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها عييل، فنزلوا موضع الجحفة فأقبل السيل، فاجتحتهم فذهب بهم فسميت الجحفة (١).

ومن خلال قراءة المصادر التاريخية وما كتب عن هذه المدينة، نستطيع أن نلخص ما ذكرته تلك الأقسام بالنقاط التالية، والتي يمكننا تسميتها بالمراحل التي مرت بها قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه، حتى غدت مدينة مقدسة ذات منزلة عظيمة وخالدة:

١- لقد ذكرت المراجع التاريخية أن أبناء نوح بعد الطوفان تكاثروا ولم تعد

١- أنظر: تاريخ الطبري ١: ١٢٨، وفاء الوفا ١: ١٥٦-١٦٥.

ص: ١٦٦

المنطقة التي نزلوها تكفيهم، فخرجت مجاميع منهم تبحث عن مكان آخر لها، فوصل فرع (عيبيل) بقيادة (يثرب) إلى هذا الموضع، ووجدوا فيه ماءً وشجراً وجبالاً بركانية تحيط به، وتشكل حمايةً طبيعيةً له و لمن يسكنه، فأعجبهم واستوطنوا فيه.

ويقول النسابون عن (عيبيل) هذا: إنه هو الحفيد الرابع أو الحفيد السادس لنبي الله نوح عليه السلام (١).

وأما عيبيل هذا، فهو في سفر التكوين: (عموبال) وهو أحد أولاد مقعان (٢).

وقد أشار الدكتور جواد علي صاحب كتاب المفصل - وهو يلتمس ما يثبت وجود قبيلة عيبيل في الكتابات القديمة - أشار إلى وجود اسم عموبال في بعض أسفار التوراة التي تذكر أنه ابن من أبناء (يقطان)، كما أشار إلى أن المؤرخ بليتوس يذكر اسم موضع يقال له: (أبالتيس) أي العيبيلين.

وقد عاش عيبيل وأقرباؤه من أبناء نبي الله نوح عليه السلام في منطقة بابل، التي عرفت بتطورها زراعياً ورعياً إلى درجة جيدة، انعكست آثارها فيما بعد على يثرب، التي حلوا فيها بعد وفاة نوح عليه السلام حينما أصبحوا ملوكاً على يثرب؛ وحدث هذا حينما سار فرع (عيبيل) بقيادة يثرب - كما قلنا - من بابل مدة عشرين يوماً حتى وصلوا إلى موضع المدينة هذا، فنزلوه وسموه (يثرب) باسم قائدهم يثرب بن قايئة.

وقد أورد السهمودي في كتابه وفاء الوفا أبياتاً في رثاء هؤلاء العيبيلين نسبةً إلى عيبيل؛ يستشف من هذه الأبيات مدى تقدمهم الزراعي والرعي آنذ، والذي ترك بصماته وآثاره على الوضع في يثرب.

تقول الأبيات:

١- أنظر: تاريخ الطبري؛ وتاريخ ابن خلدون رواية السهيلي.

٢- أنظر: الإصحاح الأول، الفقرة: ٢٢، والإصحاح العاشر، الفقرة: ٢٨.

ص: ١٦٧

عين جودي على عييل وهل يرجع من فات بيضها بالسجام  
عمروا يثرباً وليس بها شفر ولا صارخ ولا ذو سنام  
غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفوا النخيل بالآجام

وإن كان هناك من يشكك بهذه الأبيات وصحتها، ويعدّها من نحل القصاصين وأساطيرهم، إلّا أنها- ولا شك- رسمت صورة- كما  
يذكرون- لاتباع عييل تنسجم هذه الصورة مع ما جاء به، وكتبه المؤرخون عن أهل بابل وأنشطتهم الرعوية والزراعية؛ وإن أرض  
يثرب الخصبة، ووفرة المياه فيها، أمّدت العيليين بما يساعدهم على زراعة النخيل، وتربية الحيوانات فيها.

إذن، يمكننا وصف الحالة يومذاك في يثرب- كما ذكرتها المراجع التاريخية- بأن هناك أسراً تسكن قرية صغيرة كثيرة الأشجار  
والمياه، تربي حيواناتها المدجّنة: الإبل، والخيل، والغنم، وتزرع النخيل وبعض الخضراوات، والفواكه الأخرى، وتستمتع بمحصول وافر  
ونجاح جيد.. وفي شبه عزلة عن العالم الخارجى البعيد والمجهول، تحميها الجبال والتلال البركانية التي تحيط بالمنطقة ولا تترك منفذاً  
إليها سوى بعض الدروب التي يمكن مراقبتها وتحصينها.

٢- إن أحد أحفاد نوح عليه السلام (واسمه نمرود بن كوش بن كنعان بن نوح)، دعا قومه إلى عبادة الأوثان، فاستجابوا له فعاقبهم الله،  
وخرجوا من بابل وتفرقوا في جهات مختلفة، ووصل فرع عييل إلى هذه المنطقة.

٣- إن العماليق من أحفاد نوح عليه السلام خرجوا من بابل، واستوطنوا منطقة تهامة إلى مكة، وبقوا فيها إلى زمن ملكهم السميدع، ثم  
جاءت قبيلة جرهم فأخرجتهم من المنطقة وسكنت في منطقة مكة، وجاءت مجموعة منهم تسمى (عييل) بقيادة يثرب، واستوطنت  
المنطقة وبنّت المدينة التي سمّيت باسمه (١).

١- أنظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١: ٣٤٣ وما بعدها؛ تاريخ الطبرى، الجزء الأول، وفاء الوفا ١: ١٥٦.

ص: ١٦٨

وهكذا اتفقت المصادر المختلفة على أن تأسيس يثرب كان على يد رجل يتزعم مجموعة بشرية، هاجرت من موطنها الأصلي بابل في الرواية الأولى، وتهامه في الرواية الثانية، وقسم من الحجاز في الرواية الثالثة، تبحث عن موطن جديد يوفر لها حياة كريمة، وأن هذه المجموعة وجدت في هذا الموقع أرضاً خصبة، وشجراً كثيفاً، وماءً وفيراً، ووجدت أن هذا الموقع أيضاً يوفر لها قدراً من الحماية الطبيعية، فاستقرت فيه، وحولته إلى مدينة، وسمته باسم زعيمها: (يثرب).

٤- ثم ظهرت مملكة سبأ في اليمن في عهد الدولة المعينية، وما إن قويت شوكة السبئيين حتى تم استيلاؤهم على معين وعلى نفوذها، وغدا سلطانهم ممتداً إلى مدينة يثرب، إلا أنه كان شبيهاً بنفوذ من كانوا قبلهم، وأقصد المعينيين، فلا يتعدى تعيين حاكم على يثرب ويكون هذا الحاكم من أهل يثرب نفسها؛ هذه هي المهمة الأولى، وأما الثانية فكانت تتمحور حول القوافل التجارية التي تمر عبر أراضيها..

لهذا فإننا لا نعثر على تغييرات في أهلها الذين بقوا مشغولين بالزراعة ورعى مواشيهم، فيما اشتغل بعض منهم بتأمين ما تحتاج إليه القوافل التجارية والاستفادة من المتاجرة معها.

ص: ١٦٩

وقد عاصرت مملكة سبأ التي كانت بلقيس ملكة عليها نبي الله سليمان بن داود عليه السلام ودولته، وآمنت بما يدعو إليه - بعد أن التقت به - حيث قالت ملكة سبأ كما صرحت به الآية الكريمة: «.. رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» (١).  
وقد عمّرت مملكة سبأ كما أخبرنا القرآن الكريم: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور» (٢).

ثم وقع سيل العرم، حيث ضعفت وانهارت: «فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل» (٣).

وقد خرجت من مملكة سبأ قبل السيل بقليل قبيلتا: الأوس والخزرج، وهما قبيلتان معروفتان استوطنتا في يثرب. كان لليهود وجود واضح في يثرب في العصر الجاهلي، كما تجمع على ذلك المصادر التاريخية، وتذكر روايات مختلفة لوجودهم المذكور، وتجمع أيضاً على أنهم جاؤوا إليها من خارج الجزيرة العربية في عدة هجرات متوالية:  
الأولى: وقعت في سنة ٥٨٩ ق م، عندما اقتحم بختنصر البابلي أورشليم، ودمر الهيكل وسبى معظم أهلها، فهرب جماعة منهم وساروا إلى بلاد الحجاز ونزلوا (يثرب).

الثانية: وقعت ما بين عامي ٦٦ - ٧٠ م، عند ما هاجم القائد الروماني تيتوس فلسطين، ودمر أورشليم ثانية، وشتتهم وأغرق عدداً كبيراً منهم في بحيرة لوط،

١- النمل: ٤٤.

٢- سبأ: ١٥.

٣- سبأ: ١٦.

ص: ١٧٠

ففرّ الناجون إلى الحجاز، ووصلوا (يثرب)، وأقاموا فيها مع من سبقهم.

الثالثة: وقعت عام ١٣٢ م عندما أرسل الإمبراطور الروماني هارديان، جيشاً إلى فلسطين، فأخرج اليهود منها، ومنعهم من دخولها نهائياً، ففرّ من نجا منهم إلى جزيرة العرب.

و (يثرب) في وقت مجيء اليهود الهاربين إليها كانت عامرةً بمجتمع يضمّ قبائل عربية، بعضها بقيه من العماليق، وبعضها الآخر قبائل توافدت إليها من أطراف (يثرب) القريبة والبعيدة.

وأول من وصل (يثرب) من اليهود ثلاث قبائل هم:

بنو قريظة، ونزلوا عند وادي (مهزور).

وبنو النضير، ونزلوا عند وادي (بطحان).

وبنو قينقاع، ونزلوا في الوسط، ثم انتشروا في أخصب بقاع المنطقة.

ثم تبعت هذه القبائل الثلاث قبائل يهودية أخرى.

وقد سالم اليهود العرب المقيمين في يثرب أول الأمر، وأحسنوا التعامل معهم، وانهمكوا في زراعة النخيل، واتسعت زراعتهم وتجارتهم و الصناعات التي كانوا يتقنونها، هذا من ناحية؛ ومن ناحية ثانية راحوا يدفعون لرؤساء القبائل المجاورة لهم إتاوة حتى

يأمّنوا ضررهم و مهاجرتهم، ومن ناحية ثالثة، راحوا يقيمون تجمعات مغلقة لهم، وبينون حصونهم وآطامهم التي كثرت، وكل هذا جعلهم يستقرون ويجمعون ثروات كبيرة، أما أحبارهم فقد كانوا يختصون بالأمور الدينية ويحكمون فيما يقع بينهم من خصومات.

وانتشرت أنشطتهم تلك في الأطراف الشرقية والجنوبية من يثرب، ولم يتحمسوا لنشر عقيدتهم بين القبائل العربية الوثنية، واكتفوا ببعض الأفراد والأفخاذ التي مالت إليهم ثم تهوّدت تدريجياً؛ و مالبتوا أن سيطروا على الحركة الاقتصادية، وأشاعوا القروض الربوية

الفاحشة، وعندما وصلت قبيلتنا الأوس



ص: ١٧١

والخزرج المهاجرتين من اليمن، كانوا المتنفيين في يثرب، فطلبوا منهم أن يسمحوا لهم بالنزول في المناطق المجاورة لمزارعهم، وكان اليهود في حاجة إلى الأيدي العاملة لاستثمار مزارعهم وثرواتهم المتزايدة، فسمحوا لهم بالنزول في المناطق غير المأهولة من يثرب، واستخدموهم في مزارعهم، وبدأت بمجيء الأوس والخزرج مرحلة جديدة من تاريخ يثرب (١)، نتعرف عليها في الفقرة الأخيرة، رقم: ١١.

٥- هناك قبائل قديمة انقرضت، أطلق عليها اسم: العماليق؛ وقد ذكرت المراجع التاريخية أخباراً عنهم تمتزج بالأساطير، فإسمهم يوحى إلى الأذهان بضخامة أجسامهم، وقد دفع هذا الإيحاء بعض الرواة إلى المبالغة والتهويل، فنقل لنا السمهودي رواية تزعم أن ضبعاً وأولادها وجدت رابضة في تجويف عين رجل ميت من العماليق، وأنه كانت تمضي أربعمئة سنة لا يموت منهم أحد، ولا شك أن هذه الرواية وأمثالها من صنع قصاصين يحرصون على استثارة جمهورهم بالخوارق والعجائب. وبعيداً عن تلك المبالغات، فإن كلمة عملاق في اللغة تعني الطويل، ويبدو أن تلك القبائل كانت تتميز بشيء من الطول والجسام، ويرى بعض المؤرخين الحديثين أن سكان الجزيرة العربية كانوا حتى عام ١٦٠٠ قبل الهجرة ضخاماً، وبقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك وعرفوا بهذا الاسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك القدر من الطول ولا يعمرّون ما يعمر أسلافهم. والعماليق في كتب التاريخ العربية من أحفاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، كانوا يسكنون مع الأحفاد الآخرين لنوح في منطقة الرافدين، ثم خرجوا مع مجموعات أخرى، وتكاثر أحفاد نوح حتى زاحم بعضهم بعضاً. وصل العماليق إلى الجزيرة العربية وانتشروا في أنحاءها، وسكنت قبائلهم الكثيرة في نجد والبحرين وعمان واليمن وتهامة، وبلغوا أطراف بلاد الشام، وكان

ص: ١٧٢

منهم فراعنة مصر أيضاً، ويذكر الطبرى أن الذين سكنوا يثرب منهم هم من قبيلة جاسم. ويذكر ابن خلدون قبائل أخرى هي: بنو لَفٍّ، وبنو سعد بن هزال، وبنو مطر، وبنو الأزرق. ولا نعرف متى استوطن العماليق فى يثرب على وجه التحديد، وربما نزلوها بعد خروجهم من أرض الرافدين. وقد اختلف المؤرخون هل هم الذين أسسوا يثرب أم قبيلة عييل؟ وهل انتزعوها منهم؟ وهناك من يعتقد أن العماليق هم من عييل نفسها؛ والذي يتفقون عليه هو أن وجود العماليق قديم فى يثرب سواء فى فترة التأسيس أو بعدها مباشرة، ومن المؤكد أن العماليق وجدوا فى يثرب قديماً، وأنهم عرب. ويرى الطبرى أن جدّهم عمليق هو أول من تكلم العربية، كما أن أسفار التوراة ذكرتهم عدة مرات وسمتهم باسم العماليق حيناً وباسم الجبارين حيناً آخر؛ وذكرت أسماء بعض زعمائهم ومدنهم العربية، فقد عاصروا خروج بنى إسرائيل من مصر، واصطدموا معهم فى معارك عدة بمنطقة سيناء.

٦- وقد أنشأ العماليق فى يثرب مجتمعاً زراعياً ناجحاً يحقق الاكتفاء الذاتى، وانهمكوا فى زراعة أراضيهم الخصبة وتربية ماشيتهم، وعاشوا حياتهم مستمتعين بوفرة محاصيلهم أول الأمر، وعندما نمت التجارة أسهموا فيها، ووصلت قوافلهم إلى غزة، ولكن تجارتهم بقيت محدودةً لا- تعادل تجارة أهل مكة، وآثروا عليها الزراعة بسبب خصب أراضيهم وكثرة مياههم؛ وقد دزّت عليهم أعمالهم الناجحة أموالاً طائلة، وخافوا من عدوان القبائل الأخرى التى تجذب أرضهم وتشحّ مواردهم فبنوا الآطام، وهى حصون صغيرة تتسع لعائلة أو بضع عائلات، وتحميهم من غارات الأعداء.

وقد عمّر العماليق فى يثرب طويلاً، وقد وفدت عليهم قبائل أخرى سكنت معهم، فالوفرة التى وصل إليها العماليق جعلتهم يقبلون الوافدين إليهم ليستفيدوا

ص: ١٧٣

من العمالة الطارئة، فيخفف عنهم القادمون أعباء العمل في الأرض، ويجد أصحاب الأرض فرصة للتمتع بثرواتهم، وما لبث الوافدون أن استثمروا بعض الأراضي التي لم يستثمروها العماليق في المنطقة، وتحولوا إلى ملاك وأثروا وجاروا العماليق في حياتهم. وخلال رحلة السنين الطويلة، حصل تزاوج وتمازج بين العماليق والقبائل الوافدة، وظهرت أجيال جديدة تحمل دماءً مختلطة، وما لبث العماليق المتميزون بضخامة الأجسام أن قلَّ عددهم تدريجياً، ولكنهم لم ينقرضوا تماماً، بل بقيت منهم بقية إلى ما بعد وصول اليهود إلى يثرب، ويذكر المؤرخ العربي ابن زبالة أن بنى أنيف، وهم حتى أقاموا مع اليهود قبل وصول الأوس والخزرج، كانوا من العماليق؛ وعندما وصل الإسلام إلى (يثرب) لم يكن قد بقي من هؤلاء إلا أفراد قلائل تميزوا بطول القامة.

٧- الدولة الكلدانية نشأت في العراق وكانت عاصمتها بابل، وقد ازدهرت ومدّت نفوذها إلى مناطق واسعة في القرن السابع قبل الميلاد، ووصلت في فترة من الوقت إلى الحجاز؛ وقد عثر في خرائب مسجد حزان الكبير على نقش يتحدث عن أعمال الملك الكلداني (نوبيد)، وفيها أنه خرج إلى شمالي الجزيرة العربية واستولى على تيماء واستقر بها، ثم استولى على المدن المجاورة وضمها إليه، وهي:

ددانو (مدينة قديمة معروفة ذكرتها الأسفار العبرانية)، وبداكوا (فدك)، وخيرا (خيبر)، واتريبوا (يثرب)، وظلت خاضعة لحكم هذا الملك عشر سنوات؛ ونوبيد هو آخر ملوك الدولة البابلية الكلدانية، حكم لمدة ١٦ سنة (من سنة ٥٥٦ - ٥٣٩ ق. م)، قضى عشر سنوات منها في شمالي الجزيرة العربية تاركاً عاصمته بابل تحت حكم ابنه (بلشازار)، ثم عاد إلى بابل ليدهمهم الملك الفارسي قورش (كورش) سنة ٥٣٩ ق. م، وينهى دولتهم ويجعلها ولاية تابعة لإمبراطوريته؛ وقد صالح أهل يثرب الملك نوبيد ودخلوا في طاعته مسلماً بعد أن

ص: ١٧٤

ضعف سلطان الدولة السبئية، ودفعوا الضرائب التي كان يجيها السبئيون منهم إليه.

أحضر نونيد معه بعض القبائل الكلدانية والأسرى اليهود إلى المنطقة، وأسكنهم فيها وأعطاهم بعض الأملاك التي نزعها من أصحابها العرب وحماهم بقطعاتٍ من جيشه، وكان يخطط لإلحاق المنطقة كلها بمملكته، ولكن الخطء لم تنجح ومات مشروعه مع عودته إلى بابل، غير أن أكثر المستوطنين الجدد بقوا في المنطقة وامتزجوا مع أهلها، ويستدل على ذلك بوجود بعض الألفاظ الكلدانية في لغة أهل يثرب والمناطق الأخرى التي تقع إلى الشمال منها، وخاصة في الزراعة.

٨- من المستحيل أن نجزم بسنة محددة تؤرخ بها تأسيس يثرب، فنحن لا- نعرف على وجه اليقين كم من القرون تفصل بين نوح، والهجرة النبوية، وما ذكره بعض المؤرخين روايات شفهية لا تستند إلى دليل مرجح.. وكل ما يمكن أن نتوقعه هو أنه حدث في عهد سحيقهُ على أيدي أمم انقرضت، فعييل أو العماليق، هي من الأمم البائدة، وليس لدينا آثار تساعدنا على تحديد فترة زمنية معينة للتأسيس، ويضع بعضهم تاريخاً تقريبياً يمتد إلى ١٦٠٠ سنة قبل الهجرة النبوية، اعتماداً على أن قبيلة عييل كانت تتكلم العربية، وأن اللغة العربية وجدت في ذلك التاريخ؛ ويقترب هذا التحديد من الزمن الذي وجدت فيه كلمة (يثرب) في الكتابات التاريخية عند غير العرب وفي بعض النقوش المكتشفة.

فقد ورد اسم يثرب في الكتابات عند مملكة (معين)، وذكرت بين المدن التي سكنها جاليات معينة. ومن المعروف أن المملكة المعينية قامت في جزء من اليمن في الفترة ما بين ٦٠٠ و ١٣٠٠ قبل الميلاد، وامتد نفوذها في فترة ازدهارها إلى الحجاز وفلسطين، وعندما ضعف سلطانها كوّنت مجموعة مستوطنات لحماية طريق التجارة إلى الشمال، وكان هذا الطريق يمرّ بيثرب.

ويتفق هذا التاريخ التقريبي أيضاً مع التاريخ الذي يذكره المؤرخون لوجود

ص: ١٧٥

العماليق وحروبهم مع بني إسرائيل في شمال الجزيرة العربية وسيناء.

٩- يرجح الباحثون أن (يثرب) قد خضعت للمملكة المعينية وأصبحت واحدة من مناطق نفوذها، وتعد المملكة المعينية من أقدم الممالك العربية الجنوبية التي وصلتنا بعض أخبارها عن طريق المكتشفات الأثرية، ظهرت في شمالي اليمن وازدهرت وامتد نفوذها في الفترة ما بين ٦٣٠-١٣٠٠ قبل الميلاد، وقد ذكرها بعض الجغرافيين الغربيين، مثل (تيودورس) الصقلي (وسترابون) الروماني، أما المؤرخون والجغرافيون العرب فلم تصلهم أخبارها.

يقول عنها ياقوت الحموي: معين: اسم حصن باليمن... ومدينة باليمن تذكر في براقش... قال عمرو بن معد يكرب:

ينادى من براقش أو معين فأسمع واتلاب بنا مليع

وتدل الآثار المكتشفة أن المملكة المعينية كان لها صلات وثيقة مع جاراتها تحوّلت إلى نفوذ وسيطرة، فامتدت سلطتها من جنوبي اليمن إلى الحجاز وحتى فلسطين؛ وقد وجد المنقبون كتابات معينية تذكر أن يثرب، ومؤان، وعمون، وغزة كانت جزءاً من المملكة المعينية وأرضاً خاضعة لها، وأن ملوك معين كانوا يعينون حكاماً عليها باسمهم، ويلقب الحاكم (كبر) أي كبير، ويتولى الحكم باسم الملك، ويجمع الضرائب ويحافظ على الأمن، وهذا يعني أن المعينيين سيطروا على يثرب في فترة تمدد مملكتهم، أي منذ الألف قبل الميلاد، وعينوا عليها حاكماً من أهلها كما كانوا يفعلون في مناطق نفوذهم الأخرى لتأمين طريق تجارتهم البرية، ولم تكن سلطتهم على المدينة تتعدى الضريبة السنوية المفروضة عليهم، فضلاً عن حماية قوافلهم، ولا- نجد في الكتابات القليلة عن معين أي ذكر لحروب خاضوها مع أهل يثرب، ولا- أحداثاً متميزة؛ وجلّ ما نجده إشارات تبين أن سيطرتهم كانت على الحجاز بأكمله، ونظراً لضعف هذه السيطرة ظل المجتمع اليثربي مجتمعاً زراعياً ورعياً في الغالب، ولم يشهد أية تغييرات كبيرة، اللهم إلا المزيد من

ص: ١٧٦

الاستقرار والانتعاش والفوائد التي تأتي بها قوافل التجارة العابرة.

١٠- الدولة الرومانية وكان ظهورها قبل الميلاد بعدة قرون، واشتدت وتها فاستولت على ممالك الإغريق (اليونانيين القدماء) ومدت نفوذها إلى بقية أوروبا وغربي آسيا وشمال أفريقيا، ولكن الرومان لم يستطيعوا التوغل في جزيرة العرب في فترة امتدادهم العسكري الكبير، لأن الصحراء الواسعة تشكل العقبة الكبيرة لجيوشهم النظامية الجراة؛ ويذكر التاريخ الروماني محاولة واحدة قامت فيها حملة رومانية باختراق الجزيرة العربية إلى جنوبها للوصول إلى مناطق الذهب في أرض اليمن، وقد جرت هذه المحاولة في عهد الإمبراطور (أغسطس) عام ٢٥ ق. م، حيث أمر هذا الإمبراطور واليه على مصر (أوليوس غالوس) بإعداد الحملة وقيادتها، ورافق الحملة جغرافي معروف هو (سترابون)، صديق القائد (غالوس) وكتب عنها، فوصلتنا أخبارها شبه كاملة.

خرجت الحملة بعشرة آلاف محارب روماني، وألف قبلي، وخمسمائة إسرائيلى، يرشدها أحد قواد الأنباط، وأبحرت من الساحل المصري للبحر الأحمر ووصلت إلى ميناء (لويكة كومة) (يقدر دكتور جواد على أنها ينبع، بينما يرى فؤاد حمزة أنها مويلى)، بعد أن خسرت عدداً كبيراً من السفن والرجال، وفتك المرض بعدد آخر لفساد الطعام والماء وسوء الغذاء، فاضطرت إلى قضاء الصيف والشتاء فيه حتى استراح الجيش وتعافى من المرض، بعدها تحركت الحملة إلى نجران، واجتازت عدة مدن وحاربت أهلها حتى بلغت مدينة مرسيا (مأرب)، ومنها عادت إلى مدائن صالح، ثم أبحرت عائدة إلى مصر، ولم تحقق الحملة أهدافها ولم تحصل على الذهب الذي خرجت لأجله، كما أنها لم تلحق المدن التي احتلتها بالدولة الرومانية.

وقد تعددت الآراء حول الطريق التي سلكتها الحملة بعد نزولها في (ينبع) أو (مويلى)، ومن بين تلك الآراء رأى يقرر أن الحملة سارت في طريق (إضم) إلى

ص: ١٧٧

(يثرب)، لكي تتجنب الاصطدام بالقبائل التي تسكن على الطريق التجارى بين ينبع والجنوب، وأنها تابعت طريقها من (يثرب) إلى (نجد)، ومنها سارت فى طريق اليمن إلى نجران.

وذكر سترابون أن ملك تلك المنطقة، ربما كان شيخ قبيلة يدعى الحارث، قد رحب بالرومانيين وساعدهم فى اجتياز الطريق؛ وبناءً على هذه الرواية- وهى أرجح الروايات- فإن الحملة قد مرت بيثرب واستراحت فيها قليلاً وتزودت بما يلزمها من الماء والطعام، فسترابون يذكر أن المنطقة كانت كثيرة العيون؛ ولاشك أن ذكاء الحارث وحسن تعامله مع قائد الحملة قد أفاد (يثرب) وبقية المدن التى مرت بها، فلم يتعرض الجيش لها بسوء، وربما يكون الحارث قد تفاهم مع شيوخ المنطقة ورؤسائها كى يتجنبوا الصدام مع الحملة.

وعلى أية حال، فإن الحملة لم تترك أثراً فى (يثرب) أو فى حياة اليربيين، حتى إننا لا نجد لها ذكراً فى كتابات المؤرخين القدماء، بل إن الرومانيين بعامة لم يؤثروا فى حياة يثرب وأبنائها على الإطلاق. وكان مرور الجيش الرومانى فى هذه الحملة هو العلاقة الوحيدة والعابرة معهم.

١١- يتفق المؤرخون على أن الأوس والخزرج قبيلتان قحطانيتان، جاءتا من مملكة سبأ فى اليمن على إثر خراب سد مأرب، وعندما وصلتا إلى يثرب أعجبتا بما

ص: ١٧٨

فيها من أرض خصبة وينابيع ثرة، وقد كان سكانها- وخاصة اليهود- في حاجة إلى الأيدي العاملة لاستثمار الأراضي، فسمحوا لهم بالنزول قريباً منهم بين الحرّة الشرقية وقباء، وكانت ظروف عملهم أول الأمر قاسية، وبمرور الزمن تحسنت أحوالهم، فبدأ اليهود يخافون من منافستهم، فداعى عقلاء الطرفين إلى عقد حلف ومعاهدة يلتزمان فيها بالسلام والتعايش والدفاع عن يثرب إزاء الغزاة، فتحالفوا على ذلك والتزموا به مدة من الزمن، ازداد خلالها عدد الأوس والخزرج ونمت ثرواتهم، ففسخ اليهود الحلف، وقتلوا عدداً منهم وعملوا على إذلالهم.

وبقى الأوس والخزرج على تلك الحال إلى أن ظهر فيهم مالك بن العجلان الذي استنجد بأبناء عمومته الغساسنة في الشام، فاستجابوا له وأرسلوا جيشاً كسر شوكة اليهود فعادوا إلى الوفاق، وعاشوا فترةً أخرى حياة متوازنة، فعندما هاجم تبع بن حسان (يثرب)، وأراد تخريبها وقف الجميع في وجهه حتى رجع عن قصده وصالحهم، وفي هذه المرحلة من الوفاق تحرك أبناء الأوس والخزرج خارج الحزام الذي كانوا محتسبين فيه وبنوا المنازل والآطام في سائر أنحاء (يثرب)، وتوسعوا في المزارع، وصار لكل بطن من بطونهم مواقع كثيرة، حينئذ خطط اليهود لاستعادة سلطتهم عليهم بطريقة جديدة، تركز على التفريق بينهم وضرب بعضهم ببعض، فأعادوا التحالف معهم، وجعلوا كل قبيلة منهم تحالف واحدة من القبيلتين الأوس والخزرج؛ تمهيداً لإيقاع الفتنة بينهم، فتحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوسيين، وتحالف بنو قينقاع مع الخزرجيين، وبدأت كل فئة يهودية تسعر النار في حليفها على الطرف الآخر وتذكي العداوة والشقاق بينهما.

وما إن نجحت الخطة الماكرة حتى نشبت المعارك بين قبيلتي الأوس والخزرج، واشتعلت الحروب الطاحنة بينهما، ودامت قرابة مائة وعشرين عاماً، وكانت بدايتها بحرب سمير، ونهايتها بحرب بعاث، قبل الهجرة بخمس سنوات، وما بين هاتين المعركتين نشبت أكثر من عشرة حروب، وكان لليهود- كما ذكرنا-



ص: ١٧٩

دور في إثارتها وإذكاء أوارها؛ ولم تنته حتى جاء الإسلام فأطفأ رسول الله صلى الله عليه وآله العداة الخطير بينهما بعد هجرته صلى الله عليه وآله إليها كما سنرى؛ وأهم تلك الحروب والوقائع ما يلي:

حرب سمير، وحرب حاطب، ووقعة جحجا، وموقعة السرارة، وموقعة الحصين بن الأسلت، وموقعة فارغ، ويوم الربيع، وموقعة الفجار الأولى، والثانية، وموقعة معبس ومضرس، وحرب بعث التي كانت آخر الحروب وأشدها عنفاً، حيث راح يستعد لها الفريقان: الأوس والخزرج، واستغرق هذا الإعداد أكثر من شهرين، تغذيه الأحقاد المتراكمة بينهما؛ وفي هذه الحرب تحالف الأوس مع بنى قريظة وبنى النضير، فيما تحالف الخزرجيون مع مزينة وأشجع، وخالفهم عبد الله بن أبي بن سلول.

وكانت بعث هي منطقة التقائهما، واقتتلوا فيها قتالاً شديداً، وتضعض الأوسيون وحلفاءهم، وقتل عدد كبير منهم وبدؤوا بالفرار، ولكن قائدهم حضير الكتائب ثبتهم، فقاتلوا بشجاعة وهزموا الخزرجيين وحلفاءهم، وهموا أن يقضوا عليهم نهائياً حتى صرخ رجل من الأوس: «يا معشر الأوس انسحبوا أو أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب»، ويقصد بقوله هذا اليهود الماكرين. وقبل هذه المعركة كان لهم لقاء برسول الله صلى الله عليه وآله لم يستمروه؛ وهو ماجاء في الخبر الذي يقول: لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة، ومعه فتية من بنى عبد الأشهل، فيهم أياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وآله فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم إلى خير مما جئتم به؟

قالوا: وما ذاك؟

قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أَدعوهم إلى الله، أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل على الكتاب، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

ص: ١٨٠

فقال أياس بن معاذ- وكان غلاماً حدثاً-: هذا والله خير مما جئتم له... وإذا بأبي الحيسر، أنس بن رافع، يأخذ حفنة من البطحاء، ويضرب بها وجه أياس بن معاذ ويقول له: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا؛ فصمت أياس، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله عنهم وانصرفوا إلى المدينة.

وكان أياس هذا أصغر قومه إلا أنه يتمتع بعقل كبير وأدرك ما سيؤول إليه الأمر، إذا لم يأخذوا بما عرضه عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وبه إنقاذهم من الدمار والهلاك الذي وقع فعلاً بعد عودتهم إلى يثرب، حيث وقعت حرب بعث بين الأوس والخزرج، وقد حلت الهزيمة بالأوس أول الأمر، ثم دارت الدائرة على الخزرج، ووضع فيهم السلاح حتى صاح من صاح: «يا معشر الأوس، أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب». ويقصد بهم اليهود الذين مالبتوا يذكون نار الفتنة بين الفريقين سنين طويلة؛ ولم يسكت غضب الأوسيين حتى أضرموا النار اللاهبة في دور الخزرجيين ونخلهم. ويقول الطبري عن أياس: ثم لم يلبث أياس بن معاذ أن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي عند موته: إنهم لم يزالوا يسمعون يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه، حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله صلى الله عليه وآله ما سمع.

وبعد تلك الواقعة سئمو الحرب، وكرهوا الفتنة، وأجمعوا أن يتوجوا- بتشديد الواو- عبد الله بن أبي بن سلول ملكاً عليهم، ليستقروا ويأمنوا، وتنتهي الفتن والمعارك بينهم.

حقاً، لقد أحب اليثريون محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله، وما زال هو في مكة المكرمة. أحبوه حباً عظيماً منذ أن وفقوا لرؤيته، وشاء الله أن يشارك عدد من القبيلتين في بيعه العقبة الأولى، ثم في العقبة الثانية في مكة؛ فكان ذلك بداية لتأليف قلوبهم

ص: ١٨١

وجمعها على الدين الإسلامي الحنيف كما نرى.

فقد التقى بستة من الخزرج، وتحادث معهم، وسمعوا منه معاني الدين الجديد، ومبادئ القيمة، ومعالمة، ثم قال بعضهم لبعض: «هذا والله النبي الذي تتوعدكم به اليهود».

كان اليهود يطلبون الفتح عليهم، بنبي يخرج بين غير واحد:

«وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» (١) ثم قالوا له: «إن بين قومنا شراً، وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك، فلا رجل أعز منك».

وصاروا رسلاً للدين الجديد، يحدثون قومهم بما فتح الله عليهم عن الدين الجديد، والنبي الجديد الذي كانوا به يحلمون؛ وما إن حلّ العام المقبل حتى أتى منهم اثنا عشر رجلاً من سادة الأوس والخزرج، ورسول الله صلى الله عليه وآله ينتظرهم في العقبة، فكانت البيعة الأولى، وانتدب شاباً إنه مصعب بن عمير بن هاشم يعلمهم الدين وأحكامه: «إذهب يا مصعب على بركة الله».

ومصعب هذا المملوء إيماناً، وحيوية، ونشاطاً، وهجر حياته الناعمة المترفة بفضل ما عليه والداه من غنى وترف، هجر ذلك كله، والتحق بركب الصالحين المؤمنين، وكانت أولى المهمات أن كلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله بأن يكون مبعوثه إلى يثرب، ويكون داعيةً لمهمة رسالية، أذاها على خير وجه... إلى أن اختارته السماء شهيداً في معركة أحد، ورسول الله صلى الله عليه وآله وقف على قبره يرثيه: «لقد رأيتك بمكة وما أحد أرق منك حلة، ولا أحسن لمه، ثم أنت أشعث الرأس في بردة!». في أجواء من العداة التاريخي المرير بين قبيلتي الأوس والخزرج، يقف مصعب يؤدي رسالته، وهو يعلم جيداً أنّ تاريخاً مليئاً بالحروب والدماء والثارات، لا يمكن أن ينسى،

ص: ١٨٢

والأعداء لا يريدون لهذا التآلف أن يتم، ولا يفرحهم الاتفاق بين العدوين التاريخيين، حقاً كانت المسؤولية صعبة، والمهمة خطيرة، إلّا أن هذا الشاب وفق في عمله أيما توفيق.

كيف تركت يثرب يا مصعب؟

تركتها إسلاماً والحمد لله.. يا رسول الله!

وأخذت الدهشة ترسم على جباه بعضهم: وكيف ذلك، ومنذ فترة كنا يثرب يا رسول الله، وما زال اليهودى يهودياً والمشرك مشركاً والعداء بين الأوس والخزرج مستحكماً!

فيما راح مصعب يواصل إجابته: أَلحمد لله يا رسول الله! ما تركت بيتاً في يثرب إلّا ويتحدث بالإسلام ويتلو القرآن.

وخرجوا بعد مضي ثلث ليل بهم مستخفين، يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبه، وبسطوا أيديهم لرسول الله صلى الله عليه وآله مبايعين، وهم يقولون: بايعنا على السمع والطاعة في يسرنا وعسرنا، في النشاط، والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى نصرتك إذا قدمت علينا يثرب، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، وأزواجنا، وأبناءنا.

وهكذا راحت هذه البلدة الطيبة تبدأ حياة جديدة، بحلة جديدة، وعهد رائع، ودين خالد؛ فما إن حلّ نهار يوم الجمعة من شهر ربيع الأول حتى علت أصواتهم رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً بأنشودة تبشر بقدم رسول الله صلى الله عليه وآله، وتبتهج بطلعه المباركة عليهم، وتنطلق أنشودتهم الجميلة والبسمة تعلق جباههم وشفاههم:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

إذن، هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم، وأطفأ العداوة بين القبيلتين نهائياً، وصاروا بفضل الله إخواناً «... واذكروا نعمه الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً...»، وبدأت صفحة جديدة من تاريخ يثرب، إنه تاريخ المدينة المنورة «وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّف بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم» (١).



## مكة المكرمة دراسة في جغرافية المدن

الدكتور سمير الدسوقي عبدالعزيز

تعود المعلومات الواردة في هذه المقالة إلى نهايات القرن الرابع عشر الهجرى (١٣٩٧ هـ)، وقد رأت إدارة المجلة إدراجها لما تحويه من معلومات وفوائد قيمة.

لا تقتصر وظيفة المدن على تقديم الخدمات الاقتصادية وغيرها لسكانها أو لسكان المناطق المحيطة فقط، فهناك مدن ذات طابع رוחى تقوم على الوظيفة الدينية (١)؛ فلقد كان الدين عاملاً هاماً فى نشأة كثير من المدن، ولا يزال أيضاً من عوامل تطورها ونموها. فالسومريون أقاموا مدنهم للعبادة أساساً، وفى مصر واليونان سميت المدن بأسماء الآلهة: (بوصير- بويسه- أثينا)، وما كان يتأتى لمدينة طنطا ذلك الحجم الكبير لولا العامل الدينى.

وفى العصور الوسطى لعب الدين دوراً كبيراً فى نشأة كثير من المدن الأوروبية التى ظهرت كمراكز إشعاع ونشر المسيحية، بل إن الذى حفظ لأوروبا

ص: ١٨٥

مدنها خلال تلك العصور وأعاد بناءها بعدها هي الكنيسة.

وكان الإسلام بناءً للمدن أيضاً، فالمسجد أول ما يقام في المدينة الإسلامية الجديدة (الفسطاط - العسكر - القطائع...)، وتحوّل اسم يثرب بعد الإسلام إلى المدينة.

وفي العصر الحديث، يمكن أن نلمس الأثر المدني للدين أيضاً، ففي أمريكا الجنوبيّة، وفي الأقصاع الشبه قطبيّة، أقيمت المساكن حول الكنائس، حيث يتردد عليها أصحابها مرّة كل أسبوع، (مدن الآحاد).

وهكذا في كل العصور، كانت فترات النشاط المدني هي الانتفاض الديني، وعلى العكس كانت المناطق التي تأخرت كثيراً في حياة المدن هي التي تأخرت في التطور الديني، كالبربر القدماء والجرمان واليابان (١).

ومكة المكرمة مدينة دينية وتجارية منذ أقدم العصور، فقد حظيت بأول بيت وضع للناس، وهي على الطريق الرئيسي بين اليمن والشام، ممّا أكسبها خصائص ومميزات لا تنافسها فيها مدينة أخرى في شبه جزيرة العرب، لذلك نزلت مكة قبائل عديدة استقرت حول البيت الحرام الذي تفجّر إلى جواره بئر زمزم كمورد دائم للشرب في وادٍ مقفر غير ذي زرع.

ولقد عوض البيت العتيق مكة هذا النقص في الموارد الاقتصادية، فأصبحت مركزاً هاماً للحياة الدينية والتجارية في الجزيرة والعالم الإسلامي فيما بعد، ونعم سكانها بالأمن والحياة المستقرة.

ولمكة أسماء كثيرة: بكة، والباسة، وأم القرى، وصلاح، وأم الرحم، والحاطمة. ويقال: إن بكة موضع البيت، ومكة هي الحرم كله (٢). وهي أم القرى؛ لأن كل ما حولها أتباع لها، وقد أعلن أحد العلماء أن مكة مركز اليابسة في الكرة

١- جمال حمدان، ١٩٧٢ جغرافية المدن، القاهرة، ص ١٧٥.

٢- الأزرقى ١٩٦٥، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ١: ٢٨٠-٢٨٢. مطبعة دار الثقافة بمكة.

ص: ١٨٦

الأرضية، وذلك في تحقيق استعان فيه بالحاسب الإلكتروني وبمعادلات وعمليات رياضية معقدة، أعد على أساسه خريطة جديدة للكرة الأرضية (١).

وفي الكتب اليونانية، سميت «مكوربا»، وهو اسم مشتق من كلمة «مكورابا» بمعنى مقدس أو محرم (٢). ويرجع تاريخ عمارتها إلى عهد إبراهيم وابنه إسماعيل سنة ١٨٩٢ ق. م. وفيها ولد النبي محمد، وفيها بعث وظهرت دعوة الإسلام.

الموقع والموضع

١- موقع مكة:

تقع مكة المكرمة في منطقة تحيط بها التلال القاحلة الجرداء (٣) على دائرة العرض ٢١ / ٢٥ شمالاً، وخط طول ٣٩ / ٤٩ شرقاً، وهي عاصمة الأمانة التي تعرف باسمها في غرب المملكة العربية السعودية. وترتفع مكة عن سطح البحر بحوالي ٣٦ متراً، كما تبعد عن ميناء جدة على ساحل البحر الأحمر بنحو ٧٣ كم.

وعلى هذا، تقع مكة ضمن سهل تهامة الساحلي (السواحل الغربية لشبه جزيرة العرب) الممتد على طول ساحل البحر الأحمر من أقصى شماله عند خليج العقبة إلى نهايته الجنوبية عند باب المندب.

ويحدّ سهل تهامة من الشرق جبال الحجاز التي تبدأ على شكل هضبة في الشمال، تأخذ في التقطع والارتفاع بالاتجاه جنوباً. وهذه الجبال تتكوّن من صخور ما قبل الكامبري التي كثيراً ما تغطيها الطفوح البركانية حيث تعرف بالحرث (٤).

ويتميز سهل تهامة بشدة حرارته وركود ريعه وبأرضه الرملية الحصوية والملحية، ولكنها لا تخلو من بعض المواضع الصالحة للزراعة، وهي تلك المواضع

١- حسين كمال الدين ١٩٧٧، موقع مكة من الكرة الأرضية جريدة الأهرام، القاهرة- العدد الصادر بتاريخ ١٩٧٧ / ٢ / ٤.

٢- Encyclopedia Britannica ١٩٦٥, printed in the U.S.A., p.٣٠.

٣- Moore, W.G. (١٩٧١), The penguin Encyclopedia of places, England, p. ٤٧١.

٤- Fisher, W.B. ١٩٧١, The Middle East, London, o. ٤٤٣.



ص: ١٨٧

التي غطتها إرسابات رملية وطينية جرفتھا الأودية إلى الساحل.

وسهل تهامة ضيق في معظمه لاقتراب الجبال من البحر، ولكنه يأخذ شكلاً حوضياً وسهلياً، ويتوغل نحو الداخل لأكثر من ٧٠ كيلو متراً في منطقة مكة ليدخلها في نطاقه.

وبذلك أصبحت مكة بساحلها على البحر الأحمر بوابةً لوسط شبه الجزيرة ومدخلاً طبيعياً إليه، هذا بالإضافة إلى أن مكة في موضع تصل المسافة فيه بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر إلى أدناها. وكان لهذا الموقع أهمية كبرى لحياة قريش التجارية، فاستطاعت أن تتصل بسهولة بداخل شبه الجزيرة من ناحية، وبموانئ ساحل الخليج الفارسي من ناحية أخرى. ولقد زاد من أهمية هذا الاتصال ما كانت تعانيه مكة ومدن الحجاز الأخرى من عدم قدرتها على إعالة سكانها أو الوافدين إليها للحج والتجارة، ولكنها بفضل موقعها أمكنها الحصول على كميات إضافية من الطعام مقابل الخدمات التي تقدمها للقوافل المارة.

ص: ١٨٨

ولم يكن من حائل بَرى يعوق اتصال منطقة مكة بإيران في الشمال الشرقي، أو بالشام في الشمال الغربي، فصحراء النفود تتدرج إلى الشمال في رفق وسهولة، كما أن الطريق الساحلي إلى اليمن سهل ومنبسط إلى حد كبير.

وكانت أهم الطرق التجارية التي سلكتها القوافل في شبه الجزيرة وتمرّ بمكة هي:

١- الطريق الممتد على طول خط الاستقرار الموازي لجبال السراة بين اليمن والشام، ويمر هذا الطريق بكل من نجران- الطائف- مكة- المدينة- مدائن صالح- تبوك، ثم إلى الشام.

٢- طريق يمتد من مكة نحو الشمال الشرقي متابعاً موارد المياه في وادي الرمة إلى رأس الخليج الفارسي (١).

ولهذا كان لموقع مكة أهمية تجارية كبرى بين مناطق الاستقرار المحيطة:

فارس والروم شمالاً، واليمن وما وراءها من أرض الحبشة جنوباً (٢). وكانت المنطقة حلقة اتصال بين الحضارات الشمالية والجنوبية، ولم تكن في عزلة جغرافية كالتي عاشت فيها كثير من مناطق الاستقرار الكبرى في آسيا الموسمية.

وجاءت شبكة الطرق والمواصلات المدنيّة مؤكدةً لهذا المعنى، فمن أهم الطرق البرية بالمملكة العربية السعودية طريقان، كلاهما يمر بمكة المكرمة:

١- طريق الدمام- جدة: طوله ١٥٠٠ كم، ماراً بالرياض- الطائف- مكة.

وهو في مقدمة الطرق الرئيسية بالمملكة، سواء من ناحية الهيكل العام أو من الناحية الوظيفية. وأهمية هذا الطريق تعود إلى أنه يربط بين منطقة الخليج الفارسي وموانئ البحر الأحمر، هذا بالإضافة إلى أنه يربط المناطق الثلاث بالمملكة الشرقية والوسطى والغربية بعضها البعض.

١- Kammerer, A. ١٩٢٩, La Mer Rouge, Le Caire, p. ٤٧

٢- Semple, E.C. ١٩١١, Influences of Geographic Environment, London, p.p. ٤٠٤ - ٤٠٦

ص: ١٨٩

ثم إن الطريق يصل بين أهم موانئ المملكة (الدمام- جدة) ومراكز العمران الداخلية، وعن طريقه يتم نقل الواردات إلى الداخل، كما أنه يساعد فى توزيع فائض الإنتاج الزراعى- خاصة الخضر والفاكهة- بين المناطق، ويعمل فى خدمة الحجاج أيضاً.

٢- طريق تبوك- أبها: وطوله ٢٠٨٣ كم، ويربط بين الحدود الشمالية والجنوبية للمملكة العربية السعودية، ويعدّ من أعظم الطرق البرية فى البلاد العربية جميعاً.

ويمرّ الطريق بعدد من أكبر مراكز العمران فى المملكة وأهمها: تبوك- المدينة- جدة- الطائف- أبها- نجران- جيزان. وقد ساعد هذا الطريق على اتصال السعودية بالدول الواقعة إلى الشمال منها حتى أوروبا عبر الأردن وسوريا وتركيا، ويؤدى خدمات كبيرة فى نقل المسافرين للحج والزيارة فى الدول المجاورة. كما أنه خلال فترة إغلاق قناة السويس (٦٧- ١٩٧٥ م) كان بمثابة الشريان الذى تم عن طريقه نقل معظم واردات البلاد التى كانت تفرغ فى ميناء بيروت، ثم تشحن إلى المملكة بواسطة سيارات خاصة (١).

وبالإضافة إلى هذين الطريقين الرئيسيين يربط بين مكة والمناطق المحيطة بشبكة من الطرق، تزيد من أهمية موقعها إلى حدّ كبير، ولعل أهم هذه الطرق الطريق الذى يصل بين مكة وجدة، ميناء الحج الرئيسى على البحر الأحمر.

والطريق بين مكة وجدة يتبع طريق الحج القديم، فيبدأ من جدة مخترباً التلال الرملية الجافة وبعض الأراضى الخصبة فى وادى فاطمة. وبعد الشميسى يمر الطريق تحت سفح سلسلة جبال الحجاز الرئيسية عبر وادى شريف الرملى أحد روافد وادى فاطمة، حيث يقوم شاهدان يشيران إلى بداية منطقة الحرم والتى

١- محمّد الرويشى، ١٩٧٧، الانتاج الغذائى فى المملكة العربية السعودية: ١٤٣- ١٤٤، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة القاهرة.

ص: ١٩٠

يحرم دخولها على غير المسلمين. ثم يتابع الطريق سيره إلى أن يدخل مكة من ناحيتها الغربية. والطريق من طرق الدرجة الأولى، وطوله نحو ٧٣ كم.

وعند «الشاهدان» يخرج طريق فرعى - طريق الخواجات - ليدور حول مكة من الجنوب إلى أن يتصل بطريق مكة - الطائف خارج منطقة الحج في منى وعرفات. ويتبع الأجنب هذا الطريق عند اتجاههم إلى مدينة الطائف.

ويربط بين مكة والطائف طريقان: الأول: الطريق الشمالي الذي يتبع وادي فاطمة ثم وادي اليمانية، وقد هجر هذا الطريق منذ عام ١٩٦٥ م عندما بدأ تشغيل الطريق الثاني.

أما الطريق الآخر، فيبدأ من شرق مكة مخترقاً منطقتي منى وعرفات، ثم يصعد منطقة الجبال بين مكة والطائف في طريق كثير الانحناءات، يتعرض للانقطاع عند سقوط الأمطار الغزيرة فوق «منطقة الهدا» التي ترتفع نحو ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر قرب مدينة الطائف، فتسقط كتل من الصخر على الطريق، وتتوقف الحركة عليه. وقد يستمر التوقف أحياناً لعدة أيام حتى تتم إزالة الصخور وإصلاح الطريق وتأمينه للمسافرين. ويبلغ طول الطريق نحو ٨٧ كم، منها ١٧ كم في المنطقة الجبلية.

والطريق الثاني - وهو المستخدم حالياً - لا تتوقف الحركة عليه وخاصة في موسم الحج أو في فصل الصيف، وهو مزود بوسائل الإرشاد ونقط الإسعاف، ومع ذلك فالحوادث الخطيرة كثيرة، مما دفع الحكومة لأن تعهد إلى إحدى الشركات مهمّة رصف الطريق الأول وإعادة تشغيله. وقد أوشكت الشركة على الانتهاء من عملها، وينتظر أن يبدأ التشغيل قريباً. والطريق طوله نحو ١٤٥ كم، ويساعد في تخفيف الضغط على الطريق المستخدم حالياً، كما أنه يمرّ في مناطق زراعية خصبة توفر لمدينتي مكة وجدة جزءاً من احتياجاتهما من الخضر أو الفاكهة.

كما يربط بين مكة والمدينة طريق مرصوف طوله حوالي ٤٨٥ كم (٣٣٥ كم

ص: ١٩١

في خط مستقيم)، ويتبع الطريق من مكة وادي فاطمة إلى أن يلتقى بالطريق الموصل بين المدينة وجده عند بدر تقريباً، ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي مخترقاً الجبال ليدخل المدينة من ناحيتها الجنوبية الغربية. وظل يطلق على هذا الطريق لفترة طويلة اسم «الدرب السلطاني» (١).

هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الطرق التي تربط بين مكة والقرى المحيطة بها في كل من وادي فاطمة أو منطقة خليص الزراعية الخصبة، وكذلك تلك التي تربط بين مكة وجعرانه، أو بين مكة ومنطقة شعائر الحج في منى وعرفات والمزدلفة. والطرق الأخيرة متسعة وفسيحة، أزيلت بعض التلال التي كانت تقف عقبة في طريقها خلال السنوات الأخيرة، وقد يصل عرض بعضها فقط لأكثر من مائة متر. ومنذ عام ١٩٧٢ م، بلغ عدد الطرق الموصلة بين مكة ومنطقة شعائر الحج خمس طرق مزودة بجسور علوية لتسهيل حركة الحجاج وتنقلاتهم.

وعلى هذا، يمكن أن نقول بأن مكة المكرمة ذات موقع هام في غرب شبه جزيرة العرب، فهي في ملتقى طرق المواصلات بين الشمال والجنوب، وفي منطقة تبلغ المسافة فيها بين شرق الجزيرة وغربها أقل قدر لها، مما جعل منها مدخلاً لوسطها، كما أن توافر مصادر المياه هيأ الاستقرار لسكانها منذ آلاف السنين.

٢- موضع مكة:

تتحدّد مواضع المدن الدينية في العالم غالباً بأحداث أو رؤى ومعتقدات، أو بموضع قبر كان يرى الناس في صاحبه الخير والصلاح، أي إن مواضع هذه المدن لا تخضع للمنطق الجغرافي.

ولقد تحدّد موضع مكة حيث الحجر الأسود في بطن وادي إبراهيم الذي ينحدر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وفي شرق وادي إبراهيم يرتفع جبل

١- عبدالعزيز كامل ١٩٦٨/٦٧، جغرافية الإسلام في عصر النبوة: ١٢٩، مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة.

ص: ١٩٢

قعيقعان، وإلى الغرب منه جبل أبي قبيس. ويطلق على الجبلين: «الأخشبان» حيث لا ينمو عليهما من النبات إلا القليل، كما أن سفوحهما جرداء تتناثر فيهما المغارات التي تتفاوت عمقاً واتساعاً، ويأوى إليها البدو خلال الشتاء.

وعند حضيض أبي قبيس ترتفع ربوة صغيرة هي الصفاء تقابلها في الجنوب الشرقي ربوة أخرى هي المروءة. وفي منتصف الطريق بينهما تهبط الأرض في بطن الوادي.

وإلى جنوب قعيقعان وغرب أبي قبيس يرتفع جبل عمر، وكان اسمه العاقر في الجاهلية. ويطلق على الجزء الشمالي من قعيقعان «جبل الهندي» لسكنى الهنود فيه.

هذه هي الجبال الرئيسية المشرفة على مكة. ولكن إذا رجعنا إلى الخريطة الكنتورية لوجدنا جبلاً أخرى كثيرة أقل حجماً وأهمية، وبعضها أجزاء من الكتل الرئيسية الثلاث أو امتدادات لها. وقد أدى توزيع الكتل الجبلية حول مكة بهذا الشكل إلى تحديد مداخلها تحديداً دقيقاً، قصرها على ثلاثة، هي:

١- المدخل الغربي: بين جبلي قعيقعان وعمر، وهو الموصل إلى جدة، ويعتبر أهم مداخل المدينة.

٢- المدخل الجنوبي: في مسفلة مكة، ويسمى طريق اليمن.

٣- المدخل الشمالي: من المعلاة، ويوصل إلى منى وعرفات والطائف.

وتؤدي هذه المداخل - أو الطرق - الثلاث إلى بطن مكة، وبينها اتصالات حول جبل قعيقعان. فهناك طريق يتفرع من الطريق الغربي ويتجه شمالاً ماراً بالحجون إلى وادي فاطمة إلى الظهران، حيث يلتقي بطريق آخر يتفرع من الطريق الشمالي ويتصل طريق الحجون بطريق الشمال في معلاة مكة بطريق كذا شمال جبل الهندي.

وتمتد مكة المكرمة من الشرق إلى الغرب لمسافة ستة كيلو ونصف

ص: ١٩٣

الكيلومتر، ومن الشمال إلى الجنوب لمسافة سبعة كيلو ونصف الكيلومتر، ويبلغ إجمالي مسطح المدينة شاملاً الأراضي المستخدمة للإسكان والخدمات والمرافق العامه والجبال المأهولة بالسكان- عام ١٩٧٤- نحو ١٦٥١ هكتاراً.

أما أبعاد المنطقة الحرام فغير محدّدة بمسافة معينة في كل اتجاه، فهي تتخذ شكل المعين أو الشكل غير قائم الزوايا الذي يبدأ من مسافة ٤٠ كم من الشميسى- على طريق جدّه- ومسافة ١٩ كم من التناعيم- على طريق نجد-، ونفس المسافة تقريباً على طريق اليمن. هذا بينما تبدأ المنطقة الحرام في عرفات على بعد نحو ٩ كم فقط في اتجاه الشرق في وادي النعمان، وفي المنطقة الأخيرة يقع مسجد نمره.

وهكذا يمكن القول بأن مكة المكرمة تقوم في بعض الوديان المحاطة بعددٍ من المرتفعات والتلال التي زحف عليها العمران بدورها في كثير من أجزائها. ويعتبر وادي إبراهيم الذي يضم قلب المدينة، ويحتل وسطه المسجد الحرام (ويضم بدوره الكعبة المشرفة، وبئر زمزم، ومقام إبراهيم، ومنطقة السعى بين الصفا والمروة) أهم الوديان جميعاً، وتبدأ منابعه من جبل النار (١٥٠ متراً فوق سطح البحر) ومجموعة المرتفعات الشمالية الشرقية لمكة بالقرب من جعرانه (٢٠ كم من مكة)، حيث الروافد من الجبال المحيطة كجبل النور (٥٦٠ متراً) وجبل تعبة (٨٧٢ متراً) ما بين منى ومجرى الوادي الرئيسي، هذا بالإضافة إلى روافد أخرى تأتي من الجبال المحيطة بمنطقة المعابدة، مثل جبل المسكين ما بين المعابدة والروضة والملاوي، ويزيد ارتفاعه على ٤٧٠ متراً.

وبمواصلة السير مع وادي إبراهيم نحو المصبّ نجد أنه يسمى بالخریق، وهي منطقة تحيط بها المرتفعات من الشرق والغرب. وتسمى المرتفعات الغربية بالحجون (وإلى جنوبها جبل المدافع). أما الشرقية فأكثر ارتفاعاً وتقطعها الشعاب، مثل شعب عامر الذي يلتقى مع وادي إبراهيم في منطقة الغزة، وشعب

ص: ١٩٤

على الذى يلتقى معه فى منطقة سوق الليل. وفى الغزوة يقع جبل قعيقعان وجبل النقاء ثم جبل الهندى غرب الشامية، وجبل عمر الذى شقَّ عبره طريق ليصل بين منطقتى الشبيكة والحفائر.

وإلى الشرق من الوادى- والحرم- يقع جبل أبى قبيس الذى يطلُّ على شعب على من الشمال. أما إلى الغرب والجنوب منه فهناك جبل خندمة الذى يفصل بين منطقتى أجياد والعزيزية، وفى الأول تقع جبال السبع بنات والمصافى وريع بخش وسلاسل، ويتراوح ارتفاع هذه الجبال ما بين ٤٢٠- ٥٩٢ م. وعلى جبال سلاسل تقوم قلعة أثرية قديمة شيدها الأتراك لتطل على الحرم من ناحيته الجنوبية.

وفى شمال غرب الحرم- منطقة حارة الباب- تقوم عدة جبال، أهمها جبل الكعبة (٤٦٧ م)، وريع الرسان (٤٥٣ م)، وهما من الجبال المأهولة بالسكان؛ نظراً لقربها من الحرم وقلب المدينة التجارى.

وبعد أن يترك الوادى منطقة الحرم يخترق مسفلة مكة، حيث ينتهى فى آخرها. والمسفلة تعتبر أكثر جهات مكة انخفاضاً، ولهذا تكثر فيها الآبار، مما ساعد على كثرة البساتين التى يمتلكها بعض كبار التجار، ويوجد فيها سكان مكة متنفساً لهم.

وبالإضافة إلى وادى إبراهيم هناك أودية أخرى عديدة، أهمها وادى العشر الذى تكوّن من تجتمع بعض الروافد المنحدرة من مرتفعات شمال مكة، ويتجه فى امتداده صوب الغرب حيث طريق مكة- جدة وأحياء الشهداء والزاهر والنزهة.

ويغذى وادى العشر أودية فرعية، منها وادى الرحا ووادى الرصيفة ووادى دبرة، ولكن أهمها وادى البحر الذى يسمى بهذا الاسم نظراً لاتساعه وغزارة المياه التى يجلبها، حيث ينبع من مجموعة جبلية يتراوح ارتفاع قممها ما بين ٧٠٠- ٩٦٠ م فى شمال الشميسى.



ص: ١٩٥

أما وادي الرصيفة، فيمتد من العتيبة إلى جروال فالتنضباوى، حيث يصل إلى شارع منصور- أحد شوارع مكة الرئيسية-، ثم يلتقى وادي إبراهيم مع نهاية المسفلة في منطقة الرصيفة التي استمدت اسمها من اسم الوادي، وفي وادي الرصيفة يقع بئر طوى، ويحيط به جبل أبى لهب وجبل ريع الكحل.

ومن جبال مكة ذات الأهمية الخاصة لدى المسلمين جبل النور (٦٣٤ م) في الشمال الغربي، وجبل عرفات، وجبل الرحمة في الشرق (٣٤٠ م)، ثم جبل ثور في الجنوب.

وجبل النور يقع فيه غار حراء، وقد أنشئ في قمته خزان لتجميع مياه الأمطار، ويصل إليه طريق معبد. أما جبل عرفات فتصعد إليه جموع المسلمين في يوم عرف باسمه. وفي جبل ثور يقع غار الهجرة النبوية.

ومعظم جبال منطقة مكة مأهولة بالسكان، وخاصة القريبة من الحرم. أما ما يقع منها في منطقة شعائر الحج في منى وعرفات فتقتصر الحياة فيها على موسم الحج فقط، كما يتردد عليها الزوار في مواسم العمرة.

وكان لموضع مكة في منطقة سهلية منبسطة- أو حوض مغلق- تحيط به الجبال ذات الشعاب، بحيث تكاد تغلقه من كل الجهات إلا في مخارجه الثلاثة، بالإضافة إلى حرمتها الدينية، أن أصبح المستقرون في هذا المكان أو العابرون له في غنى عن بناء أسوار الحماية، حيث يمكن للقافلة أن تتحصن في الشعاب بواسطة حراسها.

ومكة في هذا الأمر تنفرد بهذه الخاصية عن كل محطات القوافل ومدن التجارة على طول الطريق بين الشام واليمن، والتي تتخذ من الحصون والأسوار دروعاً واقية من هجمات المغيرين. أما في مكة فليست هناك أسوار حماية.

ومما ساعد هذا الموضع على اكتساب منزلة رفيعة مميزة تفجر عين زمزم في وسطه، والتي تستمد منها القوافل حاجتها من المياه. والمعروف أنه حيثما وجدت

ص: ١٩٦

المياه الدائمة الوفيرة فى منطقته صحراوية مثل مكة تحولت إلى مدن تعمل فى التجارة وخدمة القوافل، هذا بالإضافة إلى اكتساب مكة حرمة خاصة نظراً لوجود الكعبة المشرفة بها.

وعلى هذا، لم تكن قريش والقبايل الأخرى التى استقرت بمكة فى حاجة إلى تخطيطها على أساس دفاعى كما لم يكن هناك ما يدعو إلى بناء حصون أو أسوار- أبواب- ضخمة تتحكم فى الوافدين إليها أو الصادرين عنها. ومن هنا كان لتخطيط مكة طابع خاص، يعتمد على قداسة البيت والمركز الدينى المرموق، بالإضافة إلى طبيعة الموضع.

وعند هذا الحد يمكن أن نكوّن تصوراً عريضاً لموقع وموضع مكة، فهى المنطقة التى يتقابل فيها سهل تهامة الساحلى مع مجموعة الجبال والتلال الجرانيتية الظاهرة من مجموعة القاعدة الجيولوجية التى إليها العمران فى كثير من أجزائها.

ويفصل بين التلال مجموعة من الأودية، أهمها وادى إبراهيم الذى يضم قلب المدينة التجارى والمنطقة السكنية الرئيسية، وفى مركزها المسجد الحرام.

كما يقع هنا أيضاً المنزل الذى ولد فيه النبى وعيادات الأطباء والمستشفى الرئيسى للمدينة وجبانه المعلاة والبريد والبرق.... وكانت مكة فيما مضى ملتقى القوافل المتجهة إلى الشام واليمن. ينفذ إليها التجار والحجاج من كل مكان فى العالم الإسلامى. وفى الوقت الحاضر تأتى مكة فى ملتقى أهم طرق السعودية التى تربط بينها وبين مختلف أنحاء البلاد وخاصة مداخلها الشمالية والجنوبية، حيث تصل جموع كبيرة من الحجاج عن طريق السيارات لأداء فريضة الحج أو العمرة.

مناخ مكة

نظراً لموقع مكة الداخلى فى نطاق الإقليم الجاف- الصحارى المدارية وشبه المدارية- فقد تميزت بالسماء الصافية. وعظم تأثير ضوء الشمس فى رفع درجات الحرارة؛ فمتوسط درجة الحرارة السنوى لا يقل عن ٢٧١٢ م. والجدول التالى يبين

ص: ١٩٧

درجات الحرارة العظمى والصغرى خلال شهور السنة بمنطقة مكة:  
الشهر متوسط درجة الحرارة العظمى متوسط درجة المتوسط الحرارة الصغرى

يناير ٦ ر ٢٢٩ ر ٤١٧ ر ٢٣

فبراير ٧ ر ٣٣٠ ر ١١٨ ر ٢٤

مارس- ر ١٣١ ر ١٩- ر ٢٥

أبريل ٨ ر ٣٣٣ ر ٥٢١ ر ٢٧

مايو ٢ ر ٢٣٤ ر ٧٢٣ ر ٢٨

يونيو ٨ ر ١٣٥ ر ٤٢٣ ر ٢٩

يوليو ٦ ر ٢٣٧ ر ٩٢٤ ر ٣٠

أغسطس ٢ ر ٤٣٦ ر ٣٢٥ ر ٣٠

سبتمبر ٧ ر ١٣٤ ر ٩٢٥ ر ٢٩

أكتوبر ٨ ر ٨٣٤ ر ٨٢٠ ر ٢٧

نوفمبر ٢ ر ٧٣٢ ر ٤٢٠ ر ٢٦

ديسمبر ٩ ر ٧٢٩ ر ١٨- ر ٢٤

٤ ر ٥٣٣ ر ٨٢١ ر ٢٧

ومن الجدول يتضح أن متوسط الحرارة خلال شهور الصيف (مايو- أغسطس) مرتفع، ويصل إلى نحو ٣٠ م، ثم يأخذ فى الانخفاض حتى يصل فى شهور الشتاء إلى ٢٤ م. ويلاحظ أن أكثر شهور السنة حرارةً هو شهر يوليو (٩ ر ٣٠ م) وأقلها حرارةً شهر يناير (٤ ر ٢٣ م). ولعل ارتفاع درجة الحرارة فى مكة طوال معظم شهور السنة يعود إلى إحاطتها بالجبال التى تمنع عنها المؤثرات البحرية. وكان لذلك أثره على الفروق الحرارية بين الصيف والشتاء، حيث تصل إلى نحو ٦ م فقط.

ومن دراسة الجدول أيضاً نلاحظ عدم وجود تغيّرات موسمية واضحة فى درجات الحرارة، وخاصةً درجات الحرارة العظمى، وهذا هو طابع الجهات المدارية الجافة بوجه عام. أما المدى الحرارى فهو غير واضح بين الشهور، ولكنه أكثر وضوحاً بين الليل والنهار، حيث يبلغ أكثر من عشر درجات. وسبب ذلك

ص: ١٩٨

بطبيعة الحال يعود إلى الجفاف والبعد عن المؤثرات البحرية.

أما من حيث الأمطار على منطقة مكة فإنه على الرغم من قربها من البحر الأحمر والذي لا يبعد عنها أكثر من ٧٣ كم، إلا أنه نظراً للخصائص المناخية التي تميزه، ووجود الجبال كحاجز بينها وبينه، فإن أهميته كمصدر للأمطار محدود للغاية، بينما المصادر الحقيقية تقع فوق البحر المتوسط؛ ولذلك فإن الأمطار هنا تخضع في سقوطها لنظام هذا البحر، إنها تسقط خلال الشتاء. أما الفترة الواقعة بين شهري يونيو وأكتوبر فإنها فترة جافة عديمة الأمطار. والتباين في كمية المطر الساقطة خلال الشهور أكثر وضوحاً كلما قلت كمية الأمطار السنوية. ويمكن أن نرجع ضالّة الأمطار أيضاً إلى الانخفاض النسبي الذي يميز الجبال المحيطة بالمنطقة، سواء في اتجاه الهضبة الداخلية أو في اتجاه البحر بوجه عام.

ومعظم مياه الأمطار تنصرف عبر الأودية، خاصة وادي إبراهيم، مما ينتج عنه أحياناً بعض السيول المدمرة، آخرها تلك التي حدثت في عام ١٩٧٤ م وشهدتها الباحث، وتسببت في وقوع خسائر جسيمة في الأرواح والأموال، وتبذل الجهود لمواجهة مثل هذه السيول المفاجئة والمدمرة بإقامة عدد من مصارف الأمطار، خاصة في منطقتي الحرم والمسفلة، أكثر جهات مكة انخفاضاً.

ص: ١٩٩

والرياح الشمالية هي الرياح السائدة خاصة في الشتاء سرعتها في هذا الفصل بين ٤٠ - ٦٠ كم/ ساعة، ويزيد من حدة تأثيرها صفاء السماء وقت الهبوب، وكذلك اختلاف اتجاهاتها بصورة فجائية بسبب عامل التضاريس المحلية، مما يسبب أضراراً بالغه للزراعات القليلة بالمنطقة، وبخاصة زراعات الخضر والفاكهة وأشجار النخيل؛ نتيجة لجفافها وإثارها للغبار المتراكم فوق التلال المحيطة بالمنطقة.

وفي فصل الصيف، تهب على منطقة مكة نوع من الرياح المحلية تعرف برياح السموم، تشبه في خصائصها رياح الخماسين في مصر إلى حد كبير، حيث تؤدي إلى رفع درجة الحرارة بشكل واضح، ولكنها في نفس الوقت تساعد على نضج ثمار النخيل.

مصادر المياه في مكة

وهي من أهم مشكلات مكة باعتبارها مدينة حج في بيئها جافة، ومع ذلك تشهد طوفاناً بشرياً في موسم معين من السنة. ولما كان نمو المدن يتأثر كثيراً بمقدار ما يمكن تديره من مياه لاستخدامات السكان المتعددة، والتي تتمثل أساساً في الاستخدامات الشخصية، ثم في النواحي الاقتصادية- وأهمها الصناعة- فإنه بالنسبة لمكة نجد أن الاستخدامات الأولى تمتص النسبة الكبرى من مواردها المائية، بالإضافة إلى بعض الزراعات الصغيرة، في مدينة لا تضم سوى بعض الصناعات الخفيفة أو اليدوية التي لا تستهلك من الماء إلا القليل، ثم تأتي بعدها الأغراض الأخرى.

وتواجه مكة المكرمة مشكلة مياه متجددة مرتبطة بنموها السكني والسكاني، خاصة وأنه قد صاحب ذلك تعدد ونمو في وظائفها، وذلك بسبب اعتمادها القديم والدائم على مجموعة معينة من الآبار، ومن مستوى ماء باطنى ثابت قليل العمق غالباً.

ص: ٢٠٠

وتحصل مكة على المياه من مصدرين:

١- مصادر تملكها الدولة (إدارة عين زبيدة والعزيرية).

٢- مصادر خاصة يملكها الأفراد ممثلة في عدد من الآبار داخل مكة أو بالقرب منها.

ومعظم استهلاك مكة من الماء تحصل عليه من المصادر الأولى (عين زبيدة والعزيرية)، وتسحب المدينة نحو ٦٠٠ ر ٢١ م ٣ من المياه يومياً، أو ما يعادل ٨ مليون متر مكعب في السنة حسب البيان التالي:

المصدر نوعه متوسط الكمية الوادي ملاحظات يوماً بالمتر المكعب

عين زبيدة نبع ٣٥٠٠ النعمان تنقل المياه إلى مكة بواسطة قناة من الحجارة مغلقة بالبلاط في بعض أجزاءها.

عين العزيرية نبع ٣٦٠٠ فاطمة تستهلك الزراعة المحلية كمية مماثلة لاستهلاك المدينة من هذين المصدرين.

عين صلاح نبع ٢٠٠٠ فاطمة

عين مودى نبع ٥٠٠٠ فاطمة

عين القشاشية بئر ٦٥٠٠ فاطمة تعمل عليه مضختان.

بئر العابدية بئر ٢٠٠٠ النعمان تعمل عليه مضخة واحدة.

وجميع هذه المصادر تبعد عن مكة مسافة تتراوح بين ٢٢-٢٨ كم.

وباستثناء عين زبيدة التي تنقل مياهها عن طريق قنوات مغطاة أنشأها الأتراك، فإن مياه العيون أو الآبار الأخرى تنقل إلى مكة بواسطة سيارات أعدت لهذا الغرض.

أما مصادر المياه الخاصة، فيبلغ عددها ٢٠٦ آبار، تزود المدينة بمصدر إضافي للمياه يعتمد عليه نحو ١٥٪ من سكانها. وبالرغم من عدم معرفة كمية المياه التي تتدفق من هذه الآبار على وجه الدقة- لعدم وجود بيانات- إلا أنها لا تقل بحال عن مليونين من الأمتار

المكعبة سنوياً. والجدول التالي يوضح مواقع الآبار

ص: ٢٠١

الخاصة في مكة:

الموقع عدد الآبار الموقع عدد الآبار

المسجلة... ٣٤ المعابدة... ٢٩

جرول... ٧٣ شارع المنصور... ٢٣

أجساد... ٢٠ النزهة وأم الدرج... ١٥

الشهداء... ١٢ جملة... ٢٠٦

ويستفاد من بيانات مصلحة عين زبيدة والعزيرية والدراسة الميدانية أن متوسط استهلاك الفرد من المياه يومياً يقدر بنحو ٦٨ لتراً، وهو معدل منخفض حتى إذا ما قورن بمعدلات الاستهلاك الفردى فى البلدان ذات المستوى الصحى المقبول، وهو لا يقل عن ٩٠ لتراً فى اليوم للشرب والطبخ والاستحمام وغسل الأوانى وفى دورات المياه.

وهذا الاستهلاك الفردى المنخفض ظاهرة تدعو إلى القلق خاصة من ناحية الصحة العامة فى مدينة تشهد تزايداً سكانياً مستمراً وحرارة عمران واسعة، كما يفد إليها أعداد هائلة من الحجاج والمعتمرين من مختلف البلاد والجنسيات.

ويتم توزيع المياه على سكان مكة بعدة طرق:

- ١- التوصيلات المباشرة بواسطة شبكة أنابيب المياه، وهى تزود ما يقرب من ٥٣٪ من السكان بحاجاتهم من المياه.
- ٢- سيارات نقل الماء (الوايتات)، وتقوم بنقل المياه لنحو ١٥٪ من سكان المدينة.
- ٣- مراكز التوزيع للجمهور مباشرة أو عن طريق السقاين، ويحصل على المياه بهذه الطريقة باقى السكان (٣٢٪).

ص: ٢٠٢

ويختلف سعر الماء في مكة حسب طريقة التوزيع:

أ- فهو يبلغ نصف ريال/ م ٣ من الماء الذي ينقل بواسطة شبكة الأنابيب للمشترين.

ب ثلاثة ريالات/ م ٣ ينقل عن طريق الوايتات.

ج- خمسة ريالات/ م ٣ من الماء يتم ضخه من الآبار الخاصة.

د- أما المياه التي توزع من مراكز أو نقاط التوزيع فلا تتقاضى إدارة عين زبيدة ثمناً لها.

وتهدف المشروعات (الجاري تنفيذها حالياً) إلى تعميم نقل المياه عن طريق المواسير، والقضاء على ظاهرة السقايين بوجه خاص، منعاً للتلوث، والحفاظ على الصحة العامة. وقد بدأت شركة متخصصة في مد مواسير المياه إلى المنازل، وإنشاء عدد من الخزانات الضخمة على أطراف المدينة. وبدأت دراسات جادة للوصول إلى مصادر أخرى ثابتة للمياه لسد احتياجات المدينة مستقبلاً. ويبدو أن هناك اتجاهاً إلى زيادة طاقة محطة تحلية مياه البحر في جدة لإمداد مكة باحتياجاتها، أو إنشاء محطة أخرى تخصّص لمدينة مكة وحدها، كما تجرى دراسة للمياه الجوفية حول مكة.

نمو المدينة وتطورها

مكة المكرمة من أهم مدن السعودية وأقدمها سكاناً، وهي ثلثة مدن المملكة من حيث السكان (٣٣٦٨٠١ نسمة حسب تعداد عام ١٩٧٤ م) بعد كل من الرياض وجدة.

فمنذ أسكن إبراهيم أهله في هذه المنطقة والناس يتوافدون عليها، خاصة بعد بناء الكعبة، وتفجّر بئر زمزم إلى جوارها. وكان العرب وغيرهم يتوافدون على مكة للحج والتجارة، مما ساعد على زيادة عدد السكان واتساع مساحتها كثيراً تبعاً لذلك، وظهور أحياء عديدة في



ص: ٢٠٣

مختلف العصور.

وقد عنى الجغرافيون العرب بوصف مكة على عهد النبي، فذكروا أن الحرم كان مركز الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية، شأنها في ذلك شأن مدن العصور الوسطى التي كانت الكاتدرائية أو الكنيسة في وسطها، وإلى جانبها أسواق المدينة المركزية ومساكن الحرفيين ومحلاتهم (١). فكان يحيط بالكعبة منازل قريش مقسمة على أساس النسب، فكان شعب بنى هشام مثلاً في شمال شرق الحرم، وبهذا كان أقرب إلى المعلاة، وكانت المساكن تبنى على سفوح المرتفعات المشرفة على الوادي وشعابها. ويقول القرطبي في كتابه «الإعلام»: «إن مكة كان مبدؤها المعلاة، ومنتهاها من جهة المسفلة لصق مجرى العيون، ونهايتها الشبيكة من جهة جدة، وعرضها وجه جبل يقال له - في عهده - جبل جزل، وقد سماه الأزرقى الجبل الأحمر» كما ذكر القرطبي بأن مكة لم تكن مسورة (٢).

وعلى نحو ما ذكر ابن حوقل في كتاب المسالك والممالك: «يلغ طول مكة من المعلاة إلى المسفلة نحو ميلين، ومن أجياد إلى ظهر قيعقان نحو ١١٣ ميل، والمسجد الحرام وسط مكة، والكعبة في وسط المسجد، وبهذا فقط أحاطت مكة بالبيت الحرام، وترتفع الجبال على جانبي الوادي وتحيط به بحيث تحدد مداخله، ولذا لا تشاهد أبنية مكة للقادم عليها إلّا وهو على أبوابها». وقد تركز السكان حول الكعبة، فمعظم من سكن مكة قديماً عاش بالقرب منها حتى يسهل الاتصال بالحجاج أو الوافدين إلى المدينة، وكذلك حتى يكون قريباً من بئر زمزم مصدر المياه الوحيد تقريباً في ذلك الوقت. ولكن ما لبث أن تضخم حجم المدينة، وزاد اتساع رقعتها كثيراً، نظراً

١- Feeman, T.W. ١٩٦٨, Geography and Planning, London, P.١٩ -١

٢- أحمد السباعي ١٣٨٢ هـ، تاريخ مكة: ١٠٢، الطبعة الثانية، مكة.

ص: ٢٠٤

للزيادة السكانية الهائلة والمستمرة، وكذا لاهتمام الدولة بإعادة تخطيط مكة وشق الطرق الحديثة وخاصة الموصلة منها إلى الحرم أو منطقة مشاعر الحج، وما لبثت أحياء جديدة أن ظهرت في اتجاه كل من جدة والطائف. والكعبة أول ما شيد في مكة المكرمة، ثم ما لبث القبائل أن توافدت عليها للإقامة أو التجارة، واتخذت كل منها مكاناً حول الكعبة وبالقرب من بئر زمزم، وعمرت مساحةً محدودة من جبل هندی والقشاشية والمسعى وأجباد والسدّ والمصافي حتى المسيال وجزء من المسفلة صغير. أما الأحياء الأخرى البعيدة عن الحرم فقد تأخر تعميرها أو سكنها نظراً لصعوبة شق الطرق إليها لبعدها عن بئر زمزم. وعندما حاول الناس البناء بجوار الكعبة خط لهم ابن كلاب خطأً حولها عليهم أن يبنوا دونه، وأمر أن تكون هناك طرق بين هذه البيوت تؤدي إلى ساحة الحرم، كما أمرهم كذلك ألا ترتفع مساكنهم عن الكعبة لتظل مشرفة.

وكانت حدود مكة في القرن الثاني الهجري كما يلي:

من جهة الشرق: القشاشية، وشعب على، وشعب عامر، والمعلاة حتى حدود المعابدة.

ومن الشمال: الشامية والفلق وجبل هندی

وفي الغرب: حارة الباب وجزء ضئيل من المسفلة، وجبل عمر.

وفي الجنوب: حتى أجباد بكامله.

ولم يطرأ على هذه الحدود تغيير يذكر في عهد الأمويين أو العباسيين، إلّا أنه في عهد الأمويين شيدت أسوار (أبواب) لمكة في المعلاة والشبيكة والمسفلة.

وفي عهد العثمانيين، لقيت مكة عناية فائقة، فمدّت إليها المياه العذبة من أماكن بعيدة كعين زبيدة مثلاً، وكذلك عنى بالمسجد الحرام، وبنى بناية إسلامية، وتم تزيينه بالنقوش التي لا تزال ظاهرة حتى اليوم في البناء الداخلي للمسجد.

ص: ٢٠٥

وفي عهد الأشراف، ظهرت أحياء جديدة في مكة، لعل أهمها جرول والزاهر، وتزايدت مساحة كل من المسفلة والمعابدة. وفي ظل حكم السعوديين، ساعد اكتشاف البترول في المملكة وتدفعه بكميات ضخمة على ظهور أحياء جديدة أخرى أكثر اتساعاً ورفاهية، وامتدت المدينة على الطرق المؤدية إلى كل من جدة والطائف. ويقدر أن مكة المكرمة قد تضاعفت مساحتها خلال نصف القرن الأخير، كما تم وضع تخطيط لها أعدّه مكتب تخطيط المدن بالمملكة. وقد اتسعت المدينة بذلك إلى مشارف منى، وضمت منطقة الحوض (العزيرية) والعدل والخانسة والزهراء.... ويرى الباحث أن نمو المدينة خلال الفترة الأخيرة وخاصة منذ بداية الخمسينات من القرن الحالي وتطور العمران بها يعود إلى الأسباب الآتية:

١- العامل الاقتصادي

٢- العامل الديني والثقافي

٣- توافر الأمن والاستقرار بالمملكة.

أولاً: العامل الاقتصادي

كانت على طريق التجارة بين الشام واليمن (١) مدينة مكة المكرمة منذ بداية تعميمها محطة، وقد استدعى ذلك ضرورة توفير الأماكن المناسبة لسكنى التجار وإقامتهم، وعلى هذا فقد نشطت حركة العمران بالمدينة منذ نشأتها.

وفي الوقت الحاضر ازدحمت مكة المكرمة بمئات المحال التجارية وتوكيلات الشركات العالمية وفروع البنوك المختلفة، هذا بالإضافة إلى قيام بعض الصناعات

١- نعيم زكي فهمي، ١٩٧٣، طرق التجارة الدولية و محطاتها بين الشرق والغرب: ١١٥-١٨٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

ص: ٢٠٦

الخفيفة التى تخدم الوظيفة الدينية للمدينة. كما أدى ارتفاع دخل الفرد فى المملكة، وزيادة قدرته الشرائية وإقباله الشديد على استخدام كل أجهزة العصر التى توفر له الرفاهية والتقدم، إلى اتساع رقعة المدينة واتجاه السكان إلى البناء خارجها. ويتخذ نمط التخطيط فى الضواحي الجديدة شكل الفيلات التى تحيط بها الحدائق الواسعة.

ثانياً: العامل الدينى والثقافى

ويعتبر من أهم عوامل نمو المدينة وتطورها، وذلك نظراً للزيادة المضطردة فى أعداد حجاج البيت والمعتمرين إليه كل عام، مما استلزم ضرورة إقامة الفنادق والمساكن لإيوائهم، وشق الطرق المرصوفة والواسعة إلى منطقة الحج فى منى أو إلى جبل النور وغيره من المعالم الإسلامية بمكة.

وفى سبيل تحقيق ذلك، قامت الحكومة السعودية بنزع ملكية مساحات هائلة من الأراضى، وهدم آلاف المساكن التى كانت تعيق التخطيط الحديث للمدينة، وتعويض أصحابها عنها بمبالغ ضخمة حتى يمكنهم إنشاء مساكن أخرى فى مناطق التعمير الجديدة على أطراف المدينة، والتى زوّدتها الحكومة بمختلف الخدمات التعليمية والصحية وغيرها، وشقت إليها الطرق المرصوفة.

ولما كان موسم الحج يعتبر من مصادر الدخل الهامة لسكان المدينة فقد اهتم المطوفون والتجار بصفة خاصة بإنشاء عمارات حديثة خصّصت لسكنى الحجاج خلال موسم الحج فقط، بينما تظل شبه مغلقة بقیة شهور السنة. وفى هذا نلاحظ الارتباط الوثيق بين الدين والأعمال التجارية، وهو يشبه ما حدث فى أوائل العصور الوسطى فى أوروبا عندما كانت الهيئات التجارية تحاكي المنظمات الدينية فى تنظيم قواعدها التجارية، والتى كانت قائمة على أسس ديرية، وكانت تقتضى ذات الانقطاع الشديد ولكن ابتغاء للربح المادى، وكان من المهام الرئيسية لفرسان المعبد ( ) أن يؤدوا عمل وكلاء النقل ورجال المصارف.

ص: ٢٠٧

أما عن أثر العامل الثقافي في نمو المدينة، فلقد كان للنهضة التعليمية التي شملت المملكة، والاهتمام المتزايد بإنشاء المدارس والجامعات، أثره الكبير في اتساع رقعة مكة، لما استلزمه ذلك من إقامة مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية، ثم إنشاء جامعة الملك عبدالعزيز (كلية التربية والشريعة) في منطقة الحوض، وتخصيص مساحات كبيرة لمنشآتها المختلفة، وكذلك إنشاء معهد المعلمين بالقرب من الجامعة. وقد تبع ذلك - بطبيعة الحال - إقامة مساكن للطلبة، مما كان له أثره في ازدهار المدينة عامه، ومنطقتي الحوض والعزيرية خاصة.

ثالثاً: توافر الأمن والاستقرار

ولا شك أن هذا العامل له أثر كبير في نمو مدينة مكة وتطور العمران بها، وخاصة منذ ولي السعوديون حكم البلاد، فلم تكن سيطرة السابقين لهم لتمتد إلا على مساحات قليلة حول مراكز الاستقرار في البلاد؛ ولذلك فقد اتجه السكان - بعد أن اطمئنوا إلى حكمهم وعلى أموالهم - إلى التوسع في البناء على أطراف المدينة وعلى طول الطرق المؤدية إليها، وكان للحكومة جهد وافر في هذا المضمار

ص: ٢٠٨

بمساهمتها في توفير المساكن لغير القادرين أو إنشاء مساكن للذين أزيلت مساكنهم لشق الطرق الجديدة وإتمام مشاريع توسعة الحرم الشريف.

ومن خريطة اتجاهات النمو العمراني للمدينة نستطيع أن نلمح تأثير المظاهر الطبوغرافية المحلية على شخصيتها؛ فقد اتخذت رقعته البناء الأساسية من الوديان والشعاب مستقراً لها؛ نظراً لسهولة البناء وشق طرق المواصلات، وكذلك للقرب من مصدر المياه الرئيسي (بئر زمزم) في وادي إبراهيم، ثم اتجه البناء بعد ذلك إلى التلال المحيطة بالحرم طلباً للحرارة المعتدلة والأمن، بالإضافة إلى القرب من الحرم - مصدر الرزق لمعظم سكان المدينة - وفي الفترة الأخيرة اتجه التعمير نحو الأراضي السهلية في أم الدود والحوض بسبب توافر أجهزة التكييف وانخفاض أسعار الكهرباء واستقرار الأمن؛ وهكذا نزلت المدينة هابطاً من الكنتورات العالية إلى الكنتورات المنخفضة، أو من المناطق التلية إلى المناطق السهلية.

اتجاهات النمو

تتجه مكة المكرمة في توسعها العمراني على محورين رئيسيين:

الأول: ويتبع الطريق إلى مدينة جدة، حيث ظهرت عدة أحياء جديدة، أهمها الزاهر والزهران والزهاء، وتشكل مساحات هذه الأحياء حالياً نحو ثلث مساحة مكة بأكملها، رغم أنه لم يبدأ تعميرها إلا منذ منتصف القرن الحالي تقريباً.

الثاني: ويتبع الطريق إلى الطائف ممثلاً في أحياء الششة والعزيزية والفيصلية.

وتشكل هذه الأحياء أيضاً مساحة كبيرة من المدينة.

ومن أسباب اتجاه نمو المدينة على المحور الأول أنه المدخل الرئيسي لها من ناحية القرب، حيث ميناء مكة الهام - جدة - على البحر الأحمر، والذي يصل عن طريقه حجاج البحر الذين يمثلون غالبية الحجاج، كذلك فإن ميناء جدة من أهم موانئ المملكة، وتصل عن طريقه معظم البضائع الواردة إليها. وجدة أيضاً متنفس طبيعي لسكان مكة، وإليها يتجهون في أسفارهم إلى خارج المملكة، وكذلك

ص: ٢٠٩

لزيارة الأطباء وقضاء كثير من متطلباتهم.

وكان من أسباب اتجاه نمو المدينة على هذا المحور أيضاً توافر مياه الآبار والعيون بالمنطقة، وخصوبة التربة في الوديان والشعاب الموجودة بها.

أما اتجاه نمو مكة على المحور الثاني فهو على الطريق إلى منطقة شعائر الحج، بالإضافة إلى استواء السطح بها... ووجود بعض المزارع والبساتين بالمنطقة، كذلك فإن اختيار موقع كليتي التربية والشريعة ثم معهد المعلمين في هذه المنطقة كان له أثر كبير في جذب العمران إليها، وما تبع ذلك من تعبيد للطريق أو إنشاء خدمات، ثم تواتر أصحاب المحال التجارية إليها وإنشاء بعض المستشفيات بالمنطقة ومصنع للتلج وكثير من المقاهي والمتنزهات. هذا بالإضافة إلى أن مدينة الطائف هي مصيف لسكان مكة وللحكومة كذلك، مما زاد في أهمية الطريق إليها، وبالتالي شهد حركة عمرانية واسعة خاصة في السنوات الأخيرة، حيث تمثل حالياً ما يقرب من ثلث مساحة مكة بأكملها.

وهكذا، فإننا نستطيع القول بأن أكثر من نصف مساحة المدينة هي بنت نصف القرن الأخير من نموها.

مورفولوجية مكة

ظهرت مكة المكرمة مع بناء البيت، وارتبط تاريخها بتاريخه، كما أن تخطيط المدينة منذ إنشائها له طابع خاص، يعتمد على قداسة البيت والمركز الديني المرموق لأهل الحرم في شبه الجزيرة.

ولا شك أن البيت الذي تجسدت فيه الوظيفة الدينية للمدينة كان بمثابة النواة التي تضبط اتجاهات نمو المدينة وامتدادات شوارعها، ويظهر أثرها واضحاً في تركيب المدينة خلال مراحل تطورها المختلفة.

وليس هناك أي موضع يمكن أن ينافس هذه النواة من حيث قوة جاذبيتها وسيطرتها على أي تخطيط يمكن أن يوضع للمدينة حالياً أو مستقبلاً.

ص: ٢١٠

وتمثل أهمية ملامح تركيب مكة فيما يلي:

١- الكتلة السكنية للمدينة: تبدو مندمجة أقرب إلى الشكل الدائري الذي يتوسطه الحرم، تفصل بينها الحارات الضيقة والأزقة المتعرجة، ولا تترك بينها وبين الحرم سوى رقعة صغيرة من الأرض تعرف حالياً بالمكاف. وقد حرص الناس فيما مضى على أن تكون أبنيتهم في شكل دائري حتى لا تشبه بناء الكعبة المربعة، وأن تكون تلك الأبنية أقل ارتفاعاً من الكعبة، فكانت المنازل بمثابة السور الذي يحيط بالبيت.

ولم يكن للحارات من وظيفته سوى تيسير حركة المشاة، والوصل بين أحياء المدينة التي كان يمثل كل منها قسماً مستقلاً تقريباً، شأنه شأن المدينة ككل. ولما كانت صلتها بالخارج قد تحددت مع وظيفتها الدينية وتداعياتها، فقد كانت الرغبة في إبراز أهمية قلبها الديني وراء تركيبها العمراني حيث يظهر المسجد الحرام محاطاً بسلسلة من الحلقات غير المنتظمة التي تكتنف القلب وتحميه، على حيث تجعل الوصول إليه أقرب منألاً عن طريق حارات ملتوية، وتشكل محيطها مع بروزات موضعها- وإن اتخذت عامة- شكلاً مستديراً شأن مدينة العصور الوسطى عامة (١).

والمنازل تصطف بحيث تؤلف إطاراً لوحدة سكنية مغلقة لا تعلو عن طابقين أو ثلاثة غالباً، تستمد بنائها من التربة والصخور المحلية، فهي من الأحجار المسقوفة بجذوع النخيل، تتوزع داخلها الأسواق، متخذة أشكالها القديمة ذاتها، ومتبعة نمط معاملاتها الموروثة.

٢- في مكة أسواق عديدة، منها اثنتان للحيوان- إبل وماعز وضأن- في المعابدة وجرول، واثنتان للخضر والفاكهة في النقا وجرول. أما أسواق الأقمشة

Robert, E. Dickinson ١٩٦٥, "The Growth of the Historic city", in "Readings in Urban - ١ Geography", Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde, F. Kohn, The Univ. of Chicago Press, .PP. ٦٩-٨٤



ص: ٢١١

والملبوسات والأدوات الكهربائية ففي المنطقة المحيطة بالحرم مباشرة في أحياء النقا والقرارة والغزة وأجباد. وأسواق الحيوان أقدمها، وكانت فيما مضى خارج المدينة قبل زحف العمران إلى المناطق الجديدة، ويباع فيها أيضاً ما يجلب إلى مكة من منتجات البادية من صوف ووبر.

٣- جبانة المعلاة- مقبرة مكة الوحيدة- تنقسم إلى قسمين، بينهما شارع رئيسي، وكل من القسمين مسور، وفي القسم الأقرب إلى الحرم مظلة للعزاء وإدارة لخدمة الموتى.

٤- الجزء القديم من المدينة يتميز بعدم الانتظام، وفوق كل هذا ليس هناك تنسيق أو تخطيط معين للطرق أو المباني التي احتشدت معاً في فوضى واختلطت بغير انتظام، وأصبحت الفراغات بينها أزقة المشاة والعربات، وارتفعت كثافة السكان.

وهناك إحساس باستمرار الازدحام والاضطراب (١)، كما لم تكن هناك حاجة إلى مراعاة مطالب مد أنابيب المياه أو المجارى أو الكهرباء. وكان من مظاهر الاتساق مع خصائص الموضع مراعاة خطوط الكنتورية بدلاً من محاولة تهذيبها، أى كأن هناك نوعاً من التخطيط العضوى وهو ذلك التخطيط الذى لا يبدأ باستهداف غرض محدد سلفاً، بل ينتقل من حاجة إلى حاجة ومن فرصة إلى فرصة في سلسلة متصلة من الملاءمة مع ظروف الموضع.

لقد كانت «وحدة الجوار» السمة الرئيسية في تركيب المدينة الداخلى، وظلت الكعبة قلبها الخافق، بينما انقسمت كتلتها إلى أحياء شبه مكتفية بذاتها، وانقسمت الأحياء إلى أحواش. وكان بالمدينة عدد من المدارس وعدد أكبر من مكاتب الصبيان ومكاتب القراءة، بالإضافة إلى عدة مكاتب لتعليم البنات. أما الأربطة والزوايا فكثيرة، وظلت بعض المكتبات عامرة، ومن أشهرها مكتبة الحرم.

ص: ٢١٢

٥- يتضح من شكل الشوارع في الأحياء القديمة أن وظيفة الشارع فيما مضى تختلف عنها في عصرنا الحالي، فكانت دروب السير على الأقدام في الداخل هي التي يسلكها السكان يومياً، ولذا فلم تكن هناك ما يمكن تسميته «شبكة طرق لحركة المرور»؛ لعدم وجود حركة مرور دائبة من ناحية، ولأن الشارع كان ضيقاً تلييه لوظيفة محددة، وهي تنقلات السائرين على أقدامهم من ناحية أخرى، ولم تكن الشوارع ضيقة وفي حالات كثيرة غير منتظمة فحسب، بل كانت تكثُر بها المنحنيات الحادة والسدات، وكان من شأن ذلك أن يحد من قوة الريح، ويقل شدة التعرض لخطر الغرق بالفيضان (١).

لقد كنت الكتلة السكنية المتجمعة - بما فيها من مساكن وحوانيت ومبانٍ للحرفيين - هي التي تحدد امتدادات الشوارع، وكان من شأن اتجاه المساكن نحو الالتفاف حول النواة، أن يعيق ظهور ونمو نسق الوحدات السكنية، وكانت الجبال هي الحد الذي يحدد في الأصل التكوين المادي للمدينة.

٦- يتميز التركيب الحالي لمدينة مكة المكرمة بأنه أكثر تعقيداً وأقل ثباتاً مما كانت عليه في الماضي القريب، وذلك نتيجةً لمجموعة من العوامل سبق الإشارة إليها من قبل.

وقد حققت هذه العوامل نجاحاً ملحوظاً في توظيف اليد العاملة في نواحي نشاط أكثر تنوعاً، كما ساهمت وسائل المواصلات الحديثة في عملية نقل حضارى عميقة الأثر، كما ساعد تكوين المدينة القابل للامتداد على اتساع مساحتها كثيراً، بحيث تستطيع تلبية واستيعاب الحاجات المتغيرة. وكان من جراء نشوء وظائف اقتصادية ومهام اجتماعية جديدة ظهور التخصص بدرجة أوضح في وظائف مبانيها، كما أنها قد أدخلت على هذه المباني من ضروب التميز ما أكسبها - معمارياً - أشكالاً تعبر عن تباينها ومرحلة نموها.

١- جمال حمدان، بدون تاريخ، أنماط من البيئات: ٨٨، القاهرة.

ص: ٢١٣

لقد امتدت كتلة المدينة السكنية مع محاور مواصلاتها إلى جدّة والطائف، وأصبحت هذه المحاور بمثابة إطار يحدد اتجاهات نموها وشكلها المورفولوجي في المستقبل.

٧- مع نمو المدينة المتزايد والمستمر، نجد أنها قد انقسمت إلى مناطق سكنية تحيط بالحرم، وممتدة في الفترة الأخيرة مع شوارعها الجديدة، ونامية بمعدل سريع نحو المواضع الفسيحة على الطرق المؤدية إلى الطائف أو جدّة. وتظهر المنطقة التجارية مرتبطة بوسط المدينة، وهي المنطقة المحيطة بالحرم، مع امتدادات أقل كثافة على طول الشوارع الحديثة، وهو ما يؤكد وظيفة القلب في هذه المدينة المقدسة، باعتباره يمثل النبض اليومي لجملة وظائفها، كما تظلّ المقبرة التاريخية في موقعها إلى الشمال من الحرم، وتبدو بقية وظائف المدينة الحديثة كمركز للخدمات الإدارية والفعليّة موزعة على أبعاد متفاوتة من القلب متناثرة على طول محاور نموها الرئيسية.

٨- رغم مظاهر النمو الحديثة في تركيب مكة ووظائفها، إلّا أنها ما تزال لم تتجاوز كثيراً خصائص موضعها الطبيعيّة، كما أنها ما تزال أقرب للاندماج بنواتها، ويظهر وادي إبراهيم كخط طبيعي يحدّد موضعها، كما أن الجبال المحيطة تمثل حدودها. ويظهر التداخل بين مورفولوجية المدينة وطبوغرافيتها في تلك الامتدادات السكنية فوق التلال المتداخلة في منطقة مكة كرؤوس من جبالها.

والواقع أن أهم مظاهر التغير الحديثة في مكة المكرمة قد بدت في اتجاهين:

يتصل الأول بالتركيب، والثاني بالوظائف (١). وقد بدأت هذه التغيرات تخضع

---

١ - Chauncy, D. Harris And Wdward, E. Ullman, ١٩٦٥, The Nature of Cities, in Reading in Urban Geography Edited by: Harold, M. Mayer and Clyde, F. kohn The Univ. of Chicago Press Chicago, pp. ٢٢٧/٢٩٨ ٢١٣

ص: ٢١٤

حديثاً لنوع من التخطيط لم تتضح أبعاده النهائية بعد.

٩- يلاحظ أن جوهر التغيرات فى تركيب المدينة المعاصر هو اتجاهها لى تتحول إلى مدينة الشوارع التجارية، مع التمسك بالقلب الدينى الذى ضبط نموها فى الماضى والحاضر من ناحية، وشبكة الشوارع التجارية العريضة من ناحية ثانية. وهناك من الدلائل التى ترخّج هذا التصور أهمها ما يتصل بعملية خلخلة المنطقة الوسطى، وخطه إنشاء شبكة الشوارع التجارية العريضة. كما تشمل أيضاً المرافق العامة وتجميل المدينة.

أ- خلخلة المنطقة الوسطى: وهى المنطقة التى تضم ما تبقى من المدينة القديمة وبؤرة التجارة المركزية وأحياء السكن الداخلية حول الحرم، ولقد أزيلت الكثير من معالم مكة القديمة، كما أضيفت أجزاء منها إلى المسجد، ودخلت فى مساحاته خاصة بعد التوسعة السعودية الأخيرة، وأجزاء أخرى استخدمت فى شق شوارع جديدة أو فى توسيع أخرى قائمة. ولما كانت المنطقة الوسطى تضم نسبة كبيرة من خدمات المدينة، وأكثر من ثلث سكانها، وعددًا كبيراً من المساجد الأثرية والمباني القديمة، فإن الاتجاه إلى إزالتها قد يؤدى إلى الإخلال بالتوازن المورفولوجى فى تكوين المدينة، والقائم على أساس التفاف مباني المدينة حول الحرم.

لقد تجلّت محاولات خلخلة المنطقة الوسطى فى تهيئة مجموعة من أهم الشوارع، تنتهى جميعاً إلى الحرم، ونقل معظم مراكز الخدمات الموجودة بها إلى هوامشها.

ب- تجنح التصميمات الحديثة للميادين والشوارع نحو الاتساع والانبساط متميزةً بالمساحات المفتوحة والميادين المستديرة، وما يتفرع منها من شوارع وطرق عريضة، تشق اتجاهاتها وسط تراكمات سكنية قديمة.

ج- اتجه التخطيط الجديد لمكة إلى إحاطتها بالطرق العريضة المرصوفة

ص: ٢١٥

، وهذه قد حددت شكلها مورفولوجياً، وأصبحت بمثابة محاور للنمو العمرانى حالياً وفى المستقبل، وهى تصب غالباً فى الطرق الخارجية التى تربطها بأحاء الدولة.

د- لقد صحت امتداد المدينة الأفقى ارتفاع واضح فى مسقطها الرأسى، وظهرت الأحياء الجديدة كإطارات تحيط بنواة وأجزاء مهذمة واطئة. وعدد طوابق المنازل لا يتجاوز أربع طوابق فى المنطقة الوسطى، ويتجه إلى التزايد ليصل إلى ما بين ٦-٨ طوابق على طول محاور السكن والطرق الحديثة، ثم يهبط إلى ما بين دور ودورين فى هوامش المدينة. وهناك مجموعة من العوامل تراعى فى هذا المجال، منها الضوابط الخاصة بوصول المياه إلى الأدوار العليا، وكذلك وظائف المبانى وتوزيع مواقف السيارات فى المنطقة المحيطة بالحرم. ولكن مما لا شك فيه أن ارتفاع المبانى سيكون ضرورياً خاصة بالنسبة لمواجهة تزايد عدد زوار المدينة الذى وصل متوسطه فى السنين الأخيرة إلى نحو مليون زائر.

هذا، ويستخدم فى البناء الأحجار التى يمكن الحصول عليها من المرتفعات المحيطة بمكة، وكذلك الرمال والزلط من الجهات المحيطة بها. وبدأ منذ سنوات قليلة استخدام المساكن سابقه التجهيز فى البناء، مما يوفر جهداً ووقتاً كبيراً، كما أنها اقتصادية فى استخدام الأيدى العاملة عن الطريقة التقليدية فى البناء.

١٠- لعل الشكل الحاضر لشبكة الطرق والشوارع فى مكة هو أبرز ما طرأ على تكوينها القديم من مظاهر التحديث والتخطيط، لقد أنشئت طرق تصل بين معظم مناطقها السكنية، ومدت الشوارع التى تفتت القلب المندمج، وتمنحه شرايين أفضل، وهيئت الميادين، ومهدت الأزقة وعبدت، وامتدت ضمن خطة مسبقه لتصل إلى أحياء السكن الحديثة، ولم تكن هذه التغيرات وغيرها مما هو مكمل لها إلا انعكاساً لتغير وظائف الطرق والشوارع، وتعبيراً عن دخول المدينة ككل

ص: ٢١٦

مرحلة جديدة من حياتها.

ويعدّ الشارع العريض من أهم رموز المدينة التجارية (١)، ويمثل الحقيقة الرئيسية فيها، وليس من الميسور دائماً وضع تصميم للمدينة طبقاً لطراز معين، بيد أنه مع تخطيط بضعة شوارع جديدة عريضة كان يتسنى - عامّة - إعادة تحديد طابع المدينة، لقد أتيح فى التخطيط الجديد استخدام الخطوط المستقيمة، ووحدات للمباني ذات مسقط رأسى مرتفع، منتظمة الشكل متماثلة المساحة عموماً، إلا حينما كان انحراف اتجاه الشوارع سبباً فى جعل أشكال الوحدات متعدّدة الأضلاع والزوايا، لقد أصبحت الشوارع العريضة تمثل الإطار الأفقى للمباني الرئيسية التى تحدّد معالم مكّة، وضخى بالكثير من خصائص المدينة القديمة من أجل أغراض حركة المرور والتجارة، وأصبح الشارع هو وحدة التخطيط وليست منطقة الجوار أو الحيّ، ووسعت وشقت عدّة شوارع. وقد تم الانتهاء من توسعة الحرم، وذلك بإزالة جميع المباني التى كانت تتصل بالمسجد أو قريبة منه.

المرافق العامة:

وتعدّ المرافق العامة من أهم مظاهر التغير فى التركيب المعاصر للمدينة، فهى تحظى باهتمام كبير، يتمثل فى اعتمادات مالية ضخمة بهدف متابعة معدلات نمو عمران المدينة من ناحية، وتحقيق مستوى عال من أداء هذه المرافق من ناحية ثانية. ورغم ذلك فهى عامة تواجه عدداً من المشكلات، ويشمل مصطلح المرافق العامة: «المياه والمجارى، وتصريف مياه السيول، والكهرباء».

وقد سبق دراسة موضوع المياه عند دراسة موضع مكّة، ولذلك سنركز هنا على دراسة المرفقين الآخرين:

Berry, B. J. L. ١٩٦٣, Commercial Structure and Commercial Blight, Chicago, p. ٣٧ - ١

ص: ٢١٧

أ- المجارى وتصريف مياه السيول:

قطع تنفيذ شبكة المجارى المدنية فى مكة شوطاً كبيراً، ويسير العمل نحو إنجاز الخطوط الفرعية والتوصيلات المنزلية. وليس من شك فى أهمية مشروع المجارى الحديث بالنسبة لرفع المستوى الصحى وحماية المباني والمنشآت العامة والمحافظة على سلامة أساساتها فضلاً عن المظهر الحضارى للمدينة.

وبالنسبة لتصريف مياه السيول فهى تشبه تماماً عملية تصريف المجارى إلّا أنها لا تحتاج إلى عملية تنقية، بل تجمع فى أنابيب تسير فيها المياه بالاعذار الطبيعى إلى خارج مكة، أو تحويل مجارى السيول إلى مناطق بعيدة عنها. ويدخل ذلك أيضاً ضمن مشروعات المحافظة على الصحة العامة، حيث إن عدم تصريف السيول يجعلها تتجمع فى الأجزاء الوطية مسببة وجود مستنقعات تصبح مباءات لتوالد البعوض، فضلاً عن إعاقتها للمرور والمواصلات، حيث يتسبب عنها تكاثر الأوحال، خصوصاً فى الطرق الترابية والمنافذ الضيقة فضلاً عما تسببه من أضرار لأساسات المباني.

ب- الكهرباء:

تتركز مسؤولية توزيع القوة الكهربائية فى مكة فى الشركة السعودية الوطنية للقوى الكهربائية، وهى شركة خاصة (الجفالى)، تأسست عام ١٣٧١ هـ.

وتأتى القوة الكهربائية من محطة واحدة على طريق التناعيم خارج حدود منطقة الحرم، ويتم تزويد منى من هذه المحطة أيضاً، والتي تبلغ طاقتها الإنتاجية ٣٩ مليون واط، وتعمل المحطة على الديزل. ويستفاد من الإحصاءات أن:

٧٢٪ من مساكن مكة ومرافقها المختلفة تحصل على الكهرباء من الشركة مباشرة بواسطة عدادات المشتركين.

١٪ من المساكن تحصل على الكهرباء من أجهزة خاصة لتوليد الكهرباء،

ص: ٢١٨

ومعظمها يقع في أطراف المدينة.

٣٧٪ من المساكن لا تحصل على الطاقة الكهربائية، وتتركز بصفة خاصة في ضواحي مكة والجبال المحيطة بها.

أسعار الأرض في مكة

لما كانت مكة في منطقة جبلية تخترقها عدة أودية ضيقة، فقد كان لهذا تأثيره الكبير على أسعار الأرض بها، فالطلب على الأرض يزداد باستمرار نظراً لنمو المدينة من جهة، وازدياد أعداد السكان من جهة أخرى عاماً بعد عام، سواء المقيمون بها أو الوافدون إليها في موسم الحج. وهذا يتطلب مزيداً من الأراضي - المحدودة أصلاً - سواء بالتوسع الأفقي أو الرأسي.

ومن دراسة ميدانية قام بها الباحث تبين أن هناك عدة عوامل تتحكم في تباين واختلاف أسعار الأراضي في مكة المكرمة هي:

- ١- البعد عن الحرم: يتناسب سعر الأرض تناسباً طردياً مع زيادة القرب من الحرم، فالمعلوم أن مكة قامت أصلاً لتكون مدينة دينية حول المسجد الحرام، لذلك فإن السكان وكذلك الحجاج الذين يقدمون إلى مكة يختارون أقرب منطقة من الحرم، مما أدى إلى رفع أسعار الأراضي في المناطق المحيطة به. لذلك نجد أنها تمثل رأس القائمة في سعر الأرض في مكة، حيث يتراوح المتر المربع ما بين ٨-١٢ ألف ريال. وهذه أسعار مرتفعة جداً ليس لها مثيل في أي منطقة أخرى. ولا عزاء إذا ما ارتفعت الأسعار إلى أكثر من هذا.
- ٢- الأسواق التجارية: وهو عامل مكمل أحياناً للعامل الأول، حيث تتركز معظم الأسواق التجارية في مكة حول الحرم، مما أدى إلى ارتفاع أسعار الأرض للفرص الكبيرة في بناء محلات تجارية عليها وتأجيرها، كما هو الحال في منطقة الغزة حيث يتراوح سعر المتر بين ٤-٦ آلاف ريال. إلى جانب وجود بعض الأسواق في أحياء أخرى مثل أحياء والشبيكة والسوق الصغير، مما يضيف عليها



ص: ٢١٩

أهمية وإقبالاً يرفع من أسعار الأراضي القائمة عليها أو المحيطة بها.

٣- الموقع والواجهات على الشارع الرئيسى: مما لا شك فيه أن الأراضي التى لها واجهه أو أكثر على شارع رئيسى تكون أسعارها أكبر من تلك التى ليس لها واجهه على الشارع الرئيسى. ويلاحظ ذلك من خريطة أسعار الأرض، حيث نجد أن الأراضي الواقعة على الشارع أعلى فى أسعارها بكثير من تلك الأراضي الداخلية.

٤- توفير الخدمات العامة: مثل الكهرباء والماء والمواصلات... ففى أطراف المدينة يتجلى أثر هذا العامل واضحاً، كما أن المواصلات بصفه خاصة لها تأثير بالغ، فالمناطق الجبلية يصل سعر المتر المربع فيها إلى أدنى حد له (من ١٠ - ١٠٠ ريال) على الرغم من قربها من الحرم، ولكن صعوبة الوصول إليها، وقله ورود الماء لها، وصعوبة إقامة المساكن فيها، أدى إلى انخفاض سعرها بهذا الشكل. وهنا يمكن ربط هذا العامل بعامل آخر جديد وهو طبيعة السطح، فالمناطق المستوية أعلى سعراً من المناطق العالية المتضرسة.

ص: ٢٢٠

وثمة جانب آخر هو أن تحسين الطرق أدى إلى ارتفاع في أسعار الأرض، فشق الطرق وتزفيتها وإقامة خزانات المياه يعملان على رفع السعر على جانبي الطريق، وإذا نظرنا إلى خريطة أسعار الأرض في مكة نجدها تتفق إلى حد كبير مع العوامل السابق ذكرها. وتراوح أسعار الأرض ما بين ١٠ إلى ١٢ ألف ريال للمتر المربع. ويمثل الرقم الأول (١٠ ريالات) المناطق التي تحتل أعالي الجبال البعيدة عن مركز المدينة، بينما يمثل الرقم الثاني المناطق المجاورة للحرم مباشرة، حيث تتوافر العوامل المختلفة من قرب للحرم، وقرب للأسواق التجارية، ووجود الشوارع الرئيسية التي تشبه الشرايين الكبيرة التي تسير عليها مواصلات المدينة وتوفر الخدمات العامة الأخرى. ويمكن التذليل على ذلك من أن سعر المتر في الشامية (أقرب الأحياء إلى الحرم) يصل إلى سبعة آلاف ريال، ولكنه ينخفض في المناطق الداخلية في الفلق والقرارة إلى ثلاثة آلاف ريال. كما أن من عوامل ارتفاع السعر في الشامية وكذلك المناطق الأخرى المحيطة بالحرم تركّز العمائر السكنية الكبيرة التي تستخدم في معظمها لسكنى الحجاج.

كما أنه في كل من الغزة والشبيكة يصل السعر من خمسة إلى ستة آلاف ريال للمتر المربع، ولكنه ينخفض بالبعد عن الحرم. أما القشاشية وسوق الليل فإن سعر المتر فيهما مرتفع جداً نظراً للقرب الشديد من الحرم، ولوجود الأسواق التجارية بها أو بالقرب منها. وفي شعب على يصل سعر المتر في الأجزاء المتاخمة للشارع الرئيسي إلى ٣ آلاف ريال، ولكن السعر ينخفض كلما تراجعنا نحو الداخل، حيث يصل إلى ألف ريال فقط.

أما في حي أجياد جنوب الحرم فترتفع أسعار الأرض (بين ٤-٦ آلاف ريال)، وهي منطقة واسعة تمتاز بأنها منطقة سكنية إلى جانب أنها منطقة فنادق

ص: ٢٢١

ومنطقة تجارية أيضاً.

هذا بالنسبة للمناطق المحيطة بالحرم، أما إذا استعرضنا بقية أحياء مكة فإننا نلاحظ تناقصاً مستمراً في سعر المتر، فيما عدا المناطق التي توافرت لها بعض العوامل وأكسبتها أهمية ما، فارتفعت أسعار الأرض بها.

ففي حي المسفلة يبلغ متوسط سعر المتر ١٥٠٠ ريال، ولكنه في بعض المناطق القريبة من الحرم أو التي تقع على شارع رئيسي يبلغ سعر المتر أكثر من ٣٥٠٠ ريال، بينما قد يقل السعر عن ألف ريال في المناطق الداخلية من الحي أو تلك التي تتميز بوعورتها وعدم توافر الخدمات العامة بها، وفيما يلي متوسط أسعار الأرض في بعض أحياء مكة:

شعب عامر ٢٠٠٠ ريال الملاوى ١٠٠٠ ريال

الفلق ٢٥٠٠ ريال الخانسة ٧٠٠ ريال

القرارة ٣٠٠٠ ريال العدل ٥٠٠ ريال

السليمانية والحلقة القديمة ٢٠٠٠ ريال

الروضة والششة ٤٠٠٠ ريال

الجميزة ١٥٠٠ ريال الجعفرية ١٥٠٠ ريال

ويعتبر الجزء الأوسط من المعابدة منطقة تجارية وسوقاً رئيسية هامة للأحياء المجاورة مثل الملاوى والخانسة والروضة والعدل، ولذلك فإن سعر المتر بها لا يقل عن ٢٥٠٠ ريال.

أما الروضة والششة فإن ارتفاع سعر المتر يعود إلى أنها من مناطق السكنى المفضلة والحديثة التعمير، والتي يُقبل عليها تجار المدينة وأثرياًؤها، بالإضافة إلى قربها من منطقة شعائر الحج، وتفضيل الحجاج الإيرانيين، الإقامة بها، وارتفاع قيمة الإيجارات.

أما الأحياء الواقعة إلى الغرب والشمال الغربي من الحرم، والتي تضم كلاً من الحجون والعتيبة والأبيارى وجرول والتيسير والزهران والنزهة وشارع منصور،

ص: ٢٢٢

فإننا نلاحظ بصورة واضحة انخفاض قيمة الأرض فيها عن تلك الأحياء الواقعة إلى الشرق أو الشمال الشرقي من مكة، بالرغم من تساوى المسافة عن الحرم، ووجود الأسواق والخدمات بنفس النسبة تقريباً.

ويمكن تعليل ذلك بوقوع الأحياء الأولى قريباً من المشاعر المقدسة مثل منى والمزدلفه، وذلك بعكس الأحياء الأخرى التي تقع في الجانب الآخر، وعلى كل فإنه في لقاء مع رئيس لجنة التقديرات التابعة لأمانة العاصمة أجاب بأن أعالي مكة خير من أسافلها، حسبما ورد في بعض الأحاديث (على حدّ قوله)، ولذلك فالناس يقتدون بما وصلهم من أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله.

وفي حي العزيزية، نلاحظ إقبالاً شديداً على البناء وشراء الأراضي، ويرجع ذلك إلى رصف الطرق، ووضع تخطيط جيد للمنطقة، وتوافر الخدمات بها، وخاصة بعد إنشاء خزان للمياه يكفي احتياجات الحي، هذا بالإضافة إلى قيام جامعة الملك عبدالعزيز في المنطقة وكذلك معهد المعلمين، ووجود بعض المستشفيات الخاصة. ويقدر سعر المتر حالياً في حي العزيزية بنحو ٣٠٠٠ ريال، ولم يكن يتجاوز ٥٠ ريالاً منذ ست سنوات فقط.

عدد الطوابق: يلاحظ بأن عدد الطوابق ينحدر تدريجياً من قلب المدينة إلى الأطراف، فعدد الطوابق يصل إلى عشرة أداراً أحياناً في وسط المدينة بالقرب من الحرم، حيث الاستخدام الكثيف للأرض وسعرها المرتفع، وينخفض إلى دور أو دورين في الأحياء البعيدة عنه حيث الكثافة السكانية المنخفضة وسعر الأرض القليل نسبياً.

استخدام الأرض في مكة المكرمة

ونعنى هنا استخدام الأرض في إقامة المساكن أو مراكز الخدمات العامة (تعليم - أمن - مواصلات - صناعة - زراعة - محلات تجارية - أماكن عبادة...).

ومن دراسة استخدام الأرض في مكة المكرمة يتبين لنا أنه قد طرأ عليها كثير

ص: ٢٢٣

من التغيرات، خاصة بعد امتداد كتلتها السكنية مع محاور مواصلاتها الحديثة، وتضخم عدد سكانها، وزيادة الاهتمام بالتعليم والمرافق العامة وخدمة زوار البيت الحرام.

وتنقسم مكة المكرمة إلى مناطق سكنية تحيط بنواتها القديمة (الحرم الشريف)، وممتدة مع شوارعها الجديدة المرصوفة نحو أحيائها الحديثة التعمير، وهو ما يؤكد وظيفة القلب في هذه المدينة، باعتباره يمثل النبض اليومي لجملة وظائفها الرئيسية: التجارية، والدينية، والسكنية، وتظل مقبرتها التاريخية المعلاة في موقعها إلى الشمال من الحرم... وتبدو بقية وظائفها الحديثة كمرکز للخدمات الإدارية والتعليمية موزعة على أبعاد متفاوتة من القلب متناثرة على طول محاور نموها الحديثة.

وتستوعب المنطقة الوسطى لمكة نحو ثلث سكان المدينة، كما أن مساكنهم والمرافق التابعة لها تحتل نحو ٧٠٪ من المساحة المبنية الحالية.

وبالنسبة للسكن فإن نحو ٤٠٪ من جملة وحداته تحتاج لتغييرات أساسية، وهناك فرصة لنقلها إلى المساحات الفضاء في الشرق والشمال والغرب من المنطقة الوسطى وعلى طول امتدادات محاور نمو المدينة.

والمعروف أن الأصل في وظيفة المركز العمراني غالباً هو السكن، ولكن بتطور وسائل الحياة تنقسم هذه الوظيفة الأصلية إلى وظائف أخرى، تتعلق بالتخصص الحرفي مثل التجارة والصناعة والحرف الأخرى، وكذلك بالخدمات الإدارية والتعليمية والثقافية والدينية وغيرها... ومن هنا تقوم مع المساكن محلات لممارسة هذه الوظائف الجديدة التي طرأت على المدينة أو القرية... ومدينة مكة نشأت في موقع ممتاز من الناحية التجارية، كما أنها أيضاً قامت في موقع مقدس وهام... وبعد استقرار الأمن بالبلاد بدأت مساكن المدينة تنساح في مناطق جديدة، مما أدى إلى اتساع رقعتها كثيراً، وانتشرت الخدمات والأسواق

ص: ٢٢٤

والمساجد وغيرها فى هذه الجهات. يضاف إلى ذلك أن أجهزة التخطيط بدأت تشق الشوارع فى المباني المتوسطة والقديمة باتساع واضح، وبدأت تضع مخططاً جديداً أيضاً يتلاءم مع تطورات المستقبل. ومعنى ذلك أن الأحياء القديمة المحيطة بالحرم بدأت تحدث فيها عمليات تغير واضحة من شق شوارع جديدة واسعة إلى إقامة محلات جديدة وغير ذلك.

ويمكن أن نصف استخدام الأرض فى مكة كما يلي:

أولاً: المساكن: وتؤلف القسم الأعظم من المدينة القديمة وجزءاً كبيراً من المدينة الحديثة، وهناك توسع فى الوقت الحالى فى عمليات البناء فى الشرق والغرب والشمال نتيجة للظروف الطبيعية والتجارية التى أشرنا إليها فيما سبق.

ولكن يلاحظ أن المباني الحديثة تسير وفق مخطط عمران وسعته البلدية، وتسير على هداه الأجهزة المختصة وكذلك الأهالي، والمساكن إما أن تكون طينية قديمة أو مسلحاً وهى ملك لأصحابها، وحوالى ٥٪ منها بالإيجار نتيجة لتزايد عدد العاملين فى الدوائر الحكومية والقادمين من خارج مكة.

ثانياً: أماكن التجارة: وتتركز فى المنطقة الوسطى القريبة من الحرم، أى فى المنطقة التى تصل بين المباني القديمة (النواة) وبين المباني المتوسطة، وتتركز فى شارع الغزة أساساً.

وتشمل التجارة هنا محلات الأجهزة الكهربائية والملبوسات والبقالة والسجاجيد وغيرها، كذلك يوجد أسواق للحيوانات والدواجن ومحلات بيع اللحوم فى وسط المدينة. ولا يقتصر وجود المحلات التجارية على هذه المنطقة، وإنما توجد مبعثرة فى أماكن أخرى كذلك، ولكنها تتركز فى هذه المنطقة الوسطى من المدينة.

ثالثاً: مناطق الصناعة: ويطلق عليها المنطقة الصناعية، ولكنها ليست صناعية بالمعنى المعروف، إذ إنها لا تعدو أن تكون مجموعة من الورش لتصليح

ص: ٢٢٥

السيارات وعمليات اللحام، كذلك توجد بعض محلات النجارة، وتقع هذه في الجهة الغربية من مكة. رابعاً: المباني الإدارية: وتنتشر في مختلف أنحاء المدينة، ولكنها تتركز في المباني المتوسطة. كما أن هناك بعض الإدارات (مثل إدارة تعليم البنات) التي توجد في الأحياء الجديدة، يضاف إلى ذلك أن الكثير من قطع الأراضي في المناطق الجديدة قد حجزت للأغراض الإدارية، ومن الملاحظ أن مكة المكرمة - باعتبارها عاصمته للأماره - يوجد بها فروع لكافة الدوائر الحكومية فيما عدا وزارة الخارجية.

خامساً: المباني التعليمية: يوجد في مكة مدارس عديدة، تشمل كافة مستويات التعليم العام الابتدائي والمتوسط والثانوي، ويلتحق بها البنون والبنات، وكذلك يوجد بها كليتا التربية والشريعة التابعتان لجامعة الملك عبدالعزيز، ولكل منها قسم للبنات.

سادساً: المباني الخاصة بالخدمة الصحية: يوجد بمكة مستشفين رئيسيان وثلاث مستوصفات ومنطقة تشرف على الشؤون الصحية بالأماره. وأهم المستشفيات مستشفى أجياد بالقرب من الحرم، هذا بالإضافة إلى مستشفى للطوارئ وعدد من المستشفيات الخاصة.

سابعاً: المباني الدينية: تنتشر المساجد في كافة أحياء المدينة، ولكن الحرم هو أهم المباني الدينية جميعاً، وتقام فيه صلاة العيد. كما يوجد بالمدينة مركز لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمساجد جميعاً مبنية بالطوب أو الحجر، ومسقوفة بالمسح أو الأخشاب وبها مراوح لتجديد الهواء،

ثامناً: المقابر: توجد بمكة مقبرة واحدة هي مقبرة المعلاة، وإن كانت مقسمة إلى جزئين بينهما شارع مرصوف وكلاهما حوله سور. تاسعاً: الترفيه والرياضة: وتقتصر على نادي الوحدة في غرب مكة ومنتزه

ص: ٢٢٦

كبير (متنزه البلدية)، وبعض الكازينوهات والمقاهى فى منطقة الحوض، ويشمل المخطط الجديد مساحات مخصصة للحدائق والمنتزهات.

عاشراً: الطرق: وأهمها الطريقان الرئيسيان إلى جدة- الطائف، ثم تأتى بعد ذلك الطرق الرئيسية داخل مكة، وأهمها: شارع الغزوة (الذى يبدأ من الحرم إلى مركز البريد)، وشارع المنصور، وشارع الجفاير، وتتصل هذه الطرق الرئيسية بالطرق الأخرى الفرعية، مكونة شبكة داخل المدينة. وتجرى الآن عمليات شق الشوارع وفق المخطط المقترح الجديد، كما أن طريق مكة- منطقة شعائر الحج أصبح من طرق الدرجة الأولى المرصوفة، مما سيكون له أثر كبير على التطور العمرانى لمدينة مكة، حيث إنه يساعد على تنشيط الحركة بين مكة والطائف على نطاق واسع، هذا بالإضافة إلى الطريق الدائرى حول مكة الذى يربط بين أحيائها فى سهولة ويسر.

حادى عشر: المزارع: وهى عبارة عن بقع متفرقة على أطراف مكة ملك للأفراد يتخذون منها متنزهات خاصة، يزرعونها بالنخيل والخضروات والفاكهة.

ثانى عشر: أراضى فضاء: توجد أراضى فضاء بجوار مكة من الناحيتين الشرقية والغربية بصفة خاصة، وكذلك داخل المدينة، وهى أراضى مقسمة ومخططة، وتم فيها حركة توسع المباني على نطاق واسع فى الوقت الراهن.

ثالث عشر: الفنادق: هناك عدة فنادق من الدرجة الأولى بمدينة مكة بالقرب من الحرم، بالإضافة إلى عدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية معظمها قريب من الحرم.

مخطط مكة الجديد

أعد مخطط جديد لمدينة مكة قامت بتصميمه الشركات الاستشارية مع مهندسى البلدية، وقد أقر هذا المخطط من جانب مكتب تخطيط المدن، ويشمل كافة الخطط التى طورت، وتشمل منطقة واسعة من الأراضى فى الغرب والشرق.



ص: ٢٢٧

ومن التغيرات الهامة فى هذا المخطط إزالة جزء كبير من المنطقة القديمة والوسطى، وشق طرق حديثة ومنتزهات بدلاً منها، وإقامة ميادين رئيسية لتسهيل حركة السكان والحجاج. وبدون شك فإن عملية التنفيذ سوف تستغرق وقتاً من الزمن، ولكن تنفيذ المخطط سوف تنعكس آثاره على التوسع العمرانى نتيجةً للنشاط الاقتصادى الذى سوف يزداد بشكل واضح.

وظائف المدينة

مهما اتسعت المدينة وازداد حجمها وتعقد تركيبها السكانى والعمرانى فإنها تظل - رغم ذلك - تمثل وحدةً مركبةً من مجموعة من الوظائف (١)، فالنواة القديمة للمدينة هى الأصل وهى مركزها العصبى المتمثل فى شوارعها التجارية وأسواقها الرئيسية، ومع التجارة وازدهارها المستمر طال يوم العمل بالمدينة، وخاصة بعد إدخال الكهرباء، وأعربت الوظيفة التجارية عن نفسها عن طريق مضاعفة أنوار الشوارع ونوافذ عرض السلع. ومع التجارة أو قبلها أو بعدها تمثل الوظيفة الإدارية للمدينة ملمحاً من أهم ملامحها المورفولوجية، فالإدارة وظيفه للمدينة، تعنى مبانى ومؤسسات ومكاتب وعاملين، وهى كذلك نشاط اقتصادى يتخذ شكل الخدمات له تداعياته، وبذلك فإن التجارة والإدارة وما يتبعهما من ظهور الخدمات والصناعة تمثل الوظائف الرئيسية المؤثرة فى شكل المدينة وتركيبها، فضلاً عن كونها تمثل نبض المركز اليومى فى المدينة وأساس سيولتها الإقليمية التى تجعل من المدينة ومنطقتها إقليم حركة، وتحقق السيولة الإقليمية الفعالة فى تجانس الإقليم و التقريب حضارياً بين المدينة وريفها وباديتها (٢).

ويسود فى الوقت الحاضر تحليل التركيب الوظيفى للمدينة إلى الوظائف

١- Ernest, W. Burges, ١٩٢٥, The Growth of the City in The City, ed. Robert, E. Park

٢- Robert, E. Dickinson ١٩٤٧, City Region and Regionalism, London, p. ٩٦

ص: ٢٢٨

الأولية، وهي تمثل أصل قيام المدينة ومبرر ظهورها، وهي بالنسبة لمكة تتمثل في الوظيفتين الدينية والتجارية، ثم الوظائف التالية التي نشأت بعد ذلك كتداعيات ضرورية مرتبطة بالوظائف الأولية بدرجات شتى، وتتمثل هنا في الإدارة والخدمات بأنواعها. وفيما يلي تحليل لأهم وظائف مكة المكرمة: «الدينية، التجارية، الخدمات».

أ- الوظيفة الدينية:

وهي لم تمنح المدينة مركزاً مدنياً عالمياً فحسب، بل حفظتها أيضاً مذكورة مشهورة، وتعد الكعبة المشرفة نواة هذه المدينة وقلبها، فمع نبض حركة الحج إليها والمترددین عليها استمرت مكة تؤدي وظيفتها هذه منذ رفعت قواعد البيت. لقد تغيرت عمارة الكعبة واتسعت، وتأثرت بمجالاتها الحديثة واتجاهات نموها، فالتفت حولها عمران مكة يكتنفها ويحميها، واتجهت إليها شوارعها وحراراتها، وتداخلت معها أحيائها. فالحرم شكل تكوين مكة، فهو أهم مكوناتها تأثيراً ووجوداً، ولم يقتصر دور الحرم تاريخياً على مدرسته الدينية والثقافية وما تمثله، بل هو بلا شك أنموذج انتشر في العالم الإسلامي فيما بعد.

ص: ٢٢٩

وتتضح أهمية الوظيفة الدينية للمدينة المقدسة من زيادة الاهتمام بها، وتخصيص إحدى الوزارات للاهتمام بوظيفتها- وزارة الحج والأوقاف- وكذلك في الاهتمام بشق الطرق إلى الحرم والمساجد الأخرى في مكة المكرمة التي أصبحت نواياح أحيائها، وأحياناً شارعاً من شوارعها، وهي تشغل من الأحياء قلبها- تكرر الصورة المدنية ككل- ومن الشوارع رؤوسها ومن الميادين وسطها، وهي معالم الأحياء وأسماء الشوارع، إليها تتجه الطرق، وحسب مواضعها توضع خطط المباني وتنظيم المداخل، فهي نواياح تخطيطية ليس من اليسير تجاوزها، وتظهر حولها الأسواق، وتتحدد أثمان الأراضي وهي عن بعد تمثل خط أفق المدينة.

وهناك نحو سبعة مساجد كبيرة في مكة، عدا عدد آخر أكبر بكثير من المساجد الصغيرة والزوايا.

كما يؤكد الأهمية الدينية للمدينة أيضاً الزيادة المستمرة في عدد الحجاج القادمين إليها، والذي بلغ في عام ١٣٥٥ هـ نحو ٤٩٥١٧ حاجاً، ارتفع إلى ٣١٦٢٢٦ حاجاً عام ١٣٦٠ هـ، ثم إلى ١٠٠٥٧٨ حاجاً عام ١٣٧٠ هـ، ٢٩٤١١٨ حاجاً عام ١٣٨٥ هـ ونحو ٦٤٥١٨٢ حاجاً عام ١٣٩٢ هـ. ويقدر بأن عددهم قد بلغ نحو مليون حاج في العام ١٩٧٧ م، وذلك فإن تخطيط مكة لابد أن يراعى فيه محاولة الوصول إلى تحقيق المدينة لوظيفتها بكفاءة عالية، وأن يستوعب الحرم أكبر عدد ممكن من المصلين. وزيادة الاهتمام بتوسعة مساحات وتهيئة أماكن لوقوف السيارات، فضلاً عن دورات المياه ومناهل لمياه الشرب.

ولا شك أن تهيئة الفنادق المناسبة والمنازل الكافية من أساسيات توفير الراحة لمئات الألوف من الزوار. وهكذا تتداعى عن الوظيفة الدينية مجموعة أخرى من المهام التي لا يجدر إغفالها عند التخطيط لمستقبل مكة.

ويمكن القول بأن أكثر من نصف سكان مكة يعيشون على الوظيفة الدينية

ص: ٢٣٠

للمدينة، سواء المشتغلون منهم بتلك الوظيفة مباشرةً مثل المطوفين أو خدمة المسجد والعاملين بجمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو بالوظائف الأخرى المترتبة عليها.

ب- الوظيفة التجارية:

من أقدم وظائف مكة المكرمة، وهي قد تراوحت خلال الزمن ما بين تجارة ذات مدى إقليمي محدود يشمل نجدًا والحجاز، إلى المشاركة في حركة التجارة العالمية إبان ازدهار طريق التجارة القديم بين الشام واليمن. وفي العصور الحديثة عادت إليها وظيفتها التجارية الإقليمية المحدودة، وهي الآن- ومنذ ربع قرن- قد تهيأت لتصبح سوقاً لشتى البضائع العالمية، ومن شوارعها ومحلاتها يمكن شراء مجموعات متنوعة من سلع أرقى الدول الصناعية المعاصرة.

وتستوعب هذه الوظيفة- ما بين تجارة جملةً وتجزئةً ووساطةً ووكالات- نسبةً هامةً من سكان مكة العاملين؛ فقد تبين للباحث أن مجموع المؤسسات التجارية والمتصلة بها (النقل والتخزين- العقارات وخدمات الأعمال- المؤسسات المالية والعقارية) قد بلغ ٣٤٨٢ مؤسسه، بنسبة ٧٤٪ من جملة عدد المؤسسات بمكة. وبالنسبة لعدد العاملين فإن نسبة العاملين في التجارة تصل إلى نحو ٣ ر ٧٢٪ من مجموع العاملين بها، وإذا ما أضيف إليها العاملون في الأنشطة المتصلة بها والسابق ذكرها، فإنها ترتفع إلى نحو ٧٧٪ كما يتضح موقف تجارة التجزئة الهام، فهي وحدها تستوعب نحو ٤٧٪ من جملة العاملين في الأنشطة الاقتصادية بمكة (١٠٩٨٦ عاملاً).

والمؤسسات المستقلة- مركزها الرئيسي مكة وليس لها فروع خارجها- هي السائدة. وهذا يتفق مع سيادة تجارة التجزئة على كافة أنواع التجارة الأخرى، كما يؤكد الدور التجاري المحدود للمدينة. ولكنها من ناحية أخرى أشد جاذبية لإنشاء فروع المؤسسات التجارية لأسباب تتصل بوظيفتها الدينية، وهذا هو

ص: ٢٣١

السبب في نقص عدد مؤسسات تجارة الجملة وقلّة عدد العاملين بها بالنسبة لتجارة التجزئة. فمدينة مكة إذاً تتبع تجارياً مراكز أخرى في الدولة مثل جدة والرياض والدمام، فهي سوق استهلاكية أكثر منها توزيعية أو إنتاجية.

ولا شك أن لهذه الحقيقة انعكاساتها بالنسبة لأشكال الأسواق في مكة وتركيبها، فهي تتخذ من حيث الشكل والتوزيع نمطين أساسيين: الأول: هو السوق بشكله التقليدي القديم في حارات النواة القديمة وأزقتها، والبواكي التقليدية والمناضد المرصوفة أمام الدكاكين الصغيرة مع العرض المزدهم للسلع.

ومن الأمثلة سوق الليل ومحال الأحياء القديمة حول المسجد الحرام.

أما النمط الثاني للأسواق فيتمثل في محلات الشوارع التجارية الحديثة، سواء في المناطق التي أعيد تخطيطها في وسط مكة أو في مناطق التعمير الحديثة بالمدينة.

وهي أكثر تخصّصاً وتنظيماً. ويمكن ملاحظه ذلك من طريقه عرض السلع بالفترينات أو بالداخل، وكذلك من الإضاءة الكهربائية والإعلانات في محاور الغزّة والقرارة وأجياذ وغيرها من الشوارع الحديثة الواسعة. وكان من شأن ذلك أيضاً الاتجاه نحو بسط نطاق السوق على امتداد خطوط الحركة بدلاً من توفير مواقع محلية للأسواق، أو تتخذ إحدى العمائر كسوقٍ ضخم مثل عمارة عبدالله الفيصل في الغزّة.

وإلى جانب هذين النمطين، يطرح التخطيط الحديث للمدينة نمطاً ثالثاً يتمثل في إقامة سوق مركزية مجمعة، يقترح لها مكان المباني القديمة التي تزال في سوق الليل والقرارة. وكذلك يتضمن التخطيط إنشاء عدد من الأسواق الصغيرة في أحياء المدينة المختلفة.

ولقد ارتبط بالوظيفتين الدينية والتجارية للمدينة مجموعة من الخدمات والوظائف أهمها ما يلي:

١- الطواف: وهي من أهم مهن السكان بمكة المكرمة باعتبارها مدينة حج،

ص: ٢٣٢

ويعمل بهذه المهنة ويستفيد منها أكثر من نصف السكان. وقد نشأت مهنة الطواف في عهد المماليك الشراكسة في عام ٧٨٥ هـ، والذين كانوا يجهلون اللغة العربية، ومن ثم كانوا بحاجة إلى من يلقيهم الأدعية على مشاعر الحج. وقد استشهد السباعي على ذلك عندما أورد قصة حج السلطان المملوكي قايتباي في ٨٨٤ هـ، حيث تقدم القاضي إبراهيم بن ظهيرة لتطويفه. ولم يذكر المؤرخون مطوفاً في مكة قبل القاضي.

ويشترط على من يمتن الطواف أن يكون آباؤه وأجداده قد مارسوها قبله، وأن تتوافر فيه الأمانة والمعرفة التامة بأمور الدين. والمطوف مسؤول عن راحة الحجاج التابعين له، ويوفر لهم المسكن المناسب، ويقوم على تطويفهم وتعريفهم بمناسك الحج أو العمرة، كما يقوم على إجراءات تصعيد الحجاج إلى المشاعر المقدسة في منى وعرفات والمزدلفة، وإنهاء إجراءات سفرهم إلى بلادهم. ويكون المطوف مسؤولاً أمام الجهات الرسمية في حالة تخلف الحجاج أو وقوع أية أضرار تلحق به. ومقابل ذلك يعطى له مبلغاً من المال تقرره الهيئة المسؤولة عن شؤون المطوفين.

وحتى وقت قريب كانت كل مجموعة من المطوفين مسؤولة تماماً عن حجاج بلدان إسلامية معينة، ولكن هذا النظام ألغى وأصبح الحاج حراً في اختيار مطوفه، عدا حجاج الشيعة الذين لا يحق لهم النزول إلّا عند مطوفهم الذين لا يزيد عددهم عن عشرة. وعدد المطوفين حوالي ٩٠٠ مطوف ومطوفة، ويتركز معظمهم في الأحياء القريبة من الحرم، مثل أجياد والقشاشية والمصافي والفلق والشامية. ويواجه المطوفون بعدة مشاكل، أهمها عدم توافر السكن المناسب للحجاج بأعدادهم المتزايدة بالقرب من الحرم، ومما اضطرهم في السنوات الأخيرة إلى استئجار مساكن في ضواحي المدينة وأطرافها. كذلك يعانون من مشكلة توفير وسائل

ص: ٢٣٣

المواصلات وارتفاع أسعارها، ومشكلة توفير المياه للحجاج في منى وعرفات.

ومن الطريف أن الشخص الذي يقوم بالطوافه يختلف الاسم الذي يطلق عليه من جنس إلى آخر، فالعرب يطلقون عليه اسم «مطوف»، والهنود يطلقون عليه اسم «معلم»، أما الأتراك فيدعونه «بالدليل»، بينما يطلق عليه الإندونيسيون لقب «شيخ».

٢- البنوك: كان الصرافون يقومون باستبدال العملات للحجاج، بالإضافة إلى بعض أعمال البنوك في نطاق محدود. ولكنه في عام ١٩٤٥ م أنشئ فرع للبنك الأهلي التجاري بمكة يؤدي جميع الأعمال المصرفية والاقتصادية للتجار والمترددين على المدينة. وفي سنة ١٩٥٢ م أنشئ فرع مؤسسة النقد السعودية ليقوم بأعمال البنك المركزي (وهي مؤسسة حكومية للأعمال المصرفية)، ويقوم بأعمال البنوك من تمويل للمشروعات، أو قبول للودائع، وصرف الشيكات، وفتح الحسابات الجارية...، وفي سنة ١٩٥٤ م أنشئ فرع بنك الرياض بمكة، ليقوم بالأعمال المصرفية المعتادة. وتقوم جميع البنوك بالمدينة في الحى التجارى بالقرب من الحرم الشريف.

٣- الفنادق: ولا تخفى أهميتها بالنسبة لمدينة مكة المكرمة. وكان أول فندق حديث بها هو فندق بنك مصر (الكعكى حالياً) فى حى أجياد بالقرب من الحرم، وكان يعمل فى موسم الحج فقط، ولكنه الآن يعمل طوال العام. وفى الفترة الأخيرة أنشئت فنادق أخرى من الدرجة الأولى، مثل فندق الحرم أو فندق مكة، وغيرهما، ومنذ عام تقريباً بدأ تشغيل فندق مكة أنترناشيونال المجهز بكل أسباب الراحة والرفاهية، وتعقد فيه المؤتمرات أيضاً. هذا عدا عدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية موزعة على شوارع مكة الرئيسية: شارع الغزة وشارع المسفلة.

٤- شركات نقل الحجاج: تأسست فى عام ١٩٣٤ م، ويبلغ عددها الآن ثلاث هى: الشركة العربية، وشركة المغربى، وشركة التوفيق. وتعمل فى نقل

ص: ٢٣٤

حجاج البيت الحرام إلى منطقة شعائر الحج، أو إلى المدينة المنورة بأجور محددة من قبل الجهات الرسمية. وسيارات الشركات الثلاث في حالة جيدة.

ج- الوظيفة الثقافية:

تبذل الدولة ممثلة في وزارة المعارف جهوداً واسعة لنشر التعليم بأنواعه، فهناك ٦٤ مدرسة نهارية، و ٢١ مدرسة ليلية تضم ٨٣٠ فصلاً. ويهدف التعليم هنا إلى فهم الإسلام ونشر تعاليمه وتطوير المجتمع في مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعلمية وغيرها. والمدارس الابتدائية منتشرة في جميع أحياء مكة، أما المدارس المتوسطة فهي تتركز في أحياء جبول والقرارة والششة والمعابدة والمسفلة والشبيكة وشعب علي والنزهة. وفي مكة أيضاً ثلاث مدارس ثانوية، هي: الفلاح الثانوية (مدرسة أهلية)، ومكة الثانوية (في حي الزاهر)، والعززية الثانوية (في حي العززية).

كما تهتم وزارة المعارف السعودية بمكافحة الأمية وتعليم الكبار، وتدعم هذا النوع من التعليم فنياً ومالياً وإدارياً، لذلك أنشأت العديد من المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية الليلية لكي يستطيع الكبار مواصلة تعليمهم فيها. وتعنى الدولة أيضاً بالمعوقين ذهنياً أو جسمانياً، وتعمل على رعايتهم من خلال معهد النور بمكة.

ونظراً للعادات والتقاليد التي تتميز بها السعودية، فقد أنشأت إدارة خاصة بتعليم البنات تتبع وزارة المعارف لتشرف على تعليم البنات. وفي مكة ٥٦ مدرسة ابتدائية، وسبع مدارس متوسطة، ومدرستان ثانويتان لتعليم البنات، تضم ٧٣٣ فصلاً (٢٥٣٤٧ تلميذة). وفي مكة كليتان من كليات جامعة الملك عبدالعزيز، هما كليتا الشريعة والتربية، ولكل منهما قسم للبنات. وتضم كل كلية نحو ٦٠٠ طالب وطالبة،



ص: ٢٣٥

وتقدم الجامعة مساعدات مالية للطلاب تتراوح ما بين ٣٠٠-٥٢٥ ريال لكل طالب شهرياً، تشجيعاً لهم على مواصلة الدراسة. ويعمل بالجامعة عدد كبير من الأساتذة في مختلف التخصصات.

بالقرب من الجامعة معهد للمعلمين في منطقة الحوض، يلتحق به الحاصلون على شهادة الدراسة الثانوية، ومدته الدراسة بالمعهد عامان، يتخرج بعدها الطالب معلماً بالمدارس الابتدائية.

وفي مكة عدة مكتبات، أهمها مكتبة الحرم، وهي المكتبة الرئيسية بالمدينة (دار الكتب بالقاهرة)، وقد أنشأت في سنة ١٢٥٧ هـ في عهد السلطان العثماني عبدالحميد. وتتبع المكتبة الرئاسة العامة للإشراف الديني، وتضم أكثر من ٢٥ ألف كتاب بمختلف اللغات، من بينها ٢٠٠٠ مخطوط نادر، وكذلك مجلدات للصحف السعودية وغيرها. ويتردد على المكتبة للاستعارة أو الاطلاع أعداد تتزايد كل يوم، معظمهم (حوالي ٨٠٪ منهم) من طلبة كليتي التربية والشريعة.

د- الوظيفة الإدارية:

تنقسم المملكة العربية السعودية - إدارياً - إلى خمس مناطق هي:

١- المنطقة الشمالية.

٢- المنطقة الجنوبية.

٣- المنطقة الشرقية.

٤- المنطقة الغربية.

٥- المنطقة الوسطى.

وكل من هذه المناطق الخمس تنقسم بدورها إلى أمارات رئيسية، فأمارات تابعة. وأماره مكة المكرمة تتبع المنطقة الغربية التي تضمها وأماره المدينة المنورة.

ويتبع أماره مكة مجموعة من الأمارات التابعة. وقد بلغ عدد سكان مدينة مكة في نفس الإحصاء ٣٣٦٨٠١ نسمة، فيكون نحو ٢٠٪ من مجموع سكان الأماره.

ص: ٢٣٦

وتضم مكة عدداً من الخدمات الإدارية على رأسها الأمانة التي تقع في شارع الروضة، وتمثل السلطة المشرفة على المصالح الحكومية بالمدينة وملحقاتها، وبها رئاسة البلدية التي تقع في حي الزاهر، وهي من أقدم بلديات الدولة، وتقوم بالإشراف على الخدمات العامة كالكهرباء والمياه والمجاري وتنفيذ المشروعات ومراقبة الطرق والترخيص، والإشراف على الأسواق والشوارع وتتبعها المطافىء، ويمثل المجلس الإدارى سلطة هامة داخل مكة.

ويتألف من أعضاء يمثلون جميع إدارات المدينة فيها. ومن إداراتها أيضاً دائرة الجوازات والجنسية، ومركز إحصاء النفوس، والأوقاف والمحكمة الشرعية... وتشمل المحكمة المستعجلة وكتابة العدل وأمور لبيت المال وإدارة شؤون الموتى. وأقامت الأمانة مركزاً للخدمة الاجتماعية بمكة لدراسة المشكلات الاجتماعية التي تواجه سكان المدينة. وقد ساهم المركز في إقامة عدد من المؤسسات الاجتماعية ودور للعجزة والأندية الرياضية ومؤسسات للتدريب على صناعات ومهن مختلفة، كما يشرف المركز على دار للتربية الاجتماعية التي تضم مدرسة للأيتام، ويصرف المركز مساعدات مالية للمستحقين.

ويشرف على الأمن في مكة ستة مخافر للشرطة تتوزع في مناطقها المختلفة. والمرجح أن يتزايد عدد المراكز الإدارية الحكومية بالمدينة تبعاً لإمكانيات نموها العالية ولاحتمالات تنمية منطقتها التابعة في المستقبل.

ص: ٢٣٧

ولا شك أن وضع مكة كمركز إداري يتطلب تركيزاً شديداً في الخدمات عالية المستوى، فهو يفرض توزيعاً عادلاً للخدمات حتى يتحقق الأداء بفاعلية خلال هذه المنطقة الواسعة المبعثرة السكان والسكن. وهذا يتطلب تيسير سبل الوصول من وإلى أنحاء الإمارة إلى عاصمتها، وهو هدف اتجهت برامج إنشاء الطرق إلى تحقيقه من خلال خطة لتنمية مناطق الريف والبادية في السعودية. وذلك عن طريق ربط أجزاء الدولة الواسعة بشبكة جيدة من الطرق.

ه الوظيفة الصناعية:

ولا تمثل سوى جزء ضئيل من التركيب الوظيفي للمدينة، ومعظم الصناعات هنا صناعات استهلاكية ليس لها أية دلالة إقليمية كبيرة. ولما كانت صناعات المدن تتحدد تبعاً لعدة عوامل، منها تركيب سكان المدينة ووظائف المدينة ثم إمكانيات المدينة ومنطقتها، وهي تهدف إلى سد احتياجات سكان المدينة والإقليم التابع الذي تستمد منه المادة الخام في أغلب الأحيان. فمن الطبيعي أن تمثل صناعات السوق الاستهلاكية (الملابس - المشروبات - الطباعة - المواد الغذائية - الأثاث - البلاستيك...) المادة الأولى في قائمة الصناعات بمكة مع التأكيد على ضآلة نصيبها من جملة النشاط الاقتصادي العام وذلك بالمقارنة مع التجارة، خاصة من ناحية المؤسسات أو عدد المشتغلين بها.

والصناعات الاستهلاكية المشار إليها يمكن اعتبارها أيضاً ضمن صناعة الخدمات، حيث يمثل التسويق جزءاً هاماً من اقتصادياتها، كما أنها تتم في السوق أو بالقرب منه، وتمثل حاجة مشتركة لجملة السكان. ومن المتوقع أن يتزايد عدد المؤسسات الصناعية الاستهلاكية بالمدينة تبعاً لتزايد دخول الأفراد وارتفاع مستوى معيشتهم.

وتمثل مؤسسات المواد الغذائية والمشروبات والتبغ أكبر عدد من المؤسسات

ص: ٢٣٨

الصناعية في مكة (١٨٢ مؤسسـة - ٥٨٠ عاملاً)، يليها المؤسسات العاملة في المنسوجات والملابس الجاهزة والجلود (١٤٢ مؤسسـة - ٢٧٢ عاملاً)، ثم مؤسسات الأثاث (٤٣ مؤسسـة - ١٠٢ عاملاً)، والطباعة والنشر (١٦ مؤسسـة - ٣٨ عاملاً)، ثم صناعات البلاستيك (مصنع واحد - ٢٣ عاملاً).

ويلاحظ أن صناعة الطباعة والنشر بمكة جاءت لارتباطها بوظيفته المدينة كعاصمة إدارية وكمركز تجارى وبؤرة للخدمات التعليمية والثقافية، وما يتطلبه ذلك من طبع للإعلانات والفواتير والأغلفة والمنشورات والكراسات وغير ذلك.

كما أن من الصناعات الاستهلاكية ما ظهر كضرورة لأحوال المناخ بالمنطقة أو كضرورة للعمل على راحة الحجاج مثل صناعة الثلج التى أنشأت وأنشئ لها مصنع كبير على الطريق إلى منى. وهكذا فإننا نجد أن بعض الصناعات بمكة قد ظهرت كنتداعيات لوظائف المدينة الأخرى المتعددة، وهذا بدون شك مفيد من الناحية الاقتصادية. وهذه الصناعات ترتبط فى نموها بنمو وظائف المدينة كماً وكيفاً.

أما مصنع البلاستيك بمكة المكرمة فهو مصنع صغير أنشئ فى عام ١٩٧٢ م فى منطقة التنعيم، وينتج الأكياس البلاستيك والأكواب وجراكل المياه...

وإنتاجه لا يكفى احتياجات المدينة المتزايدة، وهناك مشروع لإنشاء مصنع آخر.

والجدير بالذكر هنا أن معظم ما يطلق عليه اسم «مصنع» فى مكة ليس إلّا دكاكين صغيرة موزعة فى أنحاءها، ولا يزيد عدد العمال فى أى منها - غالباً - عن خمسة أفراد. وهذا يجعلنا نؤكد مرة أخرى بأن الصناعة فى مكة لا تمثل إلّا ظللاً باهتاً فى اقتصادياتها، ولا تستخدم من الأيدي العاملة إلا عدداً ضئيلاً.

سكان مكة المكرمة:

كان سكان مكة فى بدء ظهورها يعملون فى خدمة القوافل وزوار البيت، وكان عددهم ضئيلاً تبعاً لإمكانيات الموضع المحدودة. وعندما جاهر الرسول

ص: ٢٣٩

بدعوته وهاجر وأصحابه إلى المدينة المنورة، انخفض عدد سكان مكة بشدة، كذلك انخفض عددهم مرة أخرى بسبب خروج معظمهم للجهاد ونشر الدعوة.

وقد مرت مكة بعد ذلك بعدة ظروف، جعلت سكانها يتأرجحون بين الزيادة والنقصان، إلّا أن عددهم بلغ حوالي مائة ألف نسمة في عام ١٩٥٠ م، يتوزعون على أحيائها القديمة المحيطة بالحرم مثل أحياء القرارة والشيكه والمسفله وغيرها. ثم ارتفع عددهم بمعدلات سريعة بعد ذلك، نتيجة لاهتمام الدولة بالمدينة المقدسة باعتبارها مدينة حج وعاصمة لأهم أماراتها، والتوسع السكني بالمدينة، مما ساعد على ظهور أحياء جديدة مثل العزيزية والنزهة، بالإضافة إلى توافر الخدمات والمرافق الحيوية بالمدينة. وقد أجرى أول تعداد للسكان في السعودية في عام ١٩٧٤ م (١٣٩٤ هـ)، وكان الغرض منه وضع حد للتقديرات المختلفة عن عدد السكان، والاستفادة منه في خطط التنمية في شتى المجالات.

وقد أوضحت البيانات الأولية التي نشرت عن هذا التعداد أن سكان السعودية بلغ ٧٠١٢٦٤٢ نسمة (١)، إلّا أن نتائج التعداد التفصيلية لم يعلق منها سوى بيانات توزيع السكان على المدن الرئيسية والأمارات والمناطق، أما النتائج التفصيلية الأخرى عن التركيب العمري والنوعي والاقتصادي والتعليمي وغيرها فلم تعلن حتى الآن على الرغم من مرور أربع سنوات على إجرائه، الأمر الذي يخشى معه أن يحلّ به ما حدث لحصر السكان عام ١٩٦٢ م.

ومن تعداد ١٩٧٤ م يتبين أن عدد سكان مكة قد بلغوا ٣٦٦٨٠١ نسمة، وبذلك فهي ثالثة مدن السعودية من حيث عدد السكان بعد كل من الرياض (٦٦٦٨٤٠ نسمة) وجدة (٥١٦١٠٤ نسمة)، ولكنها تسبق الطائف من حيث

١- المملكة العربية السعودية، مصلحة الإحصاء العامة ١٣٩٦ هـ، التعداد العام للسكان لعام ١٣٩٤ هـ، البيانات الأولية: ٣، مطابع المنطقة الوسطى، الرياض.

ص: ٢٤٠

عدد السكان (٢٠٤٨٠٧ نسمة) والمدينة (١٩٨١٨٦ نسمة).

وكانت مكة المكرمة وحتى وقت قريب أكبر مدن السعودية من حيث عدد السكان، إلّا أنّ اتخاذ مدينة الرياض عاصمةً للمملكة، وازدهار ميناء جدة تبعاً لازدياد النشاط العمراني والاقتصادي في المملكة، بالإضافة إلى أنها مقرّ البعثات الدبلوماسية، دفع بالمدينتين (الرياض وجدة) إلى المركز الأول والثاني بين مدن السعودية من حيث عدد السكان.

ومع هذا، فقد شهدت منطقة مكة زيادة سكانية ضخمة لم تشهدها منطقة أخرى في السعودية، مما جعلها إقليم النقل السكاني بالمملكة. ويعود ذلك إلى الموقع الجغرافي المميز، والمركز الديني المرموق الذي يتفرد به، بالإضافة إلى برامج التنمية ومشاريع التعمير بالمنطقة.

وحتى منتصف الثلاثينيات لم تكن هناك مدن بالمفهوم الحقيقي لمعنى حضر سوى بعض المدن الحجازية مثل: مكة، والمدينة، والطائف، وما عدا ذلك فيعد في حكم البلدان أو القرى. ولكن كان لاكتشاف بترول المنطقة الشرقية أثر في ارتفاع معدلات النمو السكاني في السعودية عامة، والمنطقة الشرقية بوجه خاص، مما أدى إلى ظهور مدن الزيت-الدمام، والخبر، والظهران، وأبقيق، والخفجي- وتحول أعداد كبيرة من البدو الرحّل إلى سكان مستقرين.

ص: ٢٤١

وفى أوائل الخمسينيات لم تكن هناك سوى مدينة واحدة فى المملكة التى تجاوز عدد سكانها مائة ألف نسمة هى مكة المكرمة، أما الرياض وجدة فلم يكن عدد السكان فى أيهما يتجاوز الثمانين ألفاً من السكان.

وقد قدر عدد سكان المدن السعوديه فى عام ١٩٦٢ م بحوالى ٩٦٩١٣٤ نسمة، وفى عام ١٩٧٤ م بلغ عدد ٢٦٦٤٢٢٠ نسمة، أى عدد سكان المدن بالمملكة ازداد خلال ١٢ سنه ١٦٩٥٠٨٦ نسمة، وكانت نسبة التغير خلال الفترة (١٧٥٪) ويزيادة سنويه قدرها ٥ ر ١٤٪، وقد سجلت كل من الرياض والطائف والدمام وجدة أعلى نسبة (٨ ر ٢٠ - ٥ ر ٢٤٪)، ثم المدينة (٦ ر ١٤٪)، ومكة (٩ ر ١٠٪)، ونجران (٦ ر ٩٪)، وبريدة (٣ ر ٨٪)، وأبها (٦٪) أما كل من الهفوف وجيزان وحائل وعنيزة فقد سجلت كل منها أقل من ٤٪.

وعلى هذا، فإنه حسب إحصاء ١٩٧٤ م لا تضم السعوديه سوى مدينتين نصف مليونيه، هما الرياض وجدة، كما أن المدن التى يزيد عدد سكان كل منها على ٢٠٠ ألف نسمة تتركز فى غرب المملكة، وتطل على البحر الأحمر أو بالقرب منه فيما عدا الرياض.

وحسب إحصاء ١٩٧٤ م أيضاً فإن السعوديه تضم أكبر عدد من البدو فى العالم، وأعلى نسبة منهم أيضاً بالقياس إلى جملة السكان. فعددهم يصل إلى ١٨٨٣٩٨٧، بنسبه ٨ ر ٢٦٪ من جملة السكان. ولكن توجد عدة مشروعات لتوطين البدو فى السعوديه، يمكن أن تؤدي إلى تقليل أعدادهم ونسبتهم تدريجياً، كما يلاحظ أن حياتهم بدأت تتحول بالفعل. فوسائلهم فى الحصول على المياه أدركها تغير كبير، وبعضهم يستخدم سيارات نقل المياه فى جلب مياه الشرب اللازمه لقطعانه من الآبار، ويستخدم السيارات فى الحصول على حاجته من الأخشاب بدلاً من استخدام الإبل فى ذلك أو نقل قطعانه إلى موارد المياه (١).

١- أحمد على إسماعيل، ١٩٧٦، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافيه: ١٤٨، القاهرة.

ص: ٢٤٢

ورغم أن التوزيع النوعي للسكان غير معروف إلا أن النسبة النوعية بين الذكور والإناث تتراوح بين ١١٠ - ١٣٠ في كل من الرياض وجدة ومكة والمدينة والطائف، حيث تزيد نسبة الذكور على نسبة الإناث فيها جميعاً. وهذا يرجع إلى تدفق المهاجرين إلى هذه المدن سواء من داخل السعودية أو خارجها. وكانت نسبة توزيع السكان حسب فئات العمر في مكة كما يلي عام ١٩٧٤ م مقارنةً بالنسبة العامة في المملكة.

أقل من ١٠ سنة من ١٠ - ٢٩ - ٣٠ - ٤٠ أكثر من ٥٠ سنة

مكة ٥ ر ٣٥ ٣٨ ٥ ر ١٩ ٧

المملكة ٨ ر ٣٧ ٥ ر ٣٠ ٤٣ ١٠ ٢١

ويرجع ارتفاع نسبة الفئتين: الأولى والثانية عن معدل السعودية إلى أن منطقة مكة المكرمة بما تشهد من مشاريع عمرانية ضخمة، وتوسع في إنشاء المعاهد والكليات، تعد من مراكز جذب الشباب للعمل أو التعلم.

وقد بلغ معدل نمو السكان السنوي في المملكة في منتصف الستينيات (١٩٦٥ م) نحو ٧ ر ٢٠٪، وعلى هذا قدر عدد السكان سنة ١٩٦٥ م بحوالي ٥٣٦٢٢٨٦ نسمة. ولكن معدل النمو ارتفع في أوائل السبعينيات إلى ٩ ر ٢٪، وارتفع تبعاً لذلك عدد السكان عام ١٩٧٠ م إلى ٦١٩٩١٧٦ نسمة، وأصبح معدل النمو السنوي في منتصف السبعينيات ٣٪، ولذلك ينتظر أن يرتفع عددهم إلى نحو ٨ مليون نسمة في عام ١٩٨٠ م.

والسبب في هذه الزيادة المطردة للسكان يعود إلى انتهاء عصر المجاعات والأوبئة، وظهور البترول عام ١٩٣٨، ثم دخول البلاد في مرحلة من التنمية الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية كما أن البلاد لم تشهد خلال هذه الفترة هجرة واسعة للخارج، وذلك لتوافر كثير من العوامل المشجعة على الاستقرار والبقاء،



ص: ٢٤٣

كما أنه بالنسبة للمنطقة الغربية بالذات، فكان للرخاء الاقتصادي والنشاط العمراني الكبير بها، وقيام كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة فيها، ما جعلها عرضة لزيادة غير طبيعية كبيرة.

وتختلف نسب توزيع السكان بين مستقرين ورَّحَل إلى حد كبير بين مكة وجملته الأماره، فبينما تصل نسبة السكان المستقرين في مكة إلى نحو ٧ ر ٩٩٪ (٣٦٦٠١٢ نسمة)، فإن نسبة المستقرين في جملة الأماره تبلغ ٢ ر ٨٦٪ (١٥١٣٦٣٤ نسمة)، أما الرَّحَل فإن عددهم في قلة ٧٨٩ نسمة (٣٪)، وفي جملة الأماره ٢٤٠٤٧٤ نسمة (٨ ر ١٣٪) متوزعون على عدد من المدن الصغيرة والقرى ومحلات الرحل. وحسب تعداد ١٩٧٤ م فإن عدد الأسر في مكة يبلغ ٦٧٩٤٧ أسرة، ومتوسط عدد أفراد الأسرة الواحدة ٤ ر ٥ فرداً. ونسبة غير السعوديين بمكة ٦ ر ٢٦٪ من جملة عدد السكان بها. وتشهد المدينة زيادة سكانية هائلة في موسم الحج يقدر بثلاثة أضعاف عدد سكانها الأصليين.

ومن خلال الدراسة الميدانية (٧٤/ ١٩٧٥ م) أمكن للباحث تقدير عدد السكان والكثافة

الحى المساحة (بالهكتار) عدد السكان (بالألف) الكثافة (نسمة/ هكتار)

المعابده... ١٨٦ ر ٦ ١٧ ر ٦ ٩٤

الفيصلية... ٩٦٢ ر ٤ ٢٤ ر ٤ ٢٥

الجميزة... ٤٥ ر ٨ ١٥ ر ١ ٣٥١

شعب عامر... ٤٦- ر ٢٧ ر ٥ ٤٥٦

السليمانية... ٤٥ ر ٨ ١٤ ر ٩ ٤٢٢

سوق الليل... ٢٥ ر ٨ ٧- ر ٣١٢

القشاشية... ٣٨ ر ٥ ٣ ر ٤١٢

النقا... ٣١ ر ٢ ٧٥ ر ١٦٧

جروال... ٩٦- ر ٣٢٠ ر ٢٠٨

التنضباوى... ٢٣٠- ر ٤٦- ر ٢٠٠

الهنداوية... ١٢٧ ر ٨ ٢٥ ر ١ ٢٠٣

ص: ٢٤٤

القرارة... ٥٦ ر ٧٥ ر ٩١٦

الشامية... ٢٢٦ ر ٤٨ ر ٣١٥

أجباد... ٥١٠٥ ر ٣٢٢ ر ٢١٤

المسقلة... ٢١١- ر ٤٣ ر ٨ ٢٠٣

العتيبة... ٢١٢٤ ر ٣١ ر ٦ ٢٥١

الشيكة... ٢١٦ ر ١٠- ر ٦٠٠

حارة الباب... ٧٢١ ر ٦- ر ٣١٩

الزهراء... ١٠٦- ر ٧٤ ر ٣٧

النزهة... ٨١١٠ ر ٥٢ ر ٢٥

الزاهر... ١٣٥- ر ٣١ ر ٥ ٢٢٩

ومن الجدول السابق يتضح أن أكبر عدد للسكان يتركز في أحياء التنضباوى (٤٦ ألف نسمة)، والمسقلة (٤٣ ألف نسمة)، والعتيبة (٢ ر ٣١ ألف نسمة)، والزاهر (٣١ ألف نسمة)، والهنداوية (٨ ر ٢٥ نسمة)، أما أقل عدد للسكان ففي النزهة (٢٨٠٠ نسمة)، والقشاشية (٣٣٠٠ نسمة)، والزهراء (٤٠٠٠ نسمة)، والنقا (٥٢٠٠ نسمة)، والقرارة (٥٥٠٠ نسمة).

ومن الجدول أيضاً يلاحظ بأن أعلى كثافة سكانية تقع في أحياء القرارة (٧ ر ٩١٦ نسمة/ هكتار)، والشيكة (٦٠٠ نسمة/ هكتار)، وشعب عامر (٥ ر ٤٥٦ نسمة/ هكتار)، والسليمانية (٩ ر ٤٢٢ نسمة/ هكتار)، والقشاشية (٥ ر ٤١٢ نسمة/ هكتار)، أما أقل كثافة للسكان ففي أحياء الفيصلية (٤ ر ٢٥ نسمة/ هكتار)، والزهراء (٧ ر ٣٧)، والمعابدة (٦ ر ٩٤).

وعلى هذا، فإنه على الرغم من أن القرارة ليست أكبر الأحياء من حيث عدد السكان، إلا أنها أعلاها من حيث الكثافة السكانية (٧ ر ٩١٦ نسمة/ هكتار)، وذلك يرجع إلى أن القرارة أصغر أحياء مكة مساحة (٦ هكتار فقط)، وأقربها إلى الحرم في نفس الوقت. على حين أن حي التنضباوى أكبر أحياء مكة المكرمة من حيث عدد السكان (٤٦ ألف نسمة) ليس كذلك من حيث الكثافة، إذ يأتي ترتيبه

ص: ٢٤٥

السادس عشر (٢٠٠ نسمة/ هكتار)، والسبب في ذلك يعود إلى اتساع مساحته (٢٣٠ هكتار)، بالإضافة إلى أنه يضم عدداً من الجبال والتلال، وبُعدّه عن الحرم قلب المدينة وقوامها.

إقليم مكة المكرمة:

تميل كل مدينة كبيرة إلى تنظيم إقليمها الذي تقوم بينها وبينه علاقات مشتركة. وهناك معايير عديدة يمكن الاعتماد عليها في تحديد إقليم المدينة، يتمثل بعضها في تسهيلات النقل، وفي كثافة وحركة السكان، والمدى الذي تصل إليه خدماتها التعليمية والصحية والترفيهية والثقافية وغيرها (١).

ولا شك أن مكة المكرمة تسيطر سيطرةً تامّةً على إقليمها، وتقوم بينها وبينه علاقات مشتركة واسعة، فإليها يأتي أبناء المناطق المحيطة للعمل والتعلم، وإليها أيضاً يأتي المزارعون في الوديان القريبة لتسويق منتجاتهم، وشراء ما يلزمهم من أسواق المدينة، أو للتردد على المصالح الحكومية وعيادات الأطباء.

ولكننا هنا إزاء مدينة لها شأن كبير ليس في المملكة العربية السعودية فحسب، بل في العالم كله عامةً، والعالم الإسلامي والعربي بصفة خاصة نظراً لوضعها الديني كمدينة حج الإسلام. ولذلك فإننا نقصر الدراسة هنا على تحديد الإقليم الديني للمدينة اعتماداً على الإحصاء الخاص بالحجاج حسب جنسياتهم عام ١٣٩٢ هـ.

فمن واقع الإحصاء المذكور بلغ عدد الحجاج ٦٤٥١٨٢ حاجاً، منهم ٢٨٣٧٠١ من البلاد العربية، والجدول التالي يبين عدد حجاج كل دولة عربية عام ١٣٩٢ هـ.

اسم الدولة عدد الحجاج اسم الدولة عدد الحجاج

الأردن ١٢٨٥١ لبنان ٥٣٥٥

الجزائر ٢٢٩٤٥ ليبيا ٣٠٧٠٥

١- محمد محمد سطيحه، ١٩٧١، خرائط التوزيعات الجغرافية: ٧٥-٧٦، القاهرة.

ص: ٢٤٦

السودان ٣٣٢٢٢ مصر ٣٦٤٥٢

العراق ٣٥٥٦٧ الجنوب العربي ٢٤٩٦

الكويت ٦٥١٤ أبو ظبي ٨٠٦

المغرب ١٤٩٢٣ البحرين ٢٠٥٦

اليمن ٥٤٠٨٢ دبي ٢٨٥

تونس ٨١٦٨ عمان ٣٣٨٤

سوريا ١٠٤٤٨ أمارات أخرى ١٠٠٨

فلسطين ١١٣٥ أمارات أخرى ٣٤٣

موريتانيا ٩٥٦ مجموع حجاج البلاد العربية ٢٨٣٧٠١

ومن الجدول يتبين بأن أكبر عدد يأتي من اليمن (٥٤٠٨٢ حاجاً)، ثم مصر (٣٦٤٥٢ حاجاً)، والعراق (٣٥٥٦٧ حاجاً)، يليهم السودان (٣٣٢٢٢ حاجاً)، ثم ليبيا (٣٠٧٠٥ حاجاً). ولكن إذا عرفنا بأن السعودية تعمل على تشجيع اليمنيين على الحج والعمل فيها، وتعفيهم من رسوم الدخول إلى المملكة، فإن هذا يضع مصر في المركز الأول من حيث عدد الحجاج إلى مكة المكرمة.

أما أقل عدد من الحجاج - بالنسبة للدول العربية - فيأتي من دبي (٢٨٥ حاجاً)، وأبو ظبي (٨٠٦ حاجاً). ويمثل حجاج الدول العربية - قلب العالم الإسلامي - ٩ ر ٤٣٪ من مجموع عدد الحجاج سنة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٤ م).

والجدول التالي يبين أعداد حجاج أهم دول العالم سنة ١٣٩٢ هـ فيما عدا الدول العربية.

الدولة عدد الحجاج الدولة عدد الحجاج

اتحاد ماليزيا ١٢٩٨٣ إثيوبيا ٣٦٥٩

أفغانستان ٦٢٢٠ السنغال ٣٢٣٣

الهند ١٩٨٧٩ النيجر ٢٤٥٤

إندونيسيا ٤٠٦٦٨ الصومال ٢٨٤٢

إيران ٥٧٢٣٠ الكامرون ٢٢٤٥

باكستان ٦٥٨٦٦ تشاد ٢٧٩٨

تركيا ٣٦٢٥٨ غينيا ٢٨٠٢

ص: ٢٤٧

دول أسيوية أخرى ٥٢٩١ نيجيريا ٣٨٨٦٩

مجموع حجاج آسيا ٢٤٤٤٠٤ أوغندا ٢٧٧٤

بريطانيا ١٦٢٨ جنوب أفريقيا ٢٨٤٠

فرنسا ٥٠٢ دول إفريقية أخرى ٩٩٨١

اليونان ٣٩٠ مجموع حجاج إفريقيا ٧٤٤٩٧

إسبانيا ٢٠٠ الدول الأمريكية ٩٩

مجموع حجاج أوروبا ٤٩٨٠ مجموع الحجاج ٣٦١٤٨١

ومن الجدول السابق يتضح أن عدد الحجاج من خارج الدول العربية قد بلغ ٣٦١٤٨١ حاجاً، يمثلون ١ ر ٥٢٪ من المجموع العام للحجاج في عام ١٣٩٢ هـ، وقد أتى معظمهم من الدول الآسيوية (٢٤٤٤٠٤ حاجاً، يمثلون ٦ ر ٦٧٪ من مجموع الحجاج خارج الدول العربية، ٨ ر ٣٧٪ من المجموع العام للحجاج، يليهم حجاج إفريقيا (٧٤٤٩٧ حاجاً يمثلون ٦ ر ٢٠٪ من مجموع الحجاج خارج الدول العربية، ٥ ر ١١٪ من المجموع العام للحجاج. هذا بينما يمثل حجاج دول أوروبا وأمريكا نسبةً ضئيلة، ولا يزيد عددهم على ٥٠٩٧ حاجاً.

ومن بين دول آسيا، فإن باكستان هي أكبر الدول إرسالاً للحجاج (٦٥٨٦٦ حاجاً)، بل إنها أول دول العالم في هذا الشأن، يليها إيران (٥٧٢٣٠ حاجاً) التي تحتل المركز الثاني بين دول آسيا ودول العالم أيضاً، ثم تأتي كل من تركيا والهند في المركزين الثالث والرابع على الترتيب.

أما دول إفريقيا، فإن نيجيريا أول الدول من حيث عدد الحجاج (٣٨٨٦٩ حاجاً)، يليها كل من إثيوبيا (٣٦٥٩ حاجاً)، والسنغال (٣٢٣٣ حاجاً).

وعلى هذا، يتبين لنا أن إقليم مكة الديني يضم البلاد العربية جميعاً والدول الآسيوية المحيطة بها، حيث يأتي منها كل عام ما يزيد على ٩٥٪ من عدد المترددين على المدينة لتأدية فريضة الحج أو التجارة، ويبقى منهم بالمدينة كل عام أعداد لا يستهان بها، وخاصة من الحجاج اليمنيين الذين تصرّح لهم السلطات السعودية بالعمل في أراضيها.

ص: ٢٤٨

خاتمة

مما سبق يتضح لنا مدى الأهمية الدينية لمكة المكرمة، المدينة التي يفد إليها في موسم الحج من كل عام أكثر من ستمائة ألف نسمة بخلاف أعداد كبيرة أيضاً من المعتمرين على مدار السنة يقدرهم البعض بما يقرب من ربع مليون نسمة، يأتون إلى المدينة من مختلف أنحاء العالم.

وهذا دون شك ألقى مسؤولية كبيرة وعبئاً ضخماً على كاهل القائمين بالأمر في المملكة العربية السعودية، مسؤولية إعاشه الأعداد الهائلة من البشر، وتهيئة سبل الإقامة والراحة لهم، وعبء انتقالاتهم من مكان إلى آخر داخل المملكة.

ولذلك خصّصت وزارة للحج والأوقاف، كما أنشئ جهاز يتولّى كل ما يتعلق من مشروعات خاصة بتوسعة الحرمين (الرئاسة العامة لتوسعة الحرمين الشريفين).

وعلى الرغم من أن هناك بعض المراحل لتوسعة الحرم قد تمت بالفعل، إلّا أنه من المؤكد أن مشروعات التوسعة لن تنتهي، فهي تستأنف مرحلة بعد أخرى مع تزايد أعداد المسلمين والأفواج الهائلة من الحجاج. فعند آخر توسعة تمت بالمسجد الحرام في زمن الخليفة المقتدر بالله ظلت مساحة المسجد كما هي بدون زيادة أكثر من ألف عام، واستمر البناء حوله حتى اتصلت به المنازل، لدرجة أن المباني الخاصة قد فصلت ما بين المسعى وبين المسجد نفسه، حتى أصبح المسعى عبارة عن طريق ضيقة، تقوم على جانبيها المحلات والمنازل، وكانت مساحة المسجد لا تتعدى ٢٩ ألف متر مربع. ولكنه في عام ١٩٥٥ م - ١٣٧٥ هـ بُدئ في التمهيد لأعمال توسعة المسجد، وتحويل الطريق ومجرى السيل في وقت واحد، فتم هدم جميع المباني اللازمة في المرحلة الأولى، ثم حفرت أساسات الجدار الخارجي للتوسعة في القسم الأكبر من منطقة المسعى، وفي أجياد من جانب المسعى إلى ما يقابل باب أم هانئ. ولكي تتحقق التوسعة كان لابد من ضم المسعى إلى المسجد، وإلغاء الطريق الذي يخترق المسعى وتحويله إلى ما وراء الصفا خارج

ص: ٢٤٩

حدود الحرم.

ولقد بلغ طول المسعى من الداخل ما بين الصفا والمروة ٣٩٥ متراً، ومن الخارج ٤٠٠ م. وعرضه ٢٠ م، وارتفاع طابقه الأول ١٣ م. أما الطابق الثاني للمسعى الذي خصص للصلاة تابع للمسجد، فبلغ ارتفاعه ٩ م. وأما المبنى القديم فقد أبقى عليه كأثر من الآثار القديمة، وتم تنميق القديم والجديد من جميع الجهات تقريباً.

وتبلغ مساحة الحرم بعد انتهاء أعمال التوسعة حوالي ١٩٠ ألف متر مربع، ويتسع حالياً لأكثر من ٦٠٠ ألف مصل. ومن المشاريع المتممة للتوسعة مكتبة خاصة للحرم الشريف تسمى مكتبة مكة المكرمة، أختير لها المكان المقابل لباب الملك عبدالعزيز.

وتحت الدراسة الآن عدة مشاريع، أهمها مشروع توسعة المطاف بحيث تعادل مساحته ضعف المساحة الحالية، ومشروع تكييف المطاف، ومشروع توسعة زمزم مع تكييف منطقة البئر وتبريد مياهه.

وعلى الرغم من ضخامة المشاريع الجارية تنفيذها أو المقترحة، فإن الباحث يرى بعض الاقتراحات التي يمكن إجمالها فيما يلي:

١- فيما يختص بالحرم نقترح عمل توسعة جديدة له بما يعادل نصف مساحته الحالية على الأقل لمواجهة الأعداد المتزايدة من الحجاج أو المعتمرين، خاصة وأن هناك مساحات من الأراضي المجاورة التي يمكن استخدامها في التوسعة المقترحة. كما نرى ضرورة توسعة الشوارع المحيطة بالحرم والتي تشهد في موسم الحج ازدحاماً كبيراً بسبب عرقلة حركة المرور بالمنطقة، ويمكن هنا إنشاء بعض الشوارع العلوية مما يحقق سيولة الحركة بالمنطقة.

٢- فيما يختص بمدينة مكة المكرمة نقترح سرعة الانتهاء من إتمام مشاريع الصرف الصحي بالمدينة، وتوصيل مياه الشرب إلى المنازل عن طريق المواسير

ص: ٢٥٠

بدلاً من استخدام الوايتات أو السقاين، وهذا يساعد على الحدّ من انتشار الأمراض والأوبئة خاصة في موسم الحج، حيث يأتي إلى المدينة حجاج من مختلف الجنسيات والبيئات.

كذلك نقترح إعداد تخطيط جديد للمدينة ككل، يتمشى مع متطلبات المدينة الحديثة ويحافظ على آثارها الإسلامية القديمة وطابعها المميز في نفس الوقت.

ونقترح أيضاً ضرورة البحث عن مصادر جديدة للمياه لمواجهة احتياجات السكان المتزايدة ومشاريع التعمير.

كذلك يجب الاهتمام بإنشاء الفنادق والمساكن، سواء على أطراف المدينة أو في منى؛ لاستيعاب أكبر عدد من الحجاج، والتقليل قدر الإمكان من استخدام الخيام منعاً للحرائق والأمراض.



ص: ٢٥١

## رمزية مجة إبراهيم عليه السلام فى التاريخ

عبدالمجيد معادىخواه

رمزية أم القرى

كم هى حافلة بالأسرار والرموز هذه الأرض الجافة والمحرقه، أرض تقع فى واد لا يرتفع عن سطح البحر أكثر من ٣٠ متراً، وعلى خط العرض ٢١ درجة و ٢٨ دقيقة، وخط الطول ٤٠ درجة و ٩ دقائق مكة التى سمّتها أدبيات القرآن الكريم ب «بكه» (١) ولقبها باسم (أم القرى) وما فيه من أسرار تشير الأسئلة (٢)، فى واد ضيق تحيط به الجبال من كل ناحية. وكأن الطبيعة تريد أن تترك فى نفس كل ناظر إظهار ما تتمتع به هذه الأرض من أمن!

قد لا نستطيع أن نجد حدثاً تاريخياً يوازي بالأهمية من بين الأحداث التى شهدتها مكة على مر التاريخ، حدث نزول القرآن الكريم، على الرغم من أن كل تلك الأحداث تستحق التوقف عندها، بحيث نرى أن الزمان والمكان قد توافقا، وتقدير إلهى، لاحتضان أهم حدث يجمع بين مكة ورمضان مع المعجزة الخالدة

١- آل عمران: ٩٦.

٢- الأنعام: ٩٢.

ص: ٢٥٢

لأعز أبناء مكة وهوية الكتاب المقدس.

هنا سأسعى - وبالاستفادة من نحو مائة آية قرآنية- للإطالة على موقع مكة ودورها من رؤيه قرآنية.

رمز شرف مكة وعزتها

يمكن القول- و من دون تردد:- إن الذي ميّز مكة، هذه الأرض المليئة بالأسرار، وأعطاهما الشرف الرفيع بالمقارنة مع أى أرض مقدسة أخرى، لم يكن سوى وجود الكعبة المكرمة فيها، إضافةً إلى أنها المكان الذي ولد فيه خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله الذي يعدّ بنفسه ميزة لا يمكن التغاضي عنها:

«لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ \* وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا \* الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ» (١)

ولست هنا، في صدد الحديث حول ما دار من آراء وشكوك، ولكن أشير إلى دور الكعبة والمسجد الحرام في تميّز مكة، وبتعبير أوضح، العمل على تصنيفتها من آراء الشك والترديد. على الرغم من أن لهذه الأرض مميزات أخرى لا يجب الاستخفاف بأى منها، خصوصاً ولادة حضرة الرسول صلى الله عليه وآله الذي طهر مكة والكعبة من لوث الشرك، وأعلن الكعبة راية الإسلام الدائمة، وقد توقفت عند هذه الميزة على وجه التحديد؛ لأن القرآن الكريم قد أكد عليها بوضوح، وإذا ما أغضينا النظر عن هذه النقطة، فإننا لا نقبل لأى سبب من قيمة الامتيازات الأخرى لمكة، من هبوط آدم عليه السلام، إلى هجرة إبراهيم عليه السلام وهاجر عليها السلام، وولادة إسماعيل عليه السلام، والأخبار المتعلقة بتضحيته، وصولاً إلى البعثة النبوية ونزول القرآن الكريم.

لا أريد أن أحول هذا الموضوع أو البحث القرآني إلى موضوعٍ سياسى، وليس لدى دوافع فى هذه الفرصة لأربطه بتقييم الحضارة الغربية فى الدفاع عن

ص: ٢٥٣

حقوق الإنسان؛ لأن بحث هذه المسائل وتقييم عمل القوى الغربية الغاشمة فى هذا الإطار يختلف وله مجاله المختلف. على الرغم من ذلك، عندما نتأمل فى دور الكعبة ومكة من وجهة نظر القرآن الكريم لا- يمكننا التغاضى عن الآية التى تحدت بصراحة عن أن أول مركز قام أو أسس على فلسفة حماية حقوق الإنسان هو بيت الله وبشكل يشمل العالم كله. أريد أن ألفت النظر لمسألة واضحة، حيث نرى اختلافاً واضحاً بين الآيات التى تتحدث عن المسؤوليات المتعلقة بالكعبة، بالمقارنة مع الآيات التى تتحدث عن التكليف، مثل الصلاة والصيام والزكاة والجهاد؛ إذ إن مخاطب القرآن الكريم فى مثل هذه التكليف هم المؤمنون، فيما المخاطب فيما يتعلق بالحج والكعبة هم الناس:

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ...» (١)

«وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ...» (٢)

«جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ...» (٣)

«وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا...» (٤)

لا أريد هنا أن أبني هذا البحث القرآنى على الاستحسان الذوقى، لكن لابد أن أتوجه إلى الباحثين والعلماء الإسلاميين لأسألهم: هل من الممكن عدم الاعتقاد بوجود حكمة من وراء كل هذه التأكيدات المتكررة للقرآن الكريم؟ إن البحث الدقيق حول هذه الملاحظة والجواب الأكثر إتقاناً على هذا السؤال يكمن فى التقسيم الدقيق لمخاطبى القرآن الكريم؛ فأحياناً يكون الناس هم المخاطبون، وأحياناً أخرى المؤمنون، ومرّة أهل الكتاب، وتارة اليهود والمشركون، إلى جانب المخاطبين

١- آل عمران: ٩٦.

٢- آل عمران: ٩٧.

٣- المائدة: ٩٧.

٤- البقرة: ١٢٥.

ص: ٢٥٤

الخاصين، وخصوصاً المجموعة العظيمة من الآيات التي تخاطب شخص الرسول صلى الله عليه وآله. في هذه العجالة، لا يمكن التطرق إلى الأسئلة والأجوبة، التي وضمن النظره التطبيقية، تفترض التعاطي مع كم هائل من الآيات التي لكل مجموعة منها مخاطب أو مخاطبين خاصين، مع ذلك، أعتقد- وبالتوقف أمام الآيات المتعلقة بالكعبة ومكة و فلسفه الحج- أننا ندرك بوضوح أن وجودهما أوسع وأبعد من مصالح و منافع العالم الإسلامي، وتدخل فيهما مصلحة الإنسان بشكل عام. وأكتفى هنا بما تمت الإشارة له فيما سبق، على أمل أن يستطيع العلماء الكبار والمفكرون الملتزمون في العالم الإسلامي يوماً القيام بهذا الدور اللائق بهم.

كيف يمكن القبول بهذا الهوان، بأن يتولّى آخرون الدفاع عن حقوق الإنسان وأن يحقروا العالم الإسلامي أحياناً؟ ألا- يجب على العالم الإسلامي أن يعلن مرفوع الرأس أن أول مركز بنى على أساس الدفاع عن حقوق الإنسان هو في أرض مباركة اسمها مكة؟ ألا يجب أن نسعى للتذكير بهذه الحقيقة المنسية وأن ندفع ضريبة ذلك حتى؟

الخيز والأمن للجميع

أتوقف هنا عند مسألة جاءت في دعاء إبراهيم عليه السلام خليل الله، محطّم الأصنام الكبير وباني الكعبة، الذي طلب من ربه في دعائه أن يوفّر الأمن والرزق لجميع المؤمنين الذين سيعيشون في مكة، وفي جواب على دعائه، نتوقف عند نقطة لا- يجب التجاوز عنها ببساطة:

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (١).

ص: ٢٥٥

في القراءة الدقيقة لهذه الآية، نرى أن إبراهيم الخليل عليه السلام قد طلب الرزق لجميع الذين يعتقدون بالله وباليوم الآخر، ومن دون شك، فإن الله في الرد على دعاء خليله قال: حتى الكافرين منهم، لن أمنع عنهم الرزق، وهذا ما يستدعي التأمل والتفكير الكبيرين، وهنا أكتفى بما ورد وأشير إلى أنه كلما ذكر دور مكة تم التأكيد على موضوع الأمن، وحل مشكلة الجوع أكثر من مرة، وهذا ما نشاهده في سورة قريش بتعبير واضح:

«فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ \* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ» (١).

أعتقد أن الجوع والخوف من أهم المشاكل التي تواجهها أية حضارة، والأدبيات القرآنية أكدت على هاتين المقولتين باعتبارهما وسائل تدخل في خدمة السياسة والثقافة الشيطانية:

١- قريش: ٣-٤.

ص: ٢٥٦

«الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ...» (١).

إن الحكومه الشيطانية استغلت حالات الفقر والجوع من أجل استعباد الإنسان، وإذا ما استطعنا القضاء على الفقر والخوف فى العالم، فلن يعود هناك مكان للظالمين وتجبر الفراعنة، إذ إن توفير الأمن والرزق الكثير ينتهى بالقضاء على سلطه فرعون وقوته. أعتقد أنه كلما نظرنا إلى أسباب ونتائج الفقر والخوف من رؤيه قرآنيه فإننا نتوقف أمام مكة التى امتازت بالأمن وكثرة الرزق بشكل مختلف، وفى هذه النظرة، يأخذ الأمن والرزق الكثير فى هذه المدينة المقدسه- حول الكعبة- مفهوماً رمزياً لا تحدّه أرض! أبعاد الأمن فى أرض مكة وحرمة

لا بد قبل طرح مسائل أخرى حول مكة والكعبة، أن أشير إلى ضرورة عدم اعتبار أمنها مسألةً بسيطةً؛ لأن أمن هذه الأرض ملئ بالأسرار والرموز؛ إذ يشمل ما هو أبعد من الإنسان والحيوان، وبغض النظر عن كل الأسئلة الفقهية، أستذكر الآيات التى تحذر كل محرم من صيد أى حيوان، وتفرض على كل مرتكب لمثل هذا الجرم عقوبةً:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحَلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ\* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَ إِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا...» (٢).

١- البقرة: ٢٤٨.

٢- المائدة: ١-٢.

ص: ٢٥٧

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بِالْبَالِغِ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ» (١).

مشاهد الحج المتكررة

في الحديث عن الشعائر المتعلقة بمكة وتمايزها عن العالم الإسلامي لاحتضانها الكعبة ماجعلها تشهد طوال السنة حضور ملايين الأشخاص العاشقين، وأى مكان للعبادة يمكن مقارنته بالكعبة، بحيث يطوف حوله العاشقون طوال السنة؟ ولا يترك الطائفون تطوافهم سوى خمس مرات- عند إقامة الصلوات الخمس- ليفسحوا المجال أمام المصلين.

لاحقاً، وفي الجزء المخصص ل (القبلة)، سأذكر علاقة أخرى بين مكة والكعبة مع العالم، إذ لا مجال لذكرها هنا.

إن الحديث هنا عن ملايين العاشقين الذين- وتلبيةً لدعوة إبراهيم عليه السلام- يتعدون عن بيوتهم وأوطانهم ويسارعون نحو مكة. «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ\* وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ\* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ\* ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» (٢).

تأمل في التضحية

كتب الكثير عن فلسفة الحج، وقد سعى مفكرون أكثر لإزاحة اللثام عن الأسرار المجهولة للحج! لذلك لم أدخل هنا في هذا الجانب، لأشير إلى المشهد

١- المائدة: ٩٥.

٢- الحج: ٢٦- ٢٩.

ص: ٢٥٨

العظيم للحج الذى تشهده مكة كل سنة كما لو أنه المحشر.

فالحضور المتكرر لملايين الموحدين فى هذه الشعائر العظيمة، يساعد على إيجاد الترابط بين الأجيال والعصور، وأحياناً يبرزه، وهو الذى استمر من عصر إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا، وسيستمر فى المستقبل، احتفالاً للدفاع عن الحق ورفض الظلم على طول التاريخ، لا يمكن أن يتراجع أو ينكسر أو يهزم، ومكة من زاوية النظر هذه محيطٌ عظيم، تتحول إلى طوفان مع كل فصل للحج، وتفتح أفقاً واضحاً أمام المفكرين؛ أفق واضح يبشر باليوم الذى سيختبر فيه الإنسان حياةً أخرى ينتشر فيها الأمن، ولا يستسلم أى إنسان فيها أمام الظالمين بسبب الخوف والجوع!

أكتفى بهذا القدر عن مناسك الحج؛ لأشير إلى نقطة تتعلق بالتضحية؛ ففى فلسفة التضحية، لا يجب أن ننسى البعد القرآنى فى الإشارة لموضوع التضحية فى حياتنا اليومية، إذ علينا التفكير فى رمزية الامتياز الذى أعطى لنا بالتضحية بالحيوانات لتأمين ما نحتاجه.

بتعبير أوضح، يجب أن نسأل أنفسنا: كيف أن الإنسان يعطى لنفسه الحق أن يضحي بالحيوانات فى سبيل تغذية نفسه؟ لا- يجب العبور عن هذا السؤال عبور الكرام؛ لأن منطق أولئك الذين يرفعون شعار حقوق الإنسان ويصرّون على فصله عن علاقته بالاعتقاد الذى يتجاوز الإنسان، أعتقد أنهم هنا يواجهون مشكلة.

من دون أن أدخل فى مسائل لا علاقة لها بالموضوع مباشرةً، أشير إلى الآية الأولى من سورة المائدة التى تتضمن عدة عبارات، لا يبدو أن هناك رابطاً بينها ظاهرياً:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ...».



ص: ٢٥٩

ما هي العلاقة بين التأكيد على الوفاء بالعقود وبين جواز تغذى الإنسان من لحم البهائم؟ ألا يعتبر هذا الحدس منطقياً أو عقلياً، أى إن الأرضية لمشروعية التضحية بالبهائم- فى سبيل تأمين حاجات الإنسان الغذائية- ليست سوى امتياز الإنسان المؤمن أو الملتزم؟ بتعبير أوضح، إنه امتياز الإنسان الملتزم بالعهد الذى ارتقى به إلى مستوى أعلى جعل من التضحية بالمخلوقات الأخرى من أجله مشروعاً وعقلانياً.

أرى أننا- ومن أجل البحث حول مثل هذه الأسئلة والأجوبة المعقدة- بحاجة إلى فرصةٍ أوسع، ومع ذلك، فالدافع الذى حدا بى للإشارة إلى هذه النقطة، التذكير بأسرار ورموز فى فلسفة التضحية التى لم أر حتى الآن أن أحداً من المفكرين قد تطرقت إليها. كلما نظرنا إلى العلاقة بين التزام الإنسان وامتيازهم- فى أكل اللحم- من هذه الزاوية، نجد فرصةً جديدةً أو أخرى للنظر إلى عيد الأضحى ومراسم التضحية، وفى هذه النظرة، عيد الأضحى هو أيضاً احتفال بأكل اللحم! ليس من أجل التلذذ بطعمها، بل من أجل التذكير بالمكانة الرفيعة للإنسان.

لكن لا- يجب أن ننسى أنه إذا كنا نحتفل بمشروعية التغذية بلحم البهائم- كدليل على علو الإنسان- فيجب أن نعلم أن هذا العلو مرتبط بالتزام الإنسان! الالتزام الذى يفرض عليه احترام حقوق الآخريين، وأكل اللحم لا- يمكن فصله عن إطعامه للجائعين، ومن الممكن أن يكون هذا سبباً فى أن الآيات القرآنية على الدوام- فيما يتعلق بالتضحية- قد تحدثت عن أكل اللحم مقروناً بإطعامه للجائعين.

«وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ \* الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ \* وَالْبَدْنَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ

ص: ٢٤٠

فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ\* لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَ لَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (١).

العلامات والرموز في أرض مكة

التضحية- التي ذكرت بوصفها من شعائر الله- حالها كباقي مناسك الحج الأخرى التي يعتبر إحيائها دليلاً على القلوب المفعمة بالتقوى، بلا- شك فإن كل واحدة توحى بمفاهيم سامية أبعد من أي لون من ألوان الارتباط أو التعلق، إلهية وغير محدودة (أو لا يمكن حدها)! فما يجرى أيام عيد الأضحى في منى يعبر عن ثقافة تبرز في سورة المائدة؛ ثقافة الالتزام والمسؤولية في العلاقة بالآخرين والابتعاد عن النظرة الضيقة والتفرد الذي يجعل قسماً من عباد الله محرومين من المائدة الواسعة لنعمه.

وكلما كنا غير غرباء عن هذه الثقافة وأدركنا منطقتها جيداً، فإن علينا إعادة النظر في وضعنا الحالي، فطالما نشاهد علامات الجوع والخوف والتمييز الظالم والفشل الإنساني في العالم الإسلامي، فإن علينا الاعتراف بالغربة عن ثقافة الحج! لا يمكن القبول فقط بأن نسوق أعداداً كبيرة من الأضاحي إلى المذبح.

بلا- شك، إن مراسم احتفال الأضحى العظيم من المفاسخ الكبرى للعالم الإسلامي، وتعطى الدليل على الحضارة والثقافة المغايرة للخوف والجوع.

من خلال التوقف أمام سورة المائدة والرسائل المحورية لها- المنعكسة أيضاً في اسم السورة- لا يبقى مجال للتردد أو الشك، إن مشروعية تغذية الإنسان من لحم المخلوقات الأخرى مرتبط بالالتزام، فهل يعقل أن يوجد إنساناً متديناً وملتزماً بلا موقف في مقابل جوع الآخرين؟

ص: ٢٤١

إن مائدة النعم الإلهية واسعة وملئمة بالنعم والخيرات، لدرجة أنه إذا لم يتناول عليها المتسلطون الأنانيون ويضيّقوا المكان أمام الآخرين، فلا إمكان أن نشاهد ضائقته أبدأ، أناساً إلى جانب هذه المائدة يجتّون مرارة الجوع!

نتجاوز عيد الأضحى ومنى والهدى، نقول: هناك في كل أنحاء مكة علامات جلية لا يجب العبور عن رمزيتها وأسرارها ببساطة! مقام إبراهيم عليه السلام، موطن أقدام باني الكعبة العظيم- في إعادة بنائها- كلها تشي بعلو مكانة الإنسان؛ فعندما يتحدّث القرآن الكريم عن العلامات الجلية لله في أرض مكة، فإننا بلا شك ندرك خصوصية مقام إبراهيم عليه السلام وكأنه أبرز العلامات التي توحى بالعلاقة الحميمة بين الله وهذا البحاث المميز عنده، وهنا يواجه العقل سؤالاً وهو:

ما هي الحكمة والفلسفة من تأكيد القرآن على مقام إبراهيم عليه السلام؟ ولماذا نحن مطالبون- بعد الطواف حول الكعبة- بالصلاة بالقرب من هذا المقام؟

«وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ» (١).

لا أريد أن أتطرق مرّة أخرى إلى جزء من فلسفة الحج، وما أستذكره هنا مجبراً، الضرر الذي تسببه الغفلة والتفكير المبسط الذي نرى آثاره في تصرفاتنا، ألا يجب علينا أن ننتقد تصرفاتنا المتحجرة، التي تدفعنا إلى التكلّف والألم- نحن والآخرين- عند الصلاة بالقرب من مقام إبراهيم من دون أن يكون لدينا همّ التأمل في هذه العبارة القرآنية!

من دون شك ليس هناك خوف إذا حدث أثناء الحج- في الصلاة بعد الطواف- أن ابتعدنا عدّة أقدام عن مقام إبراهيم عليه السلام، فالخوف الكبير هو من الغفلة التي بسببها ابتعدنا فراسخ عن مقام إبراهيم عليه السلام من دون أن نهتمّ أو يكون لدينا همّ ذلك!

ص: ٢٤٢

التأكيد المتكرر للقرآن الكريم فى اتباع دين إبراهيم عليه السلام، يدل على الاهتمام بتعميم وتعميق ثقافة إبراهيم عليه السلام: «وَمِنْ يَزَعْبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (١).

عندما أتحدث لاحقاً عن مكة سأركز على خاصية وجود قبلة المسلمين فيها، وسأذكر خصائص أخرى عن دين إبراهيم عليه السلام وثقافته، أما الآن فأتوقف عند الإشارة إلى نقطة حول الصفا والمروة.

مطفىء أقدام السيدة الكبيرة بالقرب من الكعبة!

بالتأمل فى شعيرة الصفا والمروة والسعى بينهما بعد الطواف، ألا يمكن الوقوف على محصلة: أن القرآن الكريم فى ثقافته وأدبياته لم يحصر القيم الإنسانية فقط بالرجل!

«مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً...».

إذا كان الاختلاف فى الجنس قد أوجد الأرضية للاختلاف فى دور المرأة والرجل، فلا يوجد أى اختلاف بين الجنسين إذا أردنا الاستفادة من نبع الحياة الصادق! ففى مكة، نشاهد مقام إبراهيم عليه السلام على بُعد خطوات من الكعبة، وعلى بعد خطوات أخرى، نشاهد الصفا والمروة التى تذكر بسعى الأم التى ربت إسماعيل فى حضنها.

«إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...» (٢).

ألا يمكننا أن نجد فى هذا التعبير القرآنى الذى استخدم الطواف للتعبير عن

١- البقرة: ١٣٠-١٣١.

٢- البقرة: ١٥٨.

ص: ٢٤٣

السعى دليلاً على اهتمام القرآن الكريم واحترامه لجهد تلك السيدة العظيمة؟ وبما أننى آليت على نفسى أن ألتزم بحدود ما جاء فى القرآن الكريم، أجد نفسى مجبراً على التغاضى عن الإجابة على مثل هذه الأسئلة، وعلى الرغم من ذلك، أغتم الفرصة لأردّ على المشككين الذين يتهمون الإسلام والقرآن الكريم بالتمييز الجنسى.

وللإشارة، إلى أنه كلما تأملنا فى تاريخ الأنبياء فى القرآن الكريم، نواجه حقيقة مهمة غير معروفة فى السلسلة العظيمة للأحداث، إذ نرى أن نساءً عظيمات فى لباس من العفاف قد لعبن دوراً مميزاً، أليست سلسلة تاريخ الأنبياء قد أنتجت حلقةً من تاريخ الإسلام بدأ من ثورة موسى بن عمران وصولاً إلى المسيح بن مريم الذى أكملها؟ أليس أيضاً فى تتبع مواطىء أقدام موسى، قد جرى الحديث عن دور الأم التى ربته؟ (١) والأوضح من ذلك، دور زوجة عمران التى هزّت العرش الإلهى بدعائها! وكانت نتيجته وجود مريم التى أوجدت تحولاً كبيراً (٢) فى خلاصه ما تمّت الإشارة إليه، يمكن القول: إن الاختلاف الوحيد بين الرجل والمرأة، هو ستر أو حجب دور النساء الكبار اللاتى لم يتواجدن على مسرح الأحداث علناً، قد يكون ممكناً من خلال التفكير العميق فى هذه المسألة، أن نتوصل إلى رمز الإختلاف بين مقام إبراهيم عليه السلام ومواطىء أقدام زوجته التى صنعت تاريخاً أيضاً. ومن دون الإطالة فى هذه النقطة كثيراً، أعتبر أن البحث حول علاقة الصفا والمروة بدور هذه المرأة العظيمة من أهم ضروريات البحث والتحقيق.

الحج، رمزٌ لعلاقة الإنسان بالله

إذا صرفنا النظر عن الأسرار والرموز المعروفة وغير المعروفة لعرفات والمزدلفة والمشعر الحرام ومنى، فى النتيجة يمكن القول: إنه عندما نقوم بمناسك

١- القصص: ٧.

٢- آل عمران: ٣٥.

ص: ٢٤٤

الحج على أكمل وجه، يجب أن نرى أنفسنا- بعد إتمامها- فى ظلّ الولاية الإلهية.

«الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (١).

لا أريد هنا أن أتناول جميع النقاط التى وردت فى هذه الآيات من القرآن الكريم حول الحج، فالحديث هنا عن انتهاء مناسك الحج، عندما يبدأ حجاج بيت الله بالعودة، لقد كانت قريش فى الجاهلية لوّثت مراسم ومناسك الحج بالتمايز الطبقي، وإتنا نرى بوضوح تأكيد القرآن الكريم المكرر على المساواة- خصوصاً فيما يتعلق بالكعبة- ولندع مسألة كم لحق بمفهوم المساواة الذى كان أحد شعارات الرسول صلى الله عليه وآله الأساسيه والمحوريه من أضرار أثناء الفتن فى التاريخ الإسلامى!

أختصر تشعبات هذا البحث فى نقطه وهى: إن القرآن الكريم قد ذكر الحجاج بكثيرٍ من الصراحة والشفافية أنه عند الإنتهاء من مناسك الحج يجب أن يُشعروا أنفسهم وكأنهم فى فضاء ولاية الله، وفى الحد الأدنى أن يعتبروا علاقتهم بالله مثل علاقة الولد بوالده، وإذا طبقنا الحج على هذا المستوى فلا يمكن تسويغ قبول العالم الإسلامى بنفوذ وتسلط الآخرين!

كيف يمكن القبول بأن لا يعمد ممثلو الملايين من العالم الإسلامى - بعد انتهاء

ص: ٢٦٥

مناسك الحج - إلى اختبار الولاية الإلهية، ومن دون أن يخطو خطوات جديئة على طريق كسر العلاقة مع الولاية الشيطانية؟ هذا السؤال الانتقادي، لا- يعنى عدم القول بأى اعتبار لدور الحج فى الظروف الحالية، نحن نفتخر حتى الآن بعظمة الحج ونرفع رؤوسنا، أن قبله المسلمين - طوال السنة - تبقى كمثل الجوهرة يطاق حولها وخصوصاً فى مراسم الحج، وكأن عرش الله صار على الأرض، وأن ملايين المؤمنين العاشقين - كالفراشات - يدورون حوله، مع ذلك، لا يمكن الإغضاء عن الفرق بين الحج المطلوب والحج الموجود! وإذا ما قارنا حجنا بالمعايير القرآنية، عندها يجب أن نسأل أنفسنا، هل نحن نعيش فى فضاء الولاية الإلهية؟ ألا يتقل ظل الولاية الشيطانية على العالم الإسلامى؟

مكة ومكانة قبله المسلمين

بعيداً عن مناسك الحج، نجد أن أرض مكة قد امتازت بشيء آخر - كما ورد فى القرآن الكريم - فإذا اعتبرنا أن عدد الذين يطوفون حول الكعبة بالمقارنة مع مؤمنى العالم الإسلامى يعتبر قليلاً، فإن للكعبة، إلى جانب الحج، علاقة أخرى مع المسلمين لا تقبل الحد!

ص: ٢٦٦

كل يوم يتجه مئات ملايين المسلمين معاً خمس مرات نحو الكعبة، لا أريد هنا أن أناقش ما يتعلق بالقبلة فى هذه العجالة، لكن الذى لا بد من الإشارة له هو غفلة الكثير من المسلمين المصلين عن دور القبلة.

فإذا تأملنا فى الآيات القرآنية المتعلقة بالقبلة بشىء من الدقة، لا شك أننا سنخجل ونكس الرؤوس من النظرة السطحية والبسيطة! لأن منطق القرآن الكريم يرى أن كل مجتمع أو حضارة بحاجة إلى قبلة تحدد بها هويته، قال تعالى:

«وَلَيْسَ آتِيَتِ الدِّينَ أَوْ تَوَاتَا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ...» (١).

ومع أن الحديث فى هذه الآية عن قبلة المؤمنين، لكن يبدو أن هوية كل واحد من المجتمعات يرتبط بقبلة محددة وخاصة به، بحيث إن أياً منهم لا يقبل بقبلة الأخر.

ولكن عندما نتأمل فى مجموع الآيات المتعلقة بتحويل القبلة وفلسفتها، لا شك أنه لا يمكن القبول بعدم وجود دور للقبلة فى توحيد اتجاه المعتقدين بها فى أى مجتمع أو حضارة، وأعتقد أن هذا السبب هو الذى جعل القرآن يعبر فى آية أخرى عن القبلة بتعبير أشمل وهو (الوجهة):

«وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ...» (٢).

من دون شك، يبدو من غير الممكن إيجاد مجتمع أو حضارة من دون توحيد أفرادهما حول هدف خاص، كل حضارة ومجتمع لا بد أن يكون لديه أهداف مشتركة يجب تبلورها فى رمز ما. والآن أين نجد حضارة فى التاريخ توحدت حول

١- البقرة: ١٤٥.

٢- البقرة: ١٤٨.



ص: ٢٤٧

رمز؟ إلى الآن- وبعد قرون- نجد أن الكعبة قد وُحِدَتْ نحوها أجيالاً لا يمكن إحصاؤها! أى أرض يمكنها أن تفخر بأن يكون لديها مثل هذه الرمزية؟

مع ذلك، يجب أن نتوافق مع هذا السؤال الانتقادى أو المنتقد: ماذا حدث لنا- وعلى الرغم من أن لدينا مثل هذا الرمز الذى نتجه نحوه- نعانى من التفرق؟

هذا الألم مع من يمكننى أن أطرحه غير نفسى، بحيث إن كل يوم ولخمس مرات يقوم أكثر من ربع سكان الأرض بالتوجه نحو القبلة من دون أن نستطيع الاستفادة أو من دون أن نبذل أى جهد فى هذا التوحد العظيم!

الثمن الكبير لتحويل القبلة

كما أسلفت الذكر، لا أعتقد أن الفرصة هنا تسمح بالتطرق إلى الموضوعات الكثيرة حول القبلة؛ لأن الحديث عن ميزة أو امتيازات أرض مكة فى القرآن الكريم أو من خلاله، والتى يسطع فيها حرم هو أفضل قبله للمؤمنين لا يتسع له الحديث هنا! ولولا عدد من المتصدين غير الصالحين للأديان، وما يعانون منه من العناد والانفراد أو التفرد، لن يكون أفضل من أن تجتمع كل الأديان والمؤمنين بها حول هذا البيت الذى يعتبر تذكاراً من إبراهيم الخليل عليه السلام، الرسول الذى يعتبر الأب الكبير لكل الأديان ولا يداخله أى لون من اليهودية أو النصرانية.

«ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» (١).

أعتقد أنه لا يوجد فى العالم الإسلامى حتى الآن دراسات وأبحاث حول القبلة بشكل ما! فمن دون شك تم إنجاز أعمال قيمة وكثيرة حول هذا الموضوع،

ص: ٢٤٨

لكن مع ذلك هناك مجال لأعمال جديده أكثر، أرى أن إنجازها يتعلّق بمشاركه مفكرى العالم الإسلامى، خصوصاً وأن المواجهه بين قبله كل طرف- لدى الحضارات- يهدد الآن السلام العالمى! لذا نحن بحاجة إلى حوار أشمل من العالم الإسلامى.

ما أركز عليه فى هذه الفرصه، هو السعى الذى بذله خاتم الرسل صلى الله عليه و آله على طريق منع الحرب والعنف، مداراه أهل الكتاب، والتوجه معهم نحو قبله واحده- خلال سنوات من عصر البعثه- وهذا ما يستحق التوقف عنده؛ لأن الثمن الكبير والثقل لتحويل القبلة كان عندما وصلت المساعى السلميه إلى طريق مسدود، وهذا ما لم يدرك جيداً، وهنا ألفت نظر العلماء الأجلاء إلى سؤال هو:

ألا يوجد علاقة بين آيات تحويل القبلة (١) وآيات الجهاد والشهادة؟ (٢) الجواب على هذا السؤال يتعلّق بسؤال وجواب آخر: هل يمكن التفتيش أو البحث عن انسجام بين موضوعات القرآن المتفرقة ظاهرياً؟

أعتقد أن كل سورة من القرآن الكريم تحمل رساله محده خاصه يمكن تلمس أثرها فى اسم هذه السوره، لا- يمكن لى هنا أن أتطرق إلى تسويغ هذه العقيدة، وأرى نفسى مجبراً على الاكتفاء فقط بالإشارة إلى أن الجهاد فى عصر البعثه كان- قبل كل شىء- ثمناً لاختيار الكعبه كقبله للمسلمين، ويمكن لهذا السبب أن نتوقف عند ما جاء فى الآيات التى تلى آيات تحويل القبلة:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ \* وَلَا

١- البقرة: ١٢٤-١٥٢.

٢- البقرة: ١٥٣-١٥٧.

ص: ٢٦٩

تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أحياءٌ وَ لَكِنْ لا تَشْعُرُونَ» (١).

لا أصر على هذا الاعتقاد، وأرى أن أى حكم يجب أن يكون فى إطار الحوار حول أسباب ونتائج تحويل القبلة، وألفت إلى أن مصير أى حضارة على علاقته أو يتبع القبلة التى تتجه نحوها. وفى حوار الحضارات أيضاً، وقبل أى شىء، يجب تعريف قبلة كل من الحضارات، وهنا أعود لأشير إلى نقطة كنت قد بدأت بها هذا البحث: إنه إذا قبلنا أن الكعبة هى أول مركز أو مؤسسه قامت للدفاع عن مصالح الناس، عندها يمكننا إدراك إحدى الأسرار المجهولة لتحويل القبلة!

مقارنه القبلتين

أرى أنه لا بد هنا من الإشارة إلى نقطة تفرض نفسها كلما تطرق الحديث لموضوع القبلة، وهى المقارنه بين الكعبة والمسجد الأقصى، ويمكن من خلال هذه المقارنه التوصل إلى عدده رموز وإشارات تكشف الاختلاف بين هاتين القبلتين، وأعتقد أنه لو لم يكن يوجد لدى دعاء التفرد والمتعصبين العرقين من اليهود خصلة إشعال وتسعير الحروب، فإن مصير هاتين القبلتين كان على غير ما هو عليه الآن.

من الواضح أن البحث فى هذا المجال يمر عبر دوائر التاريخ المتعلقة باليهود، وكذلك فإن الإشارة إلى المسائل المتعلقة بهذا البحث لا يتسع لها المجال هنا، وأكتفى بالإشارة إلى أن قسماً من سعى الرسول صلى الله عليه وآله فى عصر البعثة كان يصب فى إطار منع المواجهه بين القبلتين، وبما أنني ألزمت نفسى فى هذا البحث أن أستعين بالآيات

ص: ٢٧٠

القرآنية، فإنتى أشير إلى نقطة قرآنية هي أن القرآن الكريم قد عرّف المسجد الحرام والمسجد الأقصى على أنّهما مبدأ وانتهاء الإسراء الليلي للرسول صلى الله عليه وآله:

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (١).

أرى أن مسافة إسراء الرسول صلى الله عليه وآله- أى فى البعد الأرضى للإسراء والمعراج- قد حدّدت بالفاصلة أو المسافة بين القبلتين، فهل يمكن من خلال التأمل فى مسافة الإسراء التوصل إلى أن فى فلسفة الإسراء لم يتم تجاهل التجارب التاريخية للأديان؟ لا يمكن الإجابة على مثل هذه الأسئلة فى هذه الفرصة. لكن ما أراه واضحاً هو العلاقة بين القبلتين فى أدبيات القرآن الكريم والسيره النبوية، وبلا ترديد إذا لم يكن القيمون على الأديان يعانون من التعصب والتفرد، كان من الممكن إيجاد أرضية السلام والوحدة من خلال القبول بالكعبة على أنّها أثرٌ من إبراهيم عليه السلام.

من خلال التأمل فى أكثر من ٢٠٠ آية فى سورتي: البقرة وآل عمران، يمكننا التوصل إلى نتيجة واضحة حول السبب الذى أوصل مساعى رسول الرحمة صلى الله عليه وآله السلمية إلى طريق مسدود؟ خصوصاً إذا توقفنا عند رسالته الآيات التى تتحدث عن عمران المساجد وتخريبها.

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (٢).

١- الإسراء: ١.

٢- البقرة: ١١٤.

ص: ٢٧١

ولا شك أن الحديث في هذه الآيات ليس عن التخريب الظاهري للمساجد، إنما عن تلوين أماكن عبادة الله بالتسلط والتفرد الجاهلي وعبادة الأصنام، خصوصاً عندما نعيد النظر في الآيات السابقة، نرى بوضوح أن القادة الظالمين والمتعصبين يقررون أن سعادة الإنسان مرتبطة بهذا الدين أو ذلك؛ فهذا يقول: لا أحد يدخل الجنة غير اليهود، وذاك يقول: النصرانية هي الطريق الوحيد للسعادة، وكل من هو غير نصراني فهو في الجحيم، والقرآن الكريم، في مقابل هذا التضاد، يطرح طريق إبراهيم ودينه الحنيف الذي يتوازن بين كلا الدينين! ألا يشكل هذا تعبيراً عن مساعي السلام ولقطع الطريق أمام العنف وأبشع حروب التاريخ؟

ومن دون التوقف كثيراً عند هذه النقطة أعود لأؤكد على مسألة وردت في الآية السابقة، فالقرآن الكريم يصف الذين يسعون إلى تفرغ المساجد من محتواها الأصلي ويسعون إلى تخريبها، بأنهم أشد الظالمين، لذا لا يجب التجاوز عن هذا التعبير العميق ببساطة! لماذا يعتبر ظلم القادة الدينيين غير الصالحين أشد وطأً وأثراً من ظلم الظالمين في التاريخ؟

وهنا أذكر نقطة واحدة هي: كلما تصفحنا أوراق تاريخ الحروب والعنف برؤية معمقة، لا يمكن مقارنة أي حرب مع الحروب الدينية! فالجروح الناتجة عن التعصب الديني والتي أصابت جسد الإنسانية أشد إيلاماً من أي جرح آخر، واليوم عندما ننظر إلى أرض فلسطين، نرى أنها تعاني من قسوة قلب وعداوة لا يمكن إيجاد نظير لها في التاريخ يمكن مقارنتها به.

قد يكون السبب الذي منع رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يكون له قبله واحدة مع اليهود هو جور وعداوة القيميين على المساجد، الذين أفرغوا بيت المقدس من

ص: ٢٧٢

محتواه، دون التقليل من أهمية الخصائص التى تتمتع بها الكعبة، هذه الملاحظة تستحق التوقف عندها- المواجهة بين القبلتين- وكأنها مواجهة بين خطين وثقافتين: خط وثقافة الرسول صلى الله عليه وآله الذى نادى بالعدالة، خط وثقافة قادة أنانيين استغلوا الدين للتميز! فيما وضع القرآن الكريم مسألة النضال ضد القوى المشتركة على أنه رسالة كل الأديان الإلهية (١).

من هنا نرى أن تجار الدين قد تولوا أمور بيت المقدس واستغلوا عباد الله كعبيد لهم:

«مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤَيِّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ\* وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (٢).

مكة والكعبة فى نظرة تاريخية

سوف أعمد هنا للحديث عن المسار التاريخى لمكة والكعبة- من رؤيته قرآنية- خصوصاً مع الأخذ بعين الاعتبار ما ذكرته عن الضرر الذى لحق ببيت المقدس، وهنا يتسع المجال لهذا السؤال: هل كانت الكعبة بعيدة عن الضرر؟ ألم تتحول فى الجاهلية قبل الفتح إلى بيت للأصنام؟

يمكننا من خلال التوقف عند المسيرة التاريخية للكعبة أن نوفر أراضية الإجابة عن مثل هذه الأسئلة، خصوصاً مع التوقف عند التزام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتطهير الكعبة، وأن نتعرف على أبعاد وجوانب أخرى من

١- آل عمران: ٦٤.

٢- آل عمران: ٧٩- ٨٠.

ص: ٢٧٣

حصانة الكعبة.

قبل الحديث عن دور الأب والابن فى تجديد بناء الكعبة، يجب الإشارة إلى أن أحد امتيازات الكعبة قدم البناء، وأن قدمها يعود إلى ما قبل إبراهيم- كما ورد فى القرآن- وقد لقت ب (البيت العتيق)، وهنا نشاهد الظل الثقيل للتمييز الذى يسيطر على دراسات الجامعات الغربية فى مجال الآثار (الأركولوجيا)، والذى يتطلب جهداً حثيثاً لفضحه، ومن المحزن جداً أن الكثير من مفكرى العالم الإسلامى أيضاً تحوّلوا إلى تابعين ومستخدمين لدعاياتٍ تقدّم تحت اسم العلم والبحث، وتصرّ على تزوير الحقائق التاريخية بشكلٍ أعمى. وهنا أكتفى بهذا المقدار من دون التوسع فى شرح هذه الفاجعة الثقافية.

عندما نقارن بين مقدار الأعمال التى أنجزت- فى الأكاديميات العالمية المشهورة- حول فلسطين وبيت المقدس، وبين الأبحاث التى جرت حول مكة والمدينة، ألا نشاهد دليلاً واضحاً على تأمرٍ لا يبعث فىنا الإهتمام؟ وإذا ما قرّنا يوماً أن نعمل على إبطال المؤامرات الصهيونية، فإن علينا الاستعانة بجهود العالم الإسلامى فى ذلك، وإذا كنا اليوم لا نستطيع منافسة الآخرين فى هذا المجال، فإننا على الأقل قادرون على فضح الأيدى الظاهرة والخفية للذين يسعون لفرض هويّة على الشعوب والحضارات تتناسب مع مصالحهم وأذواقهم.

على أية حال، إن إثبات قدم الكعبة- كعنوان لأول مركز توحيدى يدافع عن مصالح الناس وحقوقهم- (١) مرتبط ومترافق مع الجهاد العلمى والثقافى؛ لأن ما نراه فى القرآن الكريم ليس أكثر من تعبير مبهم حول قدم الكعبة قبل إبراهيم عليه السلام.

١- آل عمران: ٩٦.

ص: ٢٧٤

تجديد أو إعادة بناء الكعبة

إذا ما كانت الكعبة- ومن دون شك، قبل إبراهيم أيضاً- مكاناً لعبادة الله، إلّا أن أخبارها الواردة فى القرآن الكريم، يزداد عددها ووضوحها من اليوم الذى ترك خليل الله عليه السلام جزءاً من عائلته وأولاده فى ظلها.

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ \* رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ \* رَبَّنَا إِنِّي أَشْكُنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» (١).

مانشاهده فى هذه الآيات بوضوح اعتقاد خليل الله عليه السلام بأن أرض مكة قد اختيرت كحرم آمن، لكى يوقر لأبنائه حصانه فى ظل الكعبة فى عالم ملئ بالشرك. أكتفى بهذه الإشارة لما ورد فى دعاء إبراهيم عليه السلام تاركاً ما خفى منها؛ فإبراهيم عليه السلام فى أرض مكة المحرقة الجافة، كان لديه رؤية واضحة خلال التاريخ، وكان يعقد الأمل على نسل إسماعيل عليه السلام- فى إقامة الصلاة- وكذلك كان فى رؤيته أن تحقّق هذا الهدف مرتبط بدعم عواطف الناس.

وفى خلاصة هاتين النقطتين، نرى بوضوح أن إقامة الصلاة أبعد من علاقة خاصة أو شخصية بين الإنسان وربّه أو الله، إذ إن لها مفهوماً اجتماعياً وتاريخياً، وفى غير هذه الصورة، فما هى الحاجة إذاً للدعم والعواطف؟

لن أتطرق هنا لقضية الهجرة التاريخية والمؤثرة فى التاريخ، والتى نرى فى أماكن مختلفة فى القرآن الكريم آيات تتحدّث عن أبعادها وآثارها، خصوصاً واقعة ذبح



ص: ٢٧٥

إسماعيل عليه السلام. في هذه الأثناء لا يمكن المرور على دور الأب والابن في تجديد أو إعادة بناء الكعبة دون التوقف عنده. «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ \* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (١).

مكة والكعبة في عصر الفطرة

فجأة نشاهد انقطاعاً في المشهد التاريخي من عهد إبراهيم عليه السلام إلى عصر البعثة- في القرآن الكريم- وكأنا نواجه سكوتاً يثير التساؤل حول أحداث مكة! ولا نجد في الآيات القرآنية القليلة حول وضع مكة والكعبة قبل ظهور الإسلام إلا إشارات حول النكران؛ من قصة هجوم جيش أبرهه وإظهار قدرة الله في الدفاع عن الكعبة، وانتقاد للمشركين- وبالخصوص قريش- الذين لم يحترموا حرمة الكعبة، وحرمة الأشهر الحرم، وتصرفوا بها بأسلوب غير مقبول وابتدلوا مناسك الحج:

«وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» (٢).

لست هنا في صدد الإكثار من الحديث عن الانحطاط الذي أصاب أهل مكة

١- البقرة: ١٢٧-١٢٩.

٢- الأنفال: ٣٥.

ص: ٢٧٦

أيام الجاهلية، والذي ذكره القرآن الكريم فى آيات متعددة، وأكتفى بالحديث عن هذا الانحطاط من خلال انعدام الأمن وانتشار الاعتداء على الحرمات حتى لأعز أبناء مكة والكعبة فى الأرض المقدسة التى أكد على حرمةا وحرمتها القرآن الكريم، حتى للحيوانات، وخصوصاً من قبل زائرى الكعبة المحرمين.

والآن، وقبل الحديث عن ذكريات التضييق على المؤمنين فى مكة بعد جهر الرسول صلى الله عليه وآله بالدعوة، وخصوصاً الظروف التى هيات للهجرة، أستعيد نقطتين مفيدتين:  
أمن مكة ونتائجه

إذا كانت سلسلة العداوة المثيرة مع دعوة الرسول صلى الله عليه وآله وفى دائرة نتائج هذه الدعوة- قد وصلت إلى حدود الإقدام على قتل أعز أبناء مكة والكعبة وانتهاك حرمة الحرم، فلا يجب أن نعتقد أن أمن مكة فى أيام الجاهلية قد فقد لونه بالكامل؛ إذ إن بعض الآيات القرآنية قد أشارت بوضوح إلى ذلك، وتؤكد أن الأمن فى تلك الأرض أيام الجاهلية كان له وجود واقعى وواضح: «وَقَالُوا إِن نَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِيبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

هذه الآية تعبّر عن أن أمن مكة- كامتياز واضح- واقع جلى ومعروف لدى الناس، وأن الناس كانت ترى أن هذا الأمن كان مترافقاً مع رونق اقتصادى جلى، وهو ما ورد فى سورة قريش بشكل واضح. والمؤرخون الغربيون- على رغم التمييز فى اهتمامهم بتاريخ مكة والكعبة بالمقارنة ببيت المقدس- كانوا مجبرين على

ص: ٢٧٧

الإشارة لهذا الواقع، وبأن مدينة مكة كانت تتمتع بروتي تجارى.

وفى تجاوزٍ للتناقضات التى لوثت الكثير من الآثار التاريخية بالتعصب ضد الإسلام والعرب. قدّموا تصوراً عن العرب على أنهم بلا ثقافة، وكأنّ العرب كانوا غرباء عن الحضارة! باستثناء أجزاء من اليمن، لكنهم عند الحديث عن موقع مكة فى التجارة يتحدثون عن أناس عرفوا العالم.

لست هنا فى صدد الحديث عن كيفية تعاطى المؤرخين الغربيين مع الإسلام والعرب فى هذا البحث الذى أقصره على ما يمكن أن أستند به على القرآن الكريم.

ما يمكن أن نراه فى العديد من آيات القرآن هو ما تمتعت به مكة من أمن، والروتق الاقتصادى عن طريق التجارة، وبالتفكير فى نتائج هاتين الميزتين ندرك خطأ الصورة المغرضة التى أشرت لها.

إن حياة الناس وعلاقاتهم فى زمن الجاهلية كانت ممزوجةً بالقبايح والنواقص الكثيرة، التى سأشير إلى بعضها بالاعتماد على عددٍ من الآيات فى القرآن الكريم، والدافع هو ما أشرت له من أن الدفاع عن أهل مكة، ليس سوى تذكير بالتعصب ضد العرب المتوافق مع السياسة الصهيونية، والهادف إلى تحريف الوقائع التاريخية بشكل جلى؛ فدار الندوة فى مكة وسقيفة بنى ساعدة فى يثرب، تدلّ على دور التشاور فى القرارات الاجتماعية المهمة، وعندما يشاهدون أو يجدون مثيلاً لهذه المؤسسات أو لمثل المنافسة الأدبية فى سوق عكاظ فى أى أرضٍ أخرى، يعمدون إلى تضخيمه واعتباره أنموذجاً للديموقراطية والبلوغ الأدبى! وأنا هنا مجبر على تقصير الحديث عن الثنائية المسيئة فى الكتابة الغربية للتاريخ، على أمل أن نرى مساهمة العالم الإسلامى فى محاربة هذا التحريف.

ص: ٢٧٨

ثقافة الأخلاق والاعتقادات الدينية

إذا ما التزمنا فى هذا المجال أيضاً بإطار الآيات القرآنية والأسلوب السابق، يمكننا القول: إن ثقافة وأخلاق أهل مكة لم تكن بعيدةً والظروف الاقتصادية التى كانت سائدةً.

وخلاصةً هذه الآيات فى القرآن الكريم تشير إلى مكةً بميزتين: المدينة الجافة والمحرقه التى شكلت للبعيد والمحرومين جحيماً كله ألم وعذاب، وكذلك مكاناً للريح والمال، وجنةً لبعض الأشراف القلائل! خاصةً إذا توقفنا أمام آيات الربا وارتباطها بآيات النفاق (١)، والتى تذكرنا باختلال مسيرة التاريخ.

ونتصور مجموعتين من الناس تعيشان فى ظروفٍ مختلفة:

١- البقرة: ٢٦٠ - ٢٨٠؛ وآل عمران: ١٢٩ - ١٣٦.

ص: ٢٧٩

متمولون يمتصون دماء المحرومين حتى الرمق الأخير بأرباح قروض مضاعفة! وأناس يعيشون في براثن الفقر، يدفعهم الخوف من الفقر إلى وأد وقتل أعز أولادهم (١)، على الرغم من أن قتل البنات (وأدهم) في الجاهلية كان فيه أثر من العداء لهن والغيرة الشديدة والمفرطة.

إلما أن القرآن الكريم قد أكد في سورة الإسراء على علاقته ذلك بالفقر، وفي هذا الإطار فإن كتاب التاريخ المتوافقين مع اليهود المعادين للعرب قد صوروا الماضي بطريقة كان لها الأثر السيء في صياغة الأفكار والعقول. وكان المرأة في حياة العرب تلك الأيام لم تكن تحسب إنساناً!

لا- أنوى هنا أن أدخل في بحث مسائل فرعية، وأكتفى بالإشارة إلى أنه إذا ما كانت مكانة جميع النساء على هذا النحو، فكيف كان لسيده مثل أم المؤمنين خديجة عليها السلام كل تلك الإمكانيات لتستخدم وتوظف الكثير من الرجال؟ على أية حال، في تلك الحياة الثائية إلى جانب الاختلافات الطبقية، فإن المرأة والخمر والربا والميسر قد ساعدت على تعميق الظلم في علاقات الناس بعضهم ببعضهم الآخر.

«إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...» (٢).

وأشير إلى أنه إذا كانت الخمر والميسر والأزلام من الشرك، فإن كل واحد منها أيضاً يشكل سبباً أو عنصراً مدمراً، ولا يجب أن ننسى أن هذه الأمور كانت تشكل جانباً من ثقافة تلك الأيام! لكن عندما يرتبط الإدمان على شرب الخمر

١- الإسراء: ٣١.

٢- المائدة: ٩٠.

ص: ٢٨٠

مع الميسر أو القمار فإن تدميره يكون مضاعفاً! واليوم نرى أن أصحاب حانات القمار يستغلون الخمر والسكر إلى جانب المرأة ليضفوا على القمار رونقاً! وإذا استذكرنا هنا أن القرآن الكريم في سورة المائدة قد تحدّث عن علاقة الخمر والقمار ببعض مظاهر الشرك، فإننا ندرك أن الرسالة الثقافية الأقرب إلى القلب من وراء ذلك هو الحديث عن أشياء تنجس مائدة النعم الإلهية.

شعر الشعراء وسجع الكهان وأورد السحرة

في تلك الأرض المقرونة بعنف السيف، كان للشعر والسجع مكانتهما التي تدعو للتوقّف عندها، فكلمًا تأملنا في منطق المعارضين للرسول صلى الله عليه وآله، وكما ورد في كثير من الآيات القرآنية، نجد أن مكة كانت من الناحية الأدبية كالقمة الشامخة، وعلى ضوء آيات من القرآن الكريم- من ضمنها جزء من سورة المدثر- نرى أن مكان ولادة البعثة يعجّ بالمحافل الأدبية التي لم تكن غريبة عن الأدبيات القرآنية، والأثر الذي تركه طنين رسالته وأدبيات القرآن الكريم من علامات وآثار واضحة فيها. وكذلك الحديث عن متكلمين مدققين وما ذكر يعجاب عن سياستهم وحيلهم في إبطال أثر ودور القرآن.

كنت أتمنى عند كتابتي لهذا البحث أن يكون في متناولي متحفّ كي أصوّر أدبيات تلك الأرض، لقد بقي لنا من تلك الأيام آلاف اللوحات بحاجة إلى إعادة اكتشاف دقيق وعميق، كي نكون أقدر على معرفة الآيات القرآنية بشكل أفضل.

في هذه الحالة، نرى أن الكثير من التعاليم القرآنية قد نزلت لأجل إحداث تغيير في تلك الأرض، ونستطيع معها إدراك عدّة نقاط حول ما كان يجري في أرض ولادة البعثة في زمن نزول القرآن الكريم، والمثال، إذا كنا نشاهد شعار

ص: ٢٨١

الدعوة إلى الدين الحنيف فى الأدبيات القرآنية، فإن ذلك يقودنا حتماً إلى واقع أن شعار الدين الحنيف فى تلك الأرض كان شعاراً معروفاً وجذاباً، وإذا كنا نعتبر أن الاعتقاد الدينى للناس كان مختلطاً بالخرافة، فإن علينا أن ننظر إلى الوجه الآخر للعملة. من خلال التوقف أمام ما جاء فى القرآن الكريم حول الاعتقادات والثقافة والاقتصاد والأخلاق والتغذية والصحة والآداب والعادات، نتوصل إلى إدراك منشئها فى الجاهلية، خاصةً إذا ما كانت نظرتنا تأخذ بعين الاعتبار ترتيب نزول الآيات.

فى نظره أخرى، فإن علاقة أشراف وساده مكة مع أهل الكتاب تستدعى التوقف عندها والتأمل، ففى تأكيد القرآن الكريم على بعث الرسول صلى الله عليه و آله من الأميين، ما يساعدنا على معرفه مدى الفساد الذى كان يضع العلم والأدب فى خدمة ظالمى الجاهلية، وكأن الدين والقانون والأخلاق قد استغلت - كقيدٍ وسلاسل - لفرض السلطة الطبقية:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (١).

إن مثل هذه الآيات هى بمثابة نافذة لرؤية المجتمع الذى نزلت فيه دعوة الرسول صلى الله عليه و آله، ولذكر أو تعداد كل الآيات نحن بحاجة إلى تأليف كتب كثيرة، لذا

ص: ٢٨٢

سأكتفى هنا بذكر هذه النماذج.

وفى إدامه النظره التاريخيه حول مكه، يجب أن نتوقف عند علاقته تلك الأرض مع يثرب، العلاقة التى مهّدت للهجرة والتحول: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرَى عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا \* وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كَدَّتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا \* إِذَا لَادَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصْرًا \* وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا \* سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا» (١)

الهجرة نقطة تحول فى تاريخ مكه

لا أنوى هنا أن أناقش موضوع هجرة الرسول صلى الله عليه وآله إلى يثرب، وسأكتفى بالتوقف عند الأثر أو التحول الذى تركته هذه الهجرة النبوية فى تاريخ مكه؛ فإذا اعتبرنا أن تلك الهجرة التاريخية تشكّل الخطوة الأولى نحو تأسيس الحضارة الإسلامية، ففى رؤية أخرى أو ثانية، كانت خطوة مصيرية فى إطار تحرير أرض مكه من سلطة الظالمين الذين لوّثوا مكه والكعبة بالشرك. والآن، وقبل النظر إلى نتائج الهجرة النبوية وبالترافق مع مصير مكه، يجب علينا أن لا نغفل عن الدور المهم لموسم الحج فى تبادل التجارب.

وهنا، لسنا بحاجة إلى التذكير بأن معرفة يثرب بالدعوة الإسلامية لم تكن مفصولة عن موسم الحج؛ من هذه الرؤية، نرى أن موسم الحج يمثل مناسبة قيمة ومهمة لما يوفره من أرضية للتبادل الثقافى ونقل المعرفة بين الناس.



ص: ٢٨٣

وهنا، أشير إلى نقطة غير معروفة من الآية المشهورة:

«يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...» (١) مفسرو القرآن الكريم، وفي قراءتهم لمعاني هذه الآية، توقفوا عند جزء منها هو «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ»، بشكل أثر على جاذبية «لِتَعَارَفُوا» فيها، وهنا أعتقد أن المعنى أو الرسالة الأساس لهذه الآية ليس سوى (التعارف)، الذي يعبر عن تربيته قرآنية.

وهنا نشاهد أن نظرية حوار الحضارات في مقابل تصادم الحضارات في الحاضر قد جذبت الكثير من محبي السلام في العالم، وهنا أتوجه بالسؤال لعلماء المسلمين، ألا نرى في تأكيد القرآن الكريم على تبادل المعرفة- كعنوان لفلسفة التعدد المرتبطة بالأرض والدم- أنها تبطل نظرية تسعير الحرب؟ ألم يعلن القرآن الكريم- بكل صراحة وبأسلوب شفاف- أن في تعدد وتنوع الحضارات والمجتمعات أصل مشترك يربط جميع الناس مع بعضهم، حتى مع وجود اختلاف في الأرض والدم والقبايل والشعوب، وأن عليهم أن لا ينسوا هذا الأصل المشترك؟ إن فلسفة هذا التعدد والتنوع ليس التفاخر الذي يحمل بعضاً من معنى التكاثر ويوفر أرضية لاستعادة تفاخر الجاهلية (٢)، بل الأقرب إلى العقل والمنطق أن يكون هذا التنوع ذريعةً للتعارف بدلاً من التفاخر الذي يسبب الحرب.

أختم هذه النقطة أو المسألة الإنسانية والعالمية فيما يتعلّق بشعار الاسلام بالقول: إن موسم الحج، يشكل فرصة ذهبية منقطعة النظير لزوار الكعبة، كي

١- الحجرات: ١٣.

٢- أنظر سورة التكاثر.

ص: ٢٨٤

يستفيدوا من قطرات هذا المحيط العظيم وتلاطم أمواجه فى سبيل تكامل الأفكار والتجارب المتنوعة فيما بينها. من هذه الرؤى، أعتبر أن موسم الحج أفضل فرصة لا يجب أن ننسى الشكر عليها، تجربة فى التبادل الثقافى، فى أجواء سليمة بعيدة عن الجدل والانحراف.

والمثال البارز والتاريخى هنا هو ارتباط عدد من قبائل يثرب بدعوة الرسول صلى الله عليه وآله، إذا نظرنا بهذا النحو، فإننا ندرك دور موسم الحج، ليس فقط كنقطة تحول فى تاريخ مكة ويثرب، بل كتمهيد للحضارة الإسلامية، ونقطة تحول أيضاً فى تاريخ الحضارات. أسئلة حول أرضية الهجرة النبوية

إذا تجاوزنا جميع ذلك، فإننا نواجه أسئلة حول أرضية الهجرة النبوية لا يمكن تجاهلها، فإذا نظرنا إلى قصة الهجرة من نافذة الآيات فى سورة الإسراء، نرى أن الحديث عن طريقين غير معروفين - قبل الهجرة - لم يتطرق إليه أصحاب السير والمغازى، وكذلك المفسرون الكبار.

فى تلك الآيات، يجرى الحديث عن مساعى المشركين لجرّ رسول الله صلى الله عليه وآله إلى منحدر صعب، «وإن كادوا ليفتنونك...»، وهناك حديث عن مساعٍ أخرى لفصل أعزّ أبناء مكة عن الكعبة «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها...»، وحتى الآن لم أشاهد فى السير والمغازى وكذلك التفاسير أى أثر لرؤية جامعة أو شاملة لمجموع هذه الآيات. لا أريد هنا أن أدخل فى مناقشة مسألتين مجهولتين تعبران عن علاقة الهجرة النبوية بطريقي: المساومة والقطيعة، مكتفياً بالإشارة التالية:

ص: ٢٨٥

في إعادة قراءة تاريخ الإسلام، يجب البحث عن الفتنة التي كان بإمكانها أن تدفع الرسول صلى الله عليه وآله أمامها، ألم يكن الرسول صلى الله عليه وآله أمام ضائقة أجبرته على الهجرة.

وبتعبير أوضح، ما هي المقترحات التي قدمها مشركو قريش ودفعت الرسول صلى الله عليه وآله في ظل العصمة إلى رفضها؟  
الجواب على مثل هذه الأسئلة يتعلّق أو يرتبط بإعادة قراءة تاريخ الإسلام على ضوء الآيات القرآنية، وبمشاركة كلّ المؤرخين الأحرار في كل العالم الإسلامي، ولا مجال هنا سوى التذكير بمثل هذه الضرورة.  
وبغض النظر عن ذلك كلّ، فإنّ ما يتعلّق بتاريخ مكة في القرآن الكريم، هو العلاقة بين الجهاد في عصر البعثة مع تحرير مكة من السلطة الطبقية لأشراف وسادة مكة قبل الإسلام وتطهير الكعبة من رجس الشرك.

ص: ٢٨٦

أستمحيكم العذر أن أشير إلى نقص آخر في إطار ضرورة إعادة قراءة تاريخ الإسلام، وهي أن المؤرخين الكبار قد وفروا لنا مصادر قيمة عن السيرة والمغازي، لكنهم لم يعتنوا أو يهتموا بتصنيف حروب التاريخ الإسلامي.

والنقص الأوضح، كان حول الغزوات والسرايا التي وردت في النصوص التاريخية بشكل متفرق وموزع من دون الاهتمام بانسجامها وما ترمز إليه، وأعتقد على ضوء الآيات القرآنية، أن جهود عصر البعثة كانت تتمحور حول تحرير الكعبة من سلطة ظالمي قريش.

من الواضح أنني لا أستطيع أن أدخل في شرح مثل هذه الفرضية هنا، وأكتفي بالإشارة التالية: لقد بين القرآن الكريم مشروعية هذه الجهود التي أراقت الدماء في مقابل ظلم المشركين وكذبهم، وهم الذين أخرجوا أبناء مكة من الحرم الإلهي الآمن:

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصيرهم لقدير» \* الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَبْعُ وَصِيْلَمَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُدْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (١).

تحرير مكة، في فلسفة الجهاد

إن أثر أو نور هذه الآيات يتجلى في سورة الحج، التي تعبّر عن العلاقة بين الجهاد في عصر البعثة وبين تحرير مكة، الأرض التي أهدت لتاريخ الحضارة

ص: ٢٨٧

الأمن، والتي بنى فيها أول مركز قامت أو تأسست فلسفته على الدفاع عن حقوق الإنسان ومصالحه، بحيث لا تجتمع سلطة الغرباء مع التوحيد والكعبة، أولئك الذين كانوا مدينين لأمن مكة في مختلف الظروف، من دون أن يستحقوا أو يتمتعوا بأهلية إحياء وعمران الكعبة.

روايه وسقايه زائري الكعبة، وإطعام الحجيج، وكساء الكعبة وسدانتها، والدفاع عن تلك الأرض، كانت لب وجوه حضارة مكة، كما لو أنها قد أوجدت نظاماً فيما يتعلق بشؤون بيت الله وملجأ الناس وتذكار إبراهيم الخليل عليه السلام. مع ذلك كله، فإن غربة متولّي الحرم عن روح الحج وفلسفه بناء الكعبة، كانت إلى درجة يصدق عليها قول شاعر إيران وخواجه شيراز المفوه (حافظ):

لقد ضرب الحاجب الجميع بسيف الخمره، وأخرج من الحرم خمرًا!

لقد شككت هذه النقطة المدخل المنطقي للقرآن الكريم للتأكيد على مشروعيه الجهاد في عصر البعثه، وهنا لا نستطيع أن نتطرق إلى الرموز والدلالات المجهولة للمعارك الدمويه التي دفعت أعداء رسول الرحمه صلى الله عليه وآله لاتهامه بالعنف، والحال أن فلسفه كل هذه المعارك لم تكن سوى وضع حد للحرب والعنف:

«فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا...» (١).

أرى أن رسول الرحمه صلى الله عليه وآله وأصحابه قد تلقوا أمراً بالحرب من أجل تحقيق شعار ومبدأ السلام، ولكي يخلصوا الإنسان والحضارة الإنسانية من وزر الحرب، فكيف يمكن اتهام الحرب بأنها عنف فيما فلسفتها تقوم على السلام والعداء للعنف؟!

ص: ٢٨٨

في الرد على أسئلة من هذا القبيل يجب القبول بالاختلاف بين حروب عهد الخلافة- خاصة بعد انكسار قفل الفتنة- مع حروب عصر البعثة، والاعتراف بالانحرافات إلى جانب السعي لإبعاد صفة الدموية والعنف عن الإسلام المحمدي ودين رسول الرحمة صلى الله عليه وآله.

النصر الساطع وبطولة (حماسة) السلام والأخلاق

لا أستطيع أن أشرح هنا جهاد عصر البعثة في علاقته بتحرير مكة، لذا على أن أتغاضى عن نقاط كثيرة واضحة وغير معروفة، لأشير إلى بطولة الأخلاق والسلام التي فكّت طلسم فهم سلام وأمن مكة، وحددت مصير أرض هي قبله المسلمين؛ أي الحديث عن صلح الحديبية الذي سماه القرآن الكريم بالفتح المبين:

«إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا\* لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا\* وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا» (١).

لو لم يكن لدى خوف من الإطالة بهذا البحث، لكان من الممكن لي أن أشير إلى نقاط حول تقسيم الفتوحات من رؤية قرآنية، غير أنني أكتفي بالإشارة إلى أن التجربة المرة للرسول صلى الله عليه وآله في علاقته بالمشركين، وما كان فيها من ليونة وبطولة أخلاقية، على الرغم مما تعرّض من ظلم وعنف من أعدائه، لم تكن عصية فقط على فهم المعاصرين للبعثة، بل ما زالت عصية أيضاً على الفهم حتى يومنا هذا، برغم مرور قرون عليها، ما يسبب عدم إدراك أبعاد وأسرار انتصاره الباهر والعظيم هذا.

ص: ٢٨٩

كلّ النصوص التاريخية والسّير والمغازى تحدّثت عن غضب واعتراض عددٍ من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله، عندما كانوا يرون تصرّفه الرحيم في الردّ على عنف وظلم سادة قريش، وما لم يذكر في هذه النصوص تلك الأبعاد العميقة لبطولة السلام والأخلاق المحمدية.

وأشير هنا إلى بُعدٍ من أبعاد الفتح المبين لا يكمن في البعد الظاهري الذي اهتم به كتاب التاريخ حول فتح مكة، من دون الالتفات إلى نتائج صلح الحديبية.

فإذا توقفنا قليلاً أمام الأحداث المختلفة لما بعد هذه البطولة العظيمة، ندرك أن أبرز نصير في تاريخ الإسلام قد تحقّق بمعجزة الأخلاق لا بحدّ السيف، ونرى أن أبرز رجال السياسة والسيف قد التحقوا بمعسكر الرسول بعد صلح الحديبية، كإسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص - بعد مدّة قصيرة منه - وهو تعبير عن أن معجزة الأخلاق هي التي نزعّت أسلحة العدو.

ولأنه لا يمكن في هذه العجالة أن نستفيض في الحديث عن هذه البطولة التاريخية والمصيرية كما يجب، سأشير إلى نقطة من السيرة النبوية اعتبرها رمزاً لهذه البطولة، لكن قبل ذلك لا بد من التطرّق إلى نقص آخر في كتابه السيرة هو:

عدم اهتمام كتاب السيرة بالمصادر القرآنية

الكبار الذين بذلوا جهوداً للكتابة حول السيرة النبوية وتركوا لنا آثاراً قيمة، كأنهم أغفلوا أكثر المصادر ثقةً في هذا المجال، لقد وجدت أكثر من مئتي آية في القرآن الكريم، كل واحدة منها تغطّي مجالاً من السيرة النبوية، وأذكر هنا أنموذجاً يدعم بطولة صلح الحديبية الخالدة:

ص: ٢٩٠

«وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ\* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (١).

فبلا- شك، هذه الآيات تتضمن أحد أبعاد المنطق الحاكم على سلوك الرسول صلى الله عليه وآله، أية ردة فعل هي أفضل في مواجهه السيئه؟ ثورة بعيدة عن التصور تسقط بيد العدو، فإذا اهتمنا بسلوك رسول الله صلى الله عليه وآله انطلاقاً من هذه الآيات التي تزيد على المائتين، والمتعلقة بالسيرة النبوية، فإننا سنجد نماذج على ذلك.

في الآيتين السالفتين، نجد علاقة بين معجزة الأخلاق وبين الاستثمار، فالاستثمار في الأدبيات الحديثة من المقولات الاقتصادية، أى الحديث عن الاستفادة من مصادر مثل الأرض والماء والطاقات المختلفة، وقمته ما نراه، فى إعادة إنتاج الطاقة الملوثة، لكن هاتين الآيتين تتحدثان عن الاستثمار البعيد عن التوقع والذي فيه حظٌ عظيم، أى تبديل العداوة إلى صداقة ورحمة، خلخله مركز الحرب وإسعار النار وتحويله إلى مركز للبناء.

صلح الحديبية، أنموذج واضح لمثل هذه المعجزة فى تاريخ مكة؛ فمعجزة الأخلاق كانت الردّ الأفضل على السيئات والقلوب المريضة بالتعصب والعداوة نحو الإسلام ورسول الرحمة، وتبديلها إلى مركز للحب؛ وإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص شهادة واضحة على هذا الواقع؛ فخالد صاحب السيف الذى هزم جيش الإسلام فى معركة (أحد)، وأنزل أشدّ الألم والجراح على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه، لكنّه تحوّل إلى قائد فدائى فى خدمة الإسلام بمعجزة الأخلاق.



ص: ٢٩١

بيعه الرضوان

تجديد بيهه أصحاب الرسول صلى الله عليه و آله معه- فيما يتعلق بصلح الحديبيه- يعبر عن أهميه هذا الحدث كنقطه تحول فى تاريخ الإسلام وتاريخ مكه:

«لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ» (١).

لا أنوى أن أعرض ما توصيت له- فى اعتقادى- على ضوء هذه الآية فى هذه الفرصه، فالواضح هو الاختلاف بين نظره أولئك الذين يقيمون الوقائع من خلال حجاب الظاهر، وبين النظرة التى لا تنجس حتى فى حجاب الزمان والمكان؛ فالرسول صلى الله عليه و آله قبل صلح الحديبيه رأى فى المنام أنه داخل هو وأصحابه إلى مكه، غير أن ما حدث من تطورات، ومن الكذب والظلم الذى مارسه أشراف وساده مكه فى مقابل نعمه رسول الرحمة صلى الله عليه و آله قد أثر على اعتقاد الكثيرين بالشك والترديد. لم يمر وقت طويل، حتى أزاح فتح مكه السلمى من دون إراقه دماء صداً هذا الترديد والشك، وشاهدوا بالعين ما رآه رسول الله فى المنام أو الحلم.

وأرى نفسى هنا مجبراً على التغاضى عن نقاطٍ صغيرة وكبيرة، وأن أختتم هذا القسم بالإشارة إلى أعظم حج فى تاريخ مكه.

حجة الوداع

فى المسافة الفاصلة بين صلح الحديبيه وحجة الوداع، وقعت أحداث كبيرة فى تاريخ الإسلام وتاريخ مكه، مثل عمرة القضاء، وفتح مكه، والبراءة من

ص: ٢٩٢

المشركين، وتطهير حرم الكعبة من آثار الشرك، ونجد أنها خصصت آيات فى القرآن الكريم؛ لذلك أكتفى بما قلته وما كتبه حتى الآن حول «صورة مكة فى القرآن الكريم».

ومن الواضح أن ما كتبه سيكون مدخلاً لأبحاث جديدة، أبحاث يجب الاهتمام والقيام بها فى إطار إعادة قراءة تاريخ الإسلام وتاريخ مكة بمشاركة علماء العالم الإسلامى.

والآن أتطرق إلى آخر حجة تاريخية للرسول صلى الله عليه وآله، والتي تعتبر أكثر الحجج ذكريات فى تاريخ الكعبة ومكة، أرض مكة مكان ولادة دعوة الرسول صلى الله عليه وآله الذى دعا إبراهيم الخليل عليه السلام ربه أن يبعثه، ولأن الحديث عن تلك الأرض التي شهدت أعظم مراسم حج فى حجة الوداع؛ فإذا اعتبرنا هذا الحج حسن الختام فى عصر البعثة فلا نكون قد قلنا جزافاً، خصوصاً إذا ما توقفنا أمام شأن نزول آية إكمال الدين، التي رويت مقرونة بحجة الوداع:

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» (١).

فى النظر الأولى، قد لا نجد علاقة بين هذه الآية والآيات التي تسبقها والتي تليها، إلا أنني أعتقد خلاف ذلك، فبالعودة إلى النقاط المحورية التي تدور حولها سورة المائدة، أرى أن هذه الآية كضوء منير يجب أن يشع على مائدة النعم الإلهية غير المحدودة.

إذا ما كنت لم ألتزم فى هذه الكتابة بإطار الآيات القرآنية، فإني أضيف هنا نقاطاً حول حجة الوداع، وأشير إلى التالي:

ص: ٢٩٣

في تاريخ مكة وتاريخ الإسلام الحافلين، لا نجد مثيلاً لتلك الأيام التي سيطر فيها هذا النشاط والحيوية على تلك الأرض، لكن سنّة الله التي لا تتغير قضت أن تكون أعذب مدينة في حياة هذا العالم معجونةً بالمرارة؛ فقد رافقت هذه المراسم العظيمة ذكريات من ظلال الحزن، ففيما كان معظم أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله في أوج نشاطهم وحيويتهم، وكانوا يحتضنون الكعبة في وسطهم كالفضّ، ويقومون بمناسك الحج مع رسول الله، في أوج هذه الفرحه التي لا يسعها الجسد، نالتهم حرقه حديث مرّ عن ألم الفراق، إن شرح تلك التجارب يجب أن نشاهدها من أقلام الفنانين بالاستعانة بالعلم والتحقيق؛ كي ينقلوا ويصوروا ذلك المشهد المثير.

مراسم الحج في سيرة الخلفاء الراشدين

كآخر قسم من هذا البحث، أشير إلى أنّ عظمه حجّة الوداع شكّلت الداعم لمراسم الحج في تاريخ الإسلام، فبعد ارتحال الرسول صلى الله عليه وآله، شهد المسلمون هذه المراسم العظيمة كلّ سنه بحضور خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله. وبالتوقف أمام الكثير من الأخبار، خصوصاً العائده إلى النصف الأول من القرن الأول، نشاهد آثاراً لإقامة الحج في رؤية تراعى مصالح المجتمع.

فخاصية في أيام الخليفة الثاني - وعلى الرغم من اتساع الثروة والقدرة وأسلوب تعاطيه وارتدائه للألبسة المرقعة - في ذروة محبوبيته وأوج الثروة والاقتدار وذكره على كل لسان (١)، نشاهد آثار تجربته القيمة في التاريخ السياسي، فقد استفاد من الحج كفرصة ليطلع ويُطلع قادة المسلمين في هذا الاجتماع على ما

١- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج ٤٤.

ص: ٢٩٤

يجرى فى العالم الإسلامى، وكذلك ليجد المواطنون فرصة ليخبروه بالحلو والمر من أخبارهم، وكذلك ليشاهدوا صورة حية من صور علاقة أركان وأقسام المجتمع فى التعامل البناء.

وفى الروايات أيضاً حديث عن غضب الخليفة الثانى مع عمال وكوادر الدولة:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟»، وكذلك الحديث عن تأكيدات المتكررة حول حقوق الناس والمواطنين.

ومن جملة الأخبار، حديثه حول الإصلاحات كان قد سُمع منه فى آخر سنواته، وقد تحدت عن الاختلاف الطبقي فى المجتمع وانتقده ووعد بأنه إذا بقى ليهدمن هذا الجدار أو هذه الفاصلة.

وللأسف، ومع إراقه دمه، كسر قفل رتاج الفتنة ودخل تاريخ الإسلام فى أتون الفتن التى لا يتسع لها هذا البحث، ولكن السؤال هو: هل إن الإصلاحات التى كان يتطلع إليها هى تلك الإصلاحات التى بدأ تطبيقها بعد مقتل الخليفة الثالث، أسئله من هذا القبيل والإجابة عليها نتركها لفرصة أخرى، ودافعى من ذلك هو السعى للإشارة إلى الاختلاف بين مراسم الحج فى العهد العلوى وما كان قد سبقها، ففىما كان الخلفاء الآخرون- إلا فى ظروف استثنائية- يقومون بحضورهم على الاهتمام بجلال الحج، كان الإمام على عليه السلام الذى يعتبر- وبناءً على الأخبار والروايات وليد الكعبة- محروماً من الحضور فى مراسم الحج، وكان مجبراً على تكليف نائب عنه كضريبة كبيرة دفعها من أجل مواجهة الحرب التى فرضت عليه وعلى الإصلاحات التى بدأها، مع ذلك، فقد قال فى آخر لحظات حياته حديثاً بقى معلقاً بالآذان:

«اللَّهُ الله فى بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنها إن تركت لم تناظروا».

ص: ٢٩٥

مقارنة الحج فى الظروف الحالية مع الحج المطلوب

أليس هناك فرق فيما نشاهده اليوم من مراسم للحج عن الحج المطلوب؟

لست فى صدد أن أجيب عن هذا السؤال، لكننى أشير إلى أن العالم الإسلامى اليوم وارثٌ لأرض وبيت ومراسم عظيمة مليئة بالأخبار والأحداث الباعثة على الافتخار، من عصر إبراهيم عليه السلام إلى عصر البعثة وصولاً إلى يومنا، وكلنا يرفع رأسه بهذا الفخر الذى لا بديل له أو نظير، مع ماضٍ مليء بالفخر أيضاً.

مع ذلك، يجب أن نأخذ هذا الهم على محمل الجد، وهو الحذر من أن نصاب بالتقصير أو التقاعس فى استثمار هذا الكنز أو الثروة الفريدة؛ ومن دون أن أطيل أشير إلى أن على العالم الإسلامى أن يعمل على توضيح دور الكعبة فى الدفاع عن حقوق الناس.

فى البداية، تيمنت بالافتتاح بآية ترى الكعبة أول مركز وضع لحماية حقوق الإنسان، وفى النهاية أيضاً أتيمن بالآية الكريمة التالية لأختم بها كلامى:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس...».

## تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم  
جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).  
قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رحم الله عبداً أحيا أمرنا... يتعلم علومنا ويعلمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لتبعونا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رحمه الله - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعبه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.  
مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المتبدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقله) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في جامعه، و...  
- منها العداة الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الإيرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى.  
- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" [www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com) و عدّه مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديّه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسه

(ي) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" ومفترق "وفائي" / "بناية" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية  
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

